عبد الإله بنعرفة



رواية

عبد الإله بنعرفة

جبل قاف

(روايـــــة)

الطبعة الأولى ذو الحجة

1422 – 2002

مطبعة عكراش بالرباط

مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء

إنجاز الغلاف : المؤلف

وجه الغلاف : يوم من أيام الدهر والأسماء الإلهية

تحرس قلب جبل قاف.

ظهر الغلاف : الحية التي تطوق جبل قاف

رقم الإيداع القانوني 2002/0152

ردمك ISBN 9 - 0 - 8111 – 9954

إلـــــــــى

روح الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي محيـــــــي الدين بن العربي الحاتمي المغربي حجة الله في الأقضية وعمدة الله في الأمضية محل نظر اللـــــه من خلقه الممد للعوالم بروحانيته الذي سقاني من رحيق محبوبيته وألبسني خلعة سيادته فلهجت بما هنالك بما أعارني من بنات كشفه، فلست سوى اللسان والترجمان.

قدس الله سره ما اتصل القاف بالقاف والنون بالنون.

بالحاتمي الخاتمي كنز الغنى	يارب أوصل حبلنا بحبالــه
بدر لدى جو السماء مكمـــل	وسواه في التحقيق مثل هلاله

قاف مرسيه

الحمد لله الذي أفضى بالنجم الغارب إلى علياه وأشرف بالنجم الطالع على البزوغ.

لقد استدار الزمان بعد عقد السنة وحلت الأمانة في المرسى .

في هذه السنة توفي محيي الدين عبد القادر الجيلاني قطب المشرق . ومرسية مرسى علوم الرسالة ومسراها تستعد لاستقبال وارث علوم الرسالة والنبوة محيي الدين محمد بن العربي . مات محيي الدين وولد محيي الدين .

الجو حار في هذا الوقت أي في رمضان من عام 560 . وأغلب الأسر المرسية تفضل قضاء الصيف في مدن الساحل. لكن أسرة ابن العربي لم تتمكن من مغادرة مرسية منذ مدة . فالأوضاع العسكرية للمدينة مضطربة جدا ووظيفة علي بن العربي وهو القائد العسكري البارز لا تسمح له أن يترك مهامه إلى جانب الأمير ابن مردنيش. قفل القائد من قصر ابن مردنيش للإفطار ودخل بيته وهو مهموم للأوضاع العامة وبالخصوص لأنه ينتظر أن تضع زوجته نور مولودا جديدا وقد كثرت عليها في الأيام الأخيرة أعراض الحمل. وتتوقع أن تضع قريبا فقد رأت كثيرا من المبشرات تزف إليها نبأ ولد يكون مفخرة أبيه ويؤنس أخته أم السعد. ولكم تحسرت على عدم تمكنها من الصوم. فقد مرت من رمضان سبعة عشر يوما . وهي المرأة الصالحة التي تقوم الليل وتصوم كثيرا خلال شهور العام.

كان السوق مكتظا بالناس والدواب والجميع في حركة دائبة قبل أن يدركهم صوت المؤذن مناديا للصلاة ومخبرا بالإفطار. هناك بعض الجلبة غير المعهودة في هذا الوقت كما في سائر الأيام. فالأسواق تنفق في الصبيحة؛ أما في رمضان فيتغير كل شيء،، فبعد الظهيرة يكثر البيع والشراء والحمل والوضع. وأنت ترى ألوانا وأصنافا من الناس فيهم المسلم واليهودي والنصراني وفيهم العربي والبربري والزنجي والقوطي والصقلبي. كان سوق مرسية قريبا من المسجد الجامع وهو عبارة عن حارات ضيقة فيها مجموعة من الدكاكين التي لا تكاد تحصى. وفي السوق مجموعة من الفنادق لإقامة التجار والمسافرين والغربا. وفي الأدوار العلوية توضع البضائع وهناك غرف يتم تأجيرها لهؤلاء. ولكل نوع من الحرف والتجارة زقاق وحارة خاصة. فهذا زقاق المنسوجات بأنواعها فمنهم صاحب الكتان والحرير والقطن وأسماء أصحابها تخبر بذلك فهذا الكتاني والآخر البزاز والثالث القصار وهكذا دواليك. وهناك الجواهري والعطار وصاحب التوابل والأفاويه. وبالسوق مكان لبيع الخضر والفواكه التي ترد من القرى القريبة، وغير بعيد عنه مكان لبيع اللحوم من بقر وغنم وماعز. وكان المحتسب يفرض على كل بائع أن لا يبيع إلا نوعا واحدا من اللحم حتى لا يغش الناس في نوع اللحم. وبجانب هذه الحوانيت هناك أخرى لبيع السقط وثانية لبيع الطيور والقنليات أي الأرانب إما مسلوخة أو حية، وإلى جانبها ثالثة لبيع أنواع البيض المختلف. وأمام كل بائع سطل مملوء بالماء لاختبار جودة البيض لأن الفاسد لا يطفو. إلى جانب باعة السمن والزيت

والزبد والعسل وأصحاب المجبنات والسجق والهريسة التي يستهلكها كثيرا أهل الأندلس عموما. وبالجملة فالسوق مدينة داخل المدينة حيث تجد فيه كل شيء.
وللمحتسب دور كبير في هذه المدينة لتحصيل المداخيل ومراقبة الأوزان والتثبت من البضائع وصلاحيتها. والقاضي هو الذي يعين المحتسب ويختاره من ذوي الأهلية والعلم. وللمحتسب مهمة تنفيذ الأحكام بحيث يمكن أن يسجن المتلاعب بالأسعار أو الذي يغش عموما. وقد ضبط المحتسب في شهر رمضان أحد الخبازين الذي أنقص من وزن خبزه فكانت عقوبته أن حجز جملة هذا الخبز. وتم التصدق به على الفقراء والغرباء وذوي الحاجة. ومهنة الخباز دقيقة وصارمة والمحتسب كثير المراقبة لجودة القمح والطحن وغربلة الحبوب وعدم تخليط أنواعها والحرص على النظافة. وإذا بقي العجين من البارحة يمنع عجنه لليوم التالي كما أن كل خباز يضع اسمه على خبزه أو علامة تميزه. إلى جانب كل هذا فقد منع المحتسب على كل حرفة مستقذرة بيع الخبز كبائعي الأسماك واللحوم والدجاج. ومع كل هذا الحرص كنت تسمع بين الفينة والأخرى متلاعبا أو مدلسا ضبط وتمت عقوبته. وأكبر هذه العقوبات كانت تخص الصيارفة وأغلبهم كانوا من اليهود. فإذا ضبطت عملة مغشوشة أو ناقصة تم البحث عن الصيرفي الذي فعل فعلته المنكرة فيطاف به في السوق للإزراء به والتنكيل بشخصه ثم يسجن. وعموما فالمحتسب يراقب ما يجري في السوق وكثيرا ما كان يرى في الأسواق وأتباعه يحملون الميزان خلفه للتأكد من وزن البضائع. والأثمان محددة وخصوصا أثمان بعض المواد كالقمح.

دخل ابن العربي بيته فاستقبله مسرور الخادم وأخبره بتسارع الطلق لدى زوجته فأمره حينا بإحضار القابلة. خرج الخادم مسرعا وعاد بعد مدة وبصحبته القابلة، فأدخلت سريعا إلى حريم النساء. وهي تحمل كيسا جمعت فيه أنواعا من التحاضير.

جلس علي حاسر الرأس في مجلسه وتلك كانت عادة الجند والقواد بل وحتى بعض العلماء في شرق الأندلس. وكان المغاربة على العكس من الأندلسيين يتعممون. ولهذا شاع بين هؤلاء المثال الساخر "طالع هابط تحت عمامة في رأس مرابط" إشارة منهم إلى عمامة المرابطين.

وضعت أنواع المأكولات وأصناف المطعومات أمام سيد البيت الذي تجرد من ثياب الخدمة وجلس بعدما توضأ في مجلسه وارتدى فوقية بيضاء. وتحتها قفطان أخضر اللون من القباطي وفي يده سبحة يلهو بها بين الحين والآخر وتفتر شفتاه بذكر هامس. وقد اتخذ منذ اقترب إبان وضع زوجته ذكر اللطيف تلطيفا لما قد يعسر قبل الوضع. وكان يوشي هذا الذكر بالصلاة على النبي حتى تخفف من حرارة هذا الإسم الحاكم على الجن لأن الذكر به لوحده تجلب الحرارة فيبرده بالصلاة على النبي. كان علي مستغرقا في ذكره والفكرة مسيطرة عليه والأفكار تتزاحم وتتطاير كالعصافير وهو تحاول أن يمسك بواحدة منها فلا يستطيع لشدة تداخلها وتطويق أسرابها لأفق فكره. فمن الوضع العسكري المزري الذي تعرفه الأندلس عموما ومرسية خصوصا مع ابن مردنيش الذي قام يقاوم الموحدين دون سائر الأمراء. الذين أذعنوا لملكهم. وبين قرب وضع زوجه ورغبته في أن تنجب له ولدا ذكرا،

إلى إمكانية أن يناله من الموحدين مكروه بسبب موالاته لأمير شرق الأندلس، إلى خوفه على أسرته. كل ذلك أنساه حر القيظ والصيام في هذا اليوم. دخل الخادم الزنجي مسرور وأخبر سيده قائلا : إن القابلة تريد بعض اللوازم لتسهيل وضع سيدتي.

أعطوها ما يلزم وقبل ذلك اطلب من مولاتك رأيها في ذلك

سمعا وطاعة يا سيدي

أسرع الخادم إلى حريم النساء. فالتقته فتح الزهر وهي قهرمانة البيت وسألته عن فحوى إسراعه فأخبرها بأمر سيده.

ولكنها تمتنع عن تناول أي وصفة لتسهيل وضعها، فارجع إلى سيدك وأعلمه بذلك.

عاد الخادم وأخبر السيد بما نبهت عليه فتح الزهر.

سأرى المسألة بنفسي... افتح الطريق أمامي إلى جناح سيدتك.

قام علي من مجلسه وموعد الإفطار قد قرب ويمم نحو غرفة مريم فلقيته فتح الزهر والقابلة تيسير. أقبل علي على زوجه وحياها ثم سألها عن حالها

فقالت : بخير والحمد لله... ثم أردفت : أما وصفة تيسير فلا حاجة لي بها

ولماذا ؟

تدخلت تيسير قائلة : يا سيدتي انظري إلى هذا الشحوب الذي علا نضرة محياك، وهذا النحول الذي أضمرك وأنهكك. وصنعتي في تيسير العسير معلومة وبأرجاء.

مرسية مطلوبة. و ها أنا بدأت أبخر البيت بريش الرخمة وهو نافع في إسراع الولادة. و ما عليك إلا أن تشربي هذا الشراب الذي حضرته لك وسترين بإذن الله فعله فيك. وهو مجرب ونافع ونحن معاشر القابلات نتوارثه من زمان جالينوس الحكيم.

إن نفسي تأنف من مثل هذه التحاضير التي تضعون فيها يد الضبع اليمنى أو مرارة التيس المذابة أو كرش الأرنب ثم تسقونها الحامل. فأنا أتقزز من مثل هذه القاذورات.

لا بأس عليك يا نور.. ولكن تيسير قابلة ماهرة وعلى راحة الحامل ساهرة. وفنها ذائع الصيت متوارث ليس للخرافة فيه سبيل وقد أثنى عليها مهرة الأطباء من أمثال صديقي الطبيب ابن زهر.

يا علي، لقد رأيت في المنام هذا المولود وكان ذكرا ولقد طيب خاطري وأزال روعي وبشرني بالخير الكثير وأمرني أن آخذ آنية جديدة نقية ويكتب فيها : لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، صدق الله العظيم الكريم كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها . لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ. فاذهب يا علي واكتب هذه الآيات في آنية جديدة نقية وائتني بها أغسل بها وجهي وأشرب منها، ثم ائتني بشيء من الرطب فقد أمرني بتناوله بعد ذلك.

كما تريدين يا نور. والتفت إلى مسرور قائلا: اذهب إلى جارنا أبي العباس النحاس وخذ منه سلطانية من فضة وائتني لها سريعا.

خرج مسرور مسرعا وعاد بالسلطانية بعد قليل، فكتب علي عليها الآيات المطلوبة في باطنها ثم غسلها بالماء. وناولها لنور التي رشت منه على وجهها بمساعدة فتح الزهر ثم تجرعت ذلك الماء. فأحست براحة كبيرة. وقد علا صوت المؤذن بالتكبير في هذه اللحظة.

ما أشبهك يا نور بحنة أم المسيح عليه السلام حين هدأ من روعها ولدها: "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك من تحتك سريا وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا". فها أنت شربت الماء. و ما بقي إلا أن تأخذي الرطب. قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب. فلنتناول سويا تمر العجوة.

بسم الله، اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله. هكذا قال علي ثم أكل ثلاث تمرات لذيذة وشرب شيئا من الماء. ودعا الله أن يرزقه ولدا صالحا عالما وأن يسهل على زوجه الطلق. ثم خرج من حجرتها إلى مكانه الأول وصلى المغرب وركعتي السنة وأقبل على الطعام وهو منبسط هذه المرة. وأمامه أنواع من الحلوى كالمدائن التي كانت تشبه المدن والمشبكات والمقاريط وغيرها إلى جانب حساء الحريرة والبيض المسلوق والأجبان الطرية واللبن والحليب وأنواع العصير والشراب المثلج والفواكه مثل

الرمان الذي اشتهرت به مرسية والذي بدأ يظهر في السوق. وكذا زيتون إشبيلية والتوت الذي كان بكثرة في شرق الأندلس. كما وضعت أمامه آنية من التين القوطي والتين الشعري المجلوب من إشبيلية وتين مالقة. أخذ علي تينة منه وتذكر قول أبي الحجاج المالقي:

مالقة حييت يا تينها　　الفلك من أجلك يأتينها

نهى طبيبي عنه في علتي　　ما لطبيبي عن حياتي نهى

ثم أخذ ثانية وثالثة منكلا بقول الطبيب كأبي الحجاج. ثم أخذ من كمثرى بلنسية المعروفة بالأزرة وقد جمعت من الحلاوة في الطعم وذكاء الرائحة ما يفضح آكلها في الحين. وعرج ثالثا على تفاحة من تفاح شنترين ذات المذاق الحلو والحجم الكبير. و ما زال ينتقل من لون إلى آخر و هو لا يصدق عودة الشهية إليه بعد مدة. و قد استبشر بما قالته له نور ورأى الخير في ذلك رغم الحصار الذي طوق به الموحدون مرسية. فكيف له أن يتخلص من هذه الورطة التي فرضتها عليه مهامه كقائد عسكري لدى حاكم مرسية أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش وبفعل الولاء أيضا لأنهما جميعا من أصل يمني. فأسلاف علي هم من عرب اليمن وجدهم هو عبد الله بن حاتم أخو عدي بن حاتم الصحابي الجليل المعروف بكرمه. كما أن بني مردنيش يمنيون قحطانيون ويلتقون في كهلان. وكان أغلب القحطانيين في شرق الأندلس. وهذه العصبية القبلية بقيت مستمرة حتى أطفأ أوارها المنصور بن أبي عامر الذي شتت بطون العرب وأنفاذهم في الجيوش وجعل القائد من غير نسب

أجداده فظهر الإنتساب بعدها إلى المدن والكور مثل الإشبيلي والغرناطي والقرطبي والمرسي...

لم يستدع علي إلى منزله أحدا لوجبة الإفطار على عادته كما أنه اعتذر لابن مردنيش الذي طلب منه الإفطار معه فتعلل بخال زوجته. نادى علي الخدم لرفع الخوان وأحضر طست بماء دافئ فغسل يديه بالصابون ثم أخذ منشفة معطرة بماء الزهر ومسح يديه وعلى فيه ثم جلس تحتسي كأسا من القهوة العربية المعطرة بحب الهال ودار صيني. ثم أخذ يلاعب بنته البكر أم السعد التي سألته قائلة: هل سيكون لي أخ أم أخت يا أبي؟ فسألها الأب بدوره وعلامات الرضى بادية من طلعة وجهه: وماذا تفضلين؟ أفضل أخا حتى لا ينازعني في حبكما. ضحك علي وطمأن بنته: بل سيبقى حبك في قلبينا ولو رزقنا بعشر. وإني أفضل كذلك أن نرزق بولد يرثني ويرث اسم أسرتنا العريقة ويكون حاميا لك من بعدي. وماذا نسميه يا أبي؟ نسميه محمدا بإذن الله تيمنا باسم الرسول الأمين وذكرى لوالدي رحمه الله. والآن قومي إلى فراشك واتركيني أؤدي صلاة التراويح، ولكن لا تخبري أحدا بالإسم فهو سر بيننا. حاضر.. ثم انصرفت بسرعة فتلقفتها فتح الزهر وقادتها إلى أمها لتقبلها ثم أودعتها فراشها. نامت الطفلة الصغيرة ورأت في المنام أنها رزقت بأخ لها سماه أبوها محمد وكان تحبها حبا شديدا ثم رأت أنها رزقت أختا ثانية لها وأنهما ستتزوجان في مدينة بعيدة وستغادران الأندلس.

عاد علي من صلاة التراويح في المسجد الملاصق لبيته وكان متعجلا هذه المرة فلم يصبر على تباطؤ الإمام في القراءة وكان شيخا مسنا. كان علي كثيرا ما يصلي في هذا المسجد العشاء والصبح في العتمة فلا يكاد يتعرف عليه أحد لأن المسجد مسرج ببعض القناديل وضوءها خافت جدا. وقد قرأ الإمام في صلاة التراويح حزب طه فاستهل تاليا: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن تخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى.." . وقد غاب علي عن حسه حين كان يقرأ الإمام ورأى أنه سيرزق في هذه الليلة المباركة بهذا الولد المرتقب. فهذا شهر القرآن رمضان وهذه السورة هي أشرف سورة في القرآن في العالم السعيد، وهي السورة التي يقرأها الحق تعالى في الجنة على عباده بلا واسطة. وكان يسأل الله أن يجعله من أهل القرآن حين يخر ساجدا. استبطأ علي قراءة الإمام لأنه كان يتوقع أن تضع نور بين الحين والآخر وكان يود أن يكون حاضرا ليرى بعينيه فلذة كبده. خرج من المسجد مسرعا فاستقبله مسرور وأنهى إليه وشاكة وضع نور وكونها لم تحس بآلام الطلق كما تحدث لعامة النساء.. ثم أخبره أن تيسير إلى جانبها مع فتح الزهر وبعض الخدم. نزع علي رداءه وجلس على بساط ثمين من صنع تتالة وهي من أعمال مرسية، وأخرج كتابا من أحد الصناديق ثم صار يقرأ فيه إلى أن غشيته سنة من النوم فاستلقى في مكانه.

ولادة القاف

مرت برهة من الزمن قام على إثرها ومسرور أمامه وأسارير البيضاء تفصح عن حاله. هب علي مسرعا بدون أن يسأل الخادم متوجها نحو حجرة نور فسمع صوت رضيع يصرخ صرخات متقطعة. هشت في وجهه تيسير وقدمت له الرضيع الذي تم لفه في ثياب جديدة، وقالت له: إنه مولود ذكر صلاة النبي عليه. أخذه الوالد وحمد الله وكبر ثم أذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى ثم دعا بعجوة من تلك التي أفطر بها فمضغها ثم تفل في فم الصبي وحنكه بها فهدأ الرضيع وأخذ يلوك التمرة في فمه ولعابه يسيل وبدا على ملامحه الهشة المنتقعة شبه ابتسامة فاترة لطيفة. تقدم علي نحو نور التي بدت هادئة والإبتسامة تعلو وجهها، فقبلها على جبينها فابتسمت له ابتسامة المتيقن الذي تحقق يقينه. رفع علي حاجبه رسولا عنه مجيبا عن تلك الإبتسامة كما لو أنه يؤكد صحة ذلك اليقين، ثم جلس على طرف سريرها وقال لها: سوف أخبر الأهل غدا باكرا حتى تحضروا وسنقيم الولائم طيلة الأسبوع حمدا لله على ما أنعم به علينا من ولد وصحة وعافية، وسأتصدق على فقراء مرسية.

في اليوم الثالث بعد وضع نور مولودها أخذتها رغبة ملحة للذهاب إلى الحمام والإغتسال من أعراض الوضع خصوصا في هذا الشهر المبارك شهر الطهارة والطهر والعبادة. وهي تعلم أنها غير مخاطبة بهذه التكاليف لأن عذرها بين ومع ذلك أرادت أن تشكر الله الذي رزقها بهذا الولد الذي وإن لم يكلمها في المهد كعيسى فقد كلمها وهو في بطنها. نادت على فتح الزهر وأخبرتها برغبتها. أبدت

الخادمة بعض العجب لأن النساء تلزمها راحة أكبر إلا أنها لم تنبس بكلمة لما تعلمه من عزم سيدها . ثم أمرها أن تخبر بعض صوحباتها ليرافقنها للحمام . فهذا المكان من المرافق التي تنزل فيه النساء الصبيحة أو الظهيرة بأكملها حيث ينجاذبن الحديث ويقلن الشعر . فهو أشبه بالنادي الأدبي لنساء الأندلس . ذهبت النساء يتقدمهم الخدم إلى الحمام الذي كان قريبا من قصر ابن العربي والزغاريد تعلو ثم دخلن الحمام الذي كان غير بعيد عن المسجد بل هو من مرافقه . كان بناءا جميلا . مجموعة من القباب تحيط بقبة أعظم تتصدر الكل . باب الحمام على شكل حذوة فرس بدون عقد على شكل أقواس المرابطين التي كانت رائجة وقتها . وهو مبني من الحجر المنقوش بتجاويف وعقد تلتقي ثم تفترق فتشكل عقدا منضدا حول جيد الباب . على الباب حارس خصي أسود اللون لدرء الشبهات وامتثالا لأمر محتسب المدينة الذي لا يمكن أن يسمح لرجل فحل أن يحرس حمام النساء . دخل الجمع عبر المدخل الذي يمثل شكل اللام بزاوية قائمة، ووصلن إلى البهو الذي تعلوه القبة المذكورة وفي وسطه نافورة من الرخام ينسكب منها الماء برفق فيقع على أرض كسيت برخام أبيض فيحدث ذلك الماء توقيعا عجيبا بين لطافة الماء وسيولته وارتطامه بالرخام وكثافته فيبرز من هذا اللقاء صوت برزخي بين اللين والشدة أشبه بخروف اللين والرخاوة . سقف القبة مكسو بخشب الأرز وقد علته النطاريز والتواشيح، وعند انحدار القبة قام جدار يعلو قدر ذراعين وضعت على جنباته شرفات أشربت بزجاج مختلف الألوان منتظم الأعيان . وما أن تطرقه أشعة

الشمس حتى ينقلب أحجارا نفيسة تتراقص على صفحة ماء. النافورة الرخامية. على قاعدة الجدار مد البناء على شكل مربع فبدا للناظر وكأن القبة وضعت على هذا المربع. وبين الشرفة وضرتها أقيمت أعمدة زوجية من المرمر عددها ثمان وعشرون على عدد منازل القمر. فإذا أظل جنح الليل شمس النهار وهجم عسكر الظلام بدا القمر متوشحا ومتبذلا من خلال الشرفات قاطعا لها مسافرا عنها . وحدة الضوء في كل ذلك تزيد وتنقص ما بين إبدار وإسرار فمن ليال غر لليال قمر لثالثة نهر لرابعة زهر فخامسة بيض ثم يبدأ في النقصان من ليال درع لليال ظلم فحنادس ودآدى، وليلتا المحاق وأخيرا ليلة السرار. ثم يعود دور آخر وطور جديد، فاعجب لهذا الصنع البديع والذكاء المريع. قمر يعلو وأقمار تجول وتجلو حماما اكتنفته أبخرة الماء الساخن. عند قاعدة الأعمدة تأخر البناء في الجهات الأربع وانفتحت غرف كبيرة علتها أشرطة رقمت بأبدع الأشعار، منها هذا القول الملغز :

ومنزل أقوام إذا ما تقابلوا   تشابه فيه وغده ورئيسه

ينفس كربي إذ ينفس كربه   ويعظم أنسي إذ يقل أنيسه

إذا ما أعرت الجو تكاثرت   على من به أقماره وشموسه

وآخر يذكر بما يجري فيه من مجالس علم:

إن حامنا الذي نحن فيه   أي ماء به وأية نــــار

قد نزلنا به على ابن معين   ورويناعنه صحيح البخاري

وكتب على شريط آخر خلاف ما سبق وهي استجابة الشاعر لداع دعاه للحمام :

قد أجبنا و أنت أيضا فصبحت بصبحي سوالف وسلاف

وسباق يسبي العقول بساق وقوام وفق العناق خلافي

وهكذا سارت هذه الأشعار على جدران الحمام تشي بمعارج الناس في الطهارة بين التبذل والتجمل وكل له مقام إليه يسير وعنده يقف. ومن العمدان انتصبت نتوءات تسمى المقرنصات على شكل الرماح والمزارق تسبك الدائرة بالتربيع وتحكي قصة قبة السماء مع كعبة الأرض. دخل الوفد أبهى غرفة في هذا البهو وتصدرت نور المجلس وجلس بجانبها صوتخبالها ثم تقدمت فتح الزهر برفقة الخادمات لتجريد هذا القطيع من المها مما علاه. ولهذا الأمر طقوس مرعية ومراسيم على مر الأجيال محضية. وكان بالحمام نساء وقفن على الخدمة حذقتهم الصنعة وهذبتهم معاشرة نساء الأعيان، فالأدب جماع كل خير، فلا تسمع إلا خيرا. بدأت فتح الزهر في تجريد نور من ثيابها، فكشفت عن وجهها خمارا حريريا شفافا فستقي اللون ثم فكت معجرا شدت به رأسها وبدت تحل ضفائرها التي انسدلت حتى أشرفت على أردافها كأنها قطع الليل تنجحر في فجاج كثبان. ثم نزعت عنها رداء من الملف الخفيف الأخضر ووضعت ما كان عليها من حلي وجواهر وقلادة ودمالج وخلاخل وأقراط في صندوق محكم الصنع غشي بصوان من فضة وأغلقته بمفتاح وضعته في جيبها وناولت الصندوق لوصيفتها الأولى مهجة النفوس، ثم أكملت نزع الثياب من قمصان وسروال وشدت عليها مئزرا ستر عورتها. أما باقي النساء فتجردن من ثيابهن لوحدهن ثم دخلن الحمام والزغاريد تدوي داخل البهو كما

لو أنها أصوات ظبا. توعدها سباع البادية فشردت إلى حيث الأمان. باب الحمام الذي يؤدي إلى الغرف متوسط الإرتفاع مصنوع من خشب سميك سمر بمسامير غليظة وفي جانبه الأعلى إلى اليسار وضعت كف من حديد على الباب ترمز ليد فاطمة الزهرا. حفظا للوالج فيه من عين تسلبه أو جني يسكنه. وفي الحائط الذي يعلو الباب من الخلف امتد حبل سميك علق بأصله قطعة ثقيلة من الحديد تدفع الباب لينغلق إذا دخل الداخل حفاظا على حرارة الحمام وعن يسار الباب في الدهليز اللامي الضيق ميضة لقضاء الحاجة وهي حجرة صغيرة تسع شخصا واحدا وعن يسار المختلي صهريج صغير ينزل إليه الماء من إحدى الأنابيب للإستبراء. وقد وضع الماء في جهة اليسار لأن اليسرى هي المعدة لمثل هذه الأوطار. بعد الدهليز يصل المرء إلى غرفة باردة شقت في جدرانها مجموعة من الخلوات التي تسع الشخص والشخصين. وهذه الغرفة مقببة وتفضي إلى غرفة أخرى متوسطة الحرارة وفيها مجموعة من الخلوات أيضا ثم تصل إلى الغرفة الثالثة وحرارتها أعلى. أما الأبواب التي تفضي بك من غرفة إلى أخرى فلم تكن متسامتة بل كانت مائلة بعضها عن بعض حتى تعيق خروج الحرارة ودخول الهواء البارد. وفي صدر الغرفة العالية الحرارة قدر نحاسية ينسكب إليها الماء من أنبوب مغروز في الحائط الجوفي والذي يلي بيت النار حيث يتم تسخين الماء. ولا سبيل للوصول إلى بيت النار من داخل الحمام وليس له منفذ يطل منه إلى حجرة الحمام منعا لمتعهد النار من التلصص. ومن القدر يتسال الماء إلى مجموعة من الصهاريج الرخامية وفيها يأخذ الناس قدر حاجتهم من الماء في

أقبا. من الخشب مسكت أجزاؤها بصفائح من حديد ختمت حلقة القب. جلست نور على دكة في الحجرة الوسطى وعن يسار الدكة خلوة تسع أربعة أشخاص. نظف الخدم المكان بالماء والحامض ثم رشوا عليه من ماء الزهر وأحاطت صاحباتها بها. فهذه ريحانة ممشوقة القوام وتلك نزهون أديبة مرهفة الحس قد تمثلت بقول ابن بقي فأنشدت:

حمامنا كزمان القيظ محتدم وفيه للبرد ص غير ذي ضرر

فأجابتها نور مستحضرة قول الأعمى التطيلي:

ضدان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

فضحك هذا السرب من النساء لبراعة الإستحضار خصوصا وأن الوقت قيظ.

تقدمت النساء التي كن في الحمام وهنأن نور على الزيادة الجديدة والصحة التي تتمتع بها وليس بها مما يعرض للنساء من جهد وتعب تظهر آثاره بارزة على وجههن الذي هجرته النضارة وقلاه الندى. أما نور فإنها ازدادت نورا على نور واحمرت ديباجاتها ثم انسلت حبات الماء الفاتر على مسيلهما كأنها حبب على شقائق أو حب رمانة ينضح بمائه. وفي الخلوة ثلاثة أنابيب واحد للماء البارد والعاقب له للفاتر وثالثهما للماء الساخن، ويتلقى الماء المنصب بإدارة ذراع إلى اليمين لفتحه فيسيل في الصهريج المعد له ثم يدار ثانية إلى اليسار لمسك اندفاعه. بدأت فتح الزهر بمعاونة إحدى الطيابات بوضع مخلوط من ورد وقرنفل وغاسول وخزامى على شعر نور وطليت جميع أنحائه بذلك الخليط ثم لبد وترك مدة ساعة ثم غسل بماء دافق.

وعاودت الطيابة وضع خليط آخر عبارة عن قشور الجوز الأخضر المدقوق دقا ناعما والمضروب بدهن السمسم ثم وضعت هذا الطلاء على جميع أنحاء الرأس لأنه نافع في تسويد الشعر. أما الخليط الأول فإنه نافع لتقوية شعر الرأس. وبينما كانت الطيابة منهمكة في عملها أضربت نور عن الكلام حتى لا تضايقها في عملها، ولما انتهت من الرأس أقبلت على الظهر تدلكه بقفاز من الشعر لإزالة الأوساخ وظاهر الجلد المتلاشي. كان الوقت ظهرا والنور يلج إلى الحمام عبر ثقب في سقف الحمام تسمى المضاوي، تكون عادة على شكل نجوم. فالكل في الحمام يحكي الأرض والسماء. وكان البخار ينسرب من بعض الثقوب التي تنبعث من الفناء أي بيت النار الذي يوجد في جوف الحجرة الداخلية فيلف الحاضرين بردا يعيق النظر عن بعد. مر الوقت هكذا وأحست النساء بهواء بارد يلفهن وبانخفاض حرارة الحمام فتولت الطيابة إخطار متعهد النار الذي ذهل عن عمله وخرج يطلب صلاة العصر. وكان هذا المتعهد كثيرا ما يترك الفناء للصلاة؛ وإن كان المحتسب يلزمه الصلاة في مكانه خوفا من احتراق الحمام بمن فيه. ولا شك أنه سيؤدبه إذا عاد لذلك خصوصا وأن تغاضي المحتسب لا ينفع ما دام أن نساء الأعيان وزوجة القاضي قد تنقل الخبر لبعلها فيوبخ المحتسب على تهاونه في الضرب على أيدي هذا المتشدد في دينه المترخص في سلامة الناس. ولا أدل على جهله بالفقه من هذا الصنيع. رطمت الطيابة الجدار الجوفي بكفها ثلاث مرات فسمع لذلك دوي كبير لحظ بذلك خادم النار ولم تمر أنفاس معدودة حتى سمعت دقات مكتومة من

الجدار تنبئ برجوع أسود الزناد، وكان هذا هو لقب المتعهد. عادت الطيابة بسرعة وقالت لنور وصاحباتها : إنه أسود الزناد العلج الرومي دائما يفعلها وقد وشت به غير واحدة من الطيابات للمحتسب لكي يرتدع عن فعله فلم ينته ولا شك أنه سيفصله عن الحمام هذه المرة.

نطقت فتح الزهر : سود الله وجهه، ياله من علج مشؤوم. ماله تخاطر بحياة سيدات مرسية. والله لأقولن لمسرور لكي ينقل الخبر إلى القاضي. تدخلت نور قائلة : بل لن تفعلي، لقد رزقت بهذا الولد ولا أريد أن نسبب أتعابا لهذا العلج المسكين في أيام فرح. فحداثة إسلامه تفرض علينا أن نسدل له النصح لا أن نوغر صدره على المسلمين حتى يرتد فنكون سببا في ردته والعياذ بالله. بل أرسلي في طلبه حينما ينتهي من عمله وسوف يكلمه فقيه المسجد الذي سيفد لي مع سيدك هذه الليلة ويفقهه في أمور الدين. نعم الرأي يا نور فأنت امرأة حصيفة الرأي سديدة القول، بارك الله فيك. هكذا خاطبتها ريحانة زوجة القاضي التي كانت ينبت إخطار بعلها قبل أن تبدي نور محاسن الصفح والإغضا.. أكملت الطيابة عملها من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين ومررت على جميع جلدها صابونا أخضر اللون يصنع من زيت الزيتون وكان مكعب الشكل والقطعة منه في حجم الرمانة الكبيرة لكنه كان خفيف الوزن. وكان تجلب من إشبيلية المشهورة بزيتونها وزيوتها. كانت روائح الند والعود تنبعث من مباخر وضعت داخل الخلوة لتعطير المكان. وقد تفننت الطيابة في تنعيم بشرة نور بأنواع من المراهم بعضها لإغلاق

شقوق البطن التي سببها الحمل وأخرى لتشيط البشرة ثم عطرتها بأنواع من العطور من عطر يسمى روح الروح وآخر اسمه ألف زهرة وثالث اسمه رائحة الجنة. ثم صدر جمع النساء عن موضعهم إلى بهو الإستقبال. وأسرعت فتح الزهر والطيابة في أخذ المناشف من القيمة على الحمام والجالسة على كرسي مرتفع. جففت فتح الزهر شعر سيدتها ثم ضفرته بمعاونة مهجة النفوس في أبهى صنعة ووضع عليها من الثياب والحلي مما خف حمله وغلا ثمنه من مدبج ومطرز وموشى ولا شيء غير الحرير والقطن الناعم. وبعد ارتداء ثيابها قصت أظافرها، والعادة في الحمام أن تقدم بعض المشروبات للمستحمات إلا أننا كنا في شهر رمضان والناس صيام. ولو أن نور تطيبت وهو مكروه في رمضان إلا أنها غير مخاطبة بهذا الحكم الشرعي لأنها نفساء ولا شيء عليها.

عقيقة القاف

خرج السرب قاصدا بيت ابن العربي وقد مالت الشمس إلى المغيب وعند الباب اجتمعت شراذم المساكين والفقراء تنتظر إحسان رب الدار المضاعف بالزيادة السعيدة والشهر الكريم. ولم يكن علي شحيحا حريصا بل كان يرسل بيمناه

حتى لم يكن ليسراه أن نمسك شيئا ولا غرو في ذلك فهو من بيت عرف بالكرم والندى والسخاء هو بيت الحاتمي الطائي. دخلت نور وقد كثرت الحركة في البيت بين الأهل والأقارب والأصدقاء والجيران. وكان علي يرحب بكل واحد على حدة. فاليوم الثالث مخصوص بوليمة تعرف بالخُرس أو قصعة الراحة عند العامة، تصنع للنفساء لفتح شهيتها ودر حليبها لمولودها وإن كانت نساء علية القوم لا يرضعن أولادهن من حليبهن ويتركن الأمر لحاضنات يتولين ذلك الأمر. وهذه الوليمة هي إحدى الولائم الثمان التي حض عليها الشرع. جلس صاحب الدار في أوسط مكان فيها وأجلس ضيوفه وأقاربه وكان فيهم أخوه عبد الله وأولاده وبعض أهل نور إلى جانب القاضي والمحتسب وإمام المسجد وبعض قواد الجيش ومدعوون آخرون. وجلست النساء في جانب منعزل عن الرجال وبدأت الموائد توضع وألوان الطعام يقدم. طلب علي زوجته نور لتفقد حالها بعد ذهابها للحمام فأخبرته بحسن حالها وأعلمته بالعلج الرومي الذي بدا على عتبة الباب داخلا وقد ارتدى أرفع ثيابه. أنفذ علي إلى العلج أسود الزناد إمام المسجد ليفقهه في دينه ثم أمر له بعطية. بعد أذان المغرب أفطر الصائمون وتلذذوا بأنواع المآكل التي قدمت لهم من فراخ دجاج محشوة باللوز والزبيب وقنليات مطهية بمرق لذيذ وخرفان مشوية، إلى جانب أنواع الحلويات والمجبنات والفواكه والعصير. وبعد الوليمة حضر المسمعون لتأدية حصة من السماع والأمداح النبوية فأجادوا وملكوا لباب الحاضرين بحسن أدائهم وتخيرهم للطبوع المناسبة للطباع والفصل والوقت.

ومكث الجميع إلى ساعة متأخرة يتمتع بهذه الليلة البهية التي قلت نظائرها في الأزمنة الأخيرة جراء ما تشهده مرسية من حصار. وتوالت الأيام في الفرح والسرور، ثم أقيمت العقيقة يوم السابع وصادف يوم الثلاثاء 25 من رمضان فعق علي عن ولده بكبشين أقرنين مليحين وتصدق بزنة عقيقته ذهبا ألف مرة تيمنا بهذا الشهر الكريم وليلة القدر التي تعدل بل تفضل ألف شهر. وقد سماه محمدا حين إمراره السكين بعدما بسمل من غير رجة وكبر وأشهد على أن هذه عقيقة محمد بن علي بن العربي ونور الخولانية. علت الزغاريد ودقت الطبول وصوتت الدفوف وصرصرت الصنوج.

مر العيد والناس تترقب وتتوقع وصول الموحدين إلى مدينتهم، فلن تنفع الحصون المنيعة في مرسية إذا قطعوا عنهم موارد عيشهم وأتلفوا الحقول والضياع والكروم التي تغذي مدينتهم وتزودهم بكل ما هم في حاجة إليه. وقد بدأ بعض المرسيين وخصوصا الفقهاء والعلماء يقبول إمكانية أن يحكمهم الموحدون لما سمعوا عنهم من حزم وعدل وإن كان موقفهم من فقهاء الفروع لا يبشر بخير بل إنهم أحرقوا العديد منها . ومع ذلك فالعلماء لا يمكن أن يقبلوا بلجوء أميرهم ابن مردنيش الذي ترك لباس المسلمين وتشبه بالنصارى في زيهم وصار مكشوف الرأس، للإستعانة بالنصارى ضد المسلمين. ومهما يكن من أمر قوته بالمقارنة مع غيره من زعماء الثورة على الملثمين الذين سارعوا جميعا إلى الدخول في طاعة الموحدين حين قدموا بلادهم وخصوصا زعماء وسط وغرب الأندلس، فإن هذه القوة تَعَنّ بما ليس في يده

كالحادي وليس له بعير. بل إن النصارى ينتظرون أن تأتي عليه الدائرة حتى يستطعوا من الأندلس شيئا فشيئا كما فعلوا بسرقسطة وطليطلة فصارتا في حوزتهم بعد أن كانت في حوزة المسلمين. إن طول حكم ابن مردنيش لا يعني أن مرسية وشرق الأندلس في مأمن. ثم إن زمان ملوك الطوائف قد ولى قبل حلول الملثمين الذين أعادوا الهيبة في النفوس وأوقفوا مد النصارى. فلن ينكر الأمر بعصر طوائف ثان يكسر شوكة المسلمين ويكون عليهم لا لهم.

هكذا كان الفقهاء والعلماء وحتى الأعيان ينظرون إلى مآل وعاقبة الأمور في مدينتهم. فطول مدة حكم ابن مردنيش لا يمكن أن تحجب عنهم هشاشة وضعهم والمرء بأخيه وقد شبه يوسف بن تاشفين الأندلس لما دخلها بالعقاب. فمخالبه بطليطلة وصدره قلعة رباح، ورأسه جيان ومنقاره غرناطة وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق. فإن كانت مخالب العقاب قد قلمت بذهاب طليطلة، فإن العقاب لا يزال يصطاد ويهجم على فرائسه. فمنقاره خير ويمكنه أن يطير إلى حيث شاء وهيبته مصونة وعند الجميع معلومة. أما إذا كسر الجناح فليس للعقاب من نجاح وقد قالوا "فما ينهض البازي بغير جناح". لا يمكن أن يساند العلماء ابن مردنيش الذي تحالف مع النصارى ولا يمكن أن يكونوا ضالعين في إسلام بلدهم لأعداء دينهم على حساب إخوانهم من بر العدوة ولهذا بدأوا يروجون لهذه الأفكار سرا وأحيانا بالتورية والكناية حتى يفلوا من عزائم من سولت له نفسه مقاتلة إخوانه من المسلمين بسيوف أصحاب

الصليب. لقد مرت عشرون سنة تقريبا على تولي ابن مردنيش حكم شرق الأندلس بعد ابن عياض الذي كان ابن مردنيش نائبا له في بلنسية إضافة إلى أنه كان صهرا له. ولكن الأمر بدأ يشتد وعساكر الموحدين عبرت عبر نحر الزقاق وقد استولوا على قرطبة وإشبيلية وغرناطة ولن يهدأ لهم بال أو يقر لهم قرار إلا بإخضاع ابن مردنيش كما أخضعوا سائر الثوار. ثم إن خليفة الموحدين أبو يعقوب يوسف كان واليا على إشبيلية في عهد أبيه عبد المومن بن علي. فهو يعرف الأندلس ويتوق للعودة إليها برسم الجهاد واقتلاع ضرس ابن مردنيش. وأبو يعقوب رجل أديب عالم أخذ على ابن ملكون في إشبيلية كما أنه يحفظ القرآن وصحيح البخاري.

ألف القاف

بعد انصرام رمضان سمعت أخبار في مرسية عن عبور عساكر الموحدين إلى الأندلس يتقدمهم أخوا الخليفة أبو حفص وأبو سعيد عثمان ووصولهما إلى إشبيلية. جمع ابن مردنيش أولاده وقواده للتحادث بشأن الحملة الموحدية التي أتت بعد يوم حصن لك القريب من قرطبة واستشعار جند ابن مردنيش بثبات الموحدين الذين سألوا المعونة من إخوانهم في المغرب فسارع هؤلاء إلى عبور نحر الزقاق ونزلوا بالعدوة. ارتاع الأمير محمد بن سعد وهو الفارس المغوار الذي أثر عنه حين كان يحارب النصارى وهو قائد الجيش لما نهاه أحد رجاله عن إهلاك نفسه فقال: دعني

فإني لا أموت مرتين، وإذا مت أنا فلا عاش من بعدي. لقد قال وهو يمخر عباب الصفوف :

أكر على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

لا شك أن ابن مردنيش قد أوقف أطماع النصارى في شرق الأندلس إلا أنه تحالف معهم لما علم أنه لا يمكن أن يقاومهم طويلا . وهو مما عجل في إدبار رعيته عنه .

كان ابن العربي حاضرا ضمن القواد لتدارس تقدم الموحدين نحو بلادهم. التفت الحاكم نحو قواده قائلا : لقد بلغتني أخبار غير سارة لأن أبا حفص وأخاه أبا سعيد قد عبرا البحر ودخلا إشبيلية ثم هجما على حصن أندوجر وتملكاه وغنموا الشيء الكثير، والأدهى من ذلك أن جل الحصون لما رأت وقوع حصن أندوجر المنيع سارعت للدخول في التوحيد. وإني أعلم أنهم أزمعوا محاربتنا في عقر دارنا، فما رأيكم ؟

كان شيخ الغزاة أول من نطق : إن مدينتنا محصنة ولن يصلوا إلينا داخلها ولكننا نعتمد على الكور والضواحي في أكلنا وتجارتنا، فإن هم قطعوا عنا سبيل الوصول إليها وأتلفوا المحاصيل ملكونا . والرأي عندي أن نخرج إليهم ونظفر بهم لأننا على علم ببلادنا، أما هم فقوم غرباء. ويجهلون مكامنها وأقطارها وسهلها وحزلها .

التفت ابن مردنيش نحو علي : وما رأيك أنت يا أبا محمد ؟ الرأي عندي أن نكاتب هؤلاء ونستخبر عن نواياهم. وقد رأينا أنهم أبقوا على جميع أمراء الأندلس إلا ما كان من ابن قسي الثائر. فلنصالحهم بشرط أن نبقى في ملكنا .

يا أبا محمد إن ملك هؤلاء المصامدة حديث وفيه شدة وعصبية ولا عهد لهم بالسياسة وألاعيبها والأحلاف التي نعقدها نحن مع النصارى. إن دعوة الموحدين لا تقبل المساومة ووراءهم عقيدة سموها المرشدة، فهم أصحاب رسالة وسيف، وقد ادعوا المهدوية. فإما أن ننزل لهم عن سرير ملكنا أو يعملوا فينا السيف، وكل البلاد التي دخلوها عنوة ألزموها ما أقره الشرع في حقها .

كان علي كثيرا ما يتفادى إبداء رأيه في كل شيء، لأنه يعلم أن أمزجة الحكام متقلبة وحين يتكدر الجو وتعلو سحب الأغيار لا يبقى في عين الحاكم إلا الهنات فتتعاظم؛ أما الفضائل فتحتقر وتتصاغر ، وخصوصا إذا وجد رقاص الترجيح فيعدل بالميزان ضدك ويزري بأمرك ويوغر الأمير بكل سماجة ووقاحة. كان علي يفهم هذا ويحتاط لذلك ولهذا كان يلف آراءه في أرطال من القطن تحرزا من إثارة حفيظة الأمير أو مخالفته أمام الملأ بل كان يتلطف في إبداء رأيه ويجعل السامع كما لو أن كلامه صادر منه أو من بنات أفكاره. ثم إنه رجل عسكري لا يبدي رأيا إلا فيما يتعلق بالأمور العسكرية ولا يرمي بفضوله كيفما اتفق إلى حيث العيون التي ترهف بالسمع حتى لكأنها تسمع دبيب الفكرة في صدر صاحبها . فهو يعلم أن الرجل قد ينطق بالكلمة لا يلقي لها بالا وقد تهوي به إلى خريف عمره. ثم إن الأمير ابن مردنيش رجل شجاع إلا أن الشجاعة تتركب من الكبر والتهور وشدة الغضب وهي نقائص وآفات تعرض للشجعان. والأمير رجل متقلب متهور وزاده البطش والإنفراد بالحكم بطشا على بطش كما أن إحكامه القبضة على

الحكم ضد الموحدين والإستقلال بشرق الأندلس لم يترك له المجال للترخص مع كل مناهض لحكمه والدسائس في السياسة أمر شائع. فهو كثير الريبة والأحوط أن يعمل الإنسان بحكمة "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك". ثم قال ابن مردنيش: سوف نخرج لحربهم ونستعين بحلفائنا من النصارى فنغير عليهم قبل أن يصلوا إلينا بعيدا عن مدينتنا لكي لا نسلمها للخراب فنضطر للمساومة على حياتنا إذا هزمنا. أما إن هزمناهم كبرنا في أعين أمراء الأندلس وملكنا كل هذه البلاد وألزمنا النصارى بمهادنتنا. أما إذا انهزمنا فنحن ومدينتنا سنكون في مأمن. وإذا أزمعوا محاصرتنا فلدينا من العدة والعتاد والذخيرة ما يكفي لأن نصبر معه على الحصار سنة أو أكثر. أما الماء فنهر شقورة العظيم يخترق مدينتنا. ثم إن هؤلاء البرابرة والأعراب قوم قد اعتادوا على الجو الحار فما أن ينقضي الصيف والخريف حتى يكروا راجعين لوبرهم بانقضاء ذخيرتهم وسريان الفشل والملل إلى نفوسهم ولن يترك لهم الثلج والبرد والمطر سببا للمكوث واستدامة الحصار. فأردف علي قائلا حتى يمحو ما بدر منه ويصير إلى رأي ابن مردنيش: نعم الرأي أيها الأمير. ثم إن عسكر الموحدين شراذم متعددة وأجناس مختلفة، ففيهم الموحدون وهم لفيف مفروق ومجموع وأسباب متصلة وأخرى منفصلة. فهناك أهل الجماعة وأهل الخمسين وأهل السبعين والطلبة والحفاظ. ثم إلى جانب هؤلاء هناك أشياخ العرب وأشياخ الجند الأندلسيين والزنوج. وعموما فإن عصبية المصامدة تعتمد على القبيلة في الحرب مما قوى شوكتهم. وأنتم تعلمون، أصلح الله الأمير، أن المنصور بن أبي

عامر هو الذي ألغى عصبية عرب الأندلس من قيسية ومضرية فاختلت شوكة هذه البلاد وتقاطر زحف النصارى علينا يستقطع أطرافا من بلادنا . وإن كان شرق الأندلس قد سلم شيئا ما من هذا الإخلال فلأن أهاليه من أصل مضري يمني كما هو معلوم ومشاهد في مملكتكم إذ جل رجالها من بيوتات العرب الكبرى.
والرأي عندي أن نشجع هذه العصبية بيننا . وكما قلت لكم فمن جند الموحدين هناك بعض اليمنيين من قيس عيلان. فإن نحن خاطبناهم بما تجمعنا وذكرناهم بلحمتنا وقرابتنا وفتحنا لهم بابا للفيء والنفل كانوا لنا سندا وعلى الموحدين نكدا .
ولا بأس إن أقطعنا بعض شيوخهم إمارات الثغر الأعلى حتى يكفونا شر النصارى. فهم قريبون من البداوة ولا هم لهم إلا الغزو والصيد والإغارة والتصعلك مع نظم الشعر. فلنوجه عصبيتهم ضد النصارى ونستريح من شرهم كما أننا نكون قد استرحنا من الموحدين إذا ما انقلبوا عليهم. إن قوة الموحدين تنطوي على ضعف قاتل. حين أنهى علي خطبته، التفت ابن مردنيش إلى كاتبه ووزيره أحمد السلمي : ما لي أراك شاردا يا أبا جعفر ، فهل لك من رأي تشير به علينا بعدما أبدى لنا أبو محمد وجوها كانت خفية عنا وهو القائد ونحن أهل السياسة والرأي والدهاء.
فقال السلمي : يا مولاي إن الجياد على أعراقها تجري. وأبو محمد سليل بيت عرف بالفتوة والكرم بل سارت الأمثال بذكر أسلافه. وإن أبدى هذه الحنكة فالدر

من صدفه. أما نحن فلا نحسن إلا التحبير ونقنع بالقول دون الغارة والنكير. وما أنا إلا قلمكم يجري حيث غمستموه في مداد فكركم فلا مزية لنا إلا بكم.

فقال ابن مردنيش، وقد سره هذا الإطراء: بلى يا أبا جعفر، فأنت صاحب السيف والقلم. وإني لأذكر لك بعض أبيات أطربتنا بها وقت العز حين قلت:

أدر كؤوس المدام والدز فقد ظفرنا بدولة العز

ومكن الكف من قفا حسن فإنه في ليانة الخز

الدز بز القفا وخلعته فاخلع علينا من ذلك البز.

وكنت تقصد بذلك رزنا لفتانا حسن وهو ذو رقبة سمينة وقفا عريض.

أعز الله الأمير، فتلك الأبيات من بنات أفكاركم، والعز سابغ ماؤه عليكم، والأمن والرخاء يفيض على ربوع مملكتكم.

خرج ابن مردنيش بعدما أرسل عيونه يستخبرون عن تحركات جيش الموحدين، واعترضهم بمدينة لورقة في مضيق لا سبيل لعبورهم منه إلا بمقارعته، لكن السيد الأعلى أبا حفص وأخاه وأهل مشورتهم قرروا تجنب ابن مردنيش في ذلك المضيق لأن به هلاكهم وساروا إلى طريق أوسع حيث جعلوا لورقة عن يسارهم فأتوها من الغرب وساروا نحو مرسية. ولما علم ابن مردنيش بذلك مشى إلى مرسية وبينهما الجبل ثم ألح عليهم في الطلب نحمة بلقواد الذي هو فحص مرسية. كان جيش الموحدين متميزا بحسب كل قبيلة من أهل هرغة وتينمل وغيرهما وكذا قبائل العرب الهلالية والعبيد وغيرهم. ثم إنه كاتب العرب وخاطبهم موغرا صدورهم

على المصامدة ومذكرا لهم بقرابتهم كما أطمعهم بإقطاعهم بعض الإمارات. لما بلغت الرسالة حي العرب وكانوا من الغزاة وليس فيهم دهاء. ولا مكر بل الشرف والحمية والمروءة غالبة عليهم، رأوا في ذلك خديعة الغدر وصنيعة المكر فأرسلوا الرسول من حيث أتى. ثم إن عبد المومن وأبناءه ينتسبون إليهم فهم من قيس عيلان ولقد خاطبهم عبد المومن بقصيدة يستنفرهم لغزو جزيرة الأندلس فيقول:

بني العم من عليا هلال بن عامر   وما جمعت من باسل وابن باسل

تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية   عواقبها منصـــــورة بالأوائل

وكان ذلك عام 538 حين عبر عبد المومن إلى الجزيرة ونزل بجبل الفتح أو جبل طارق. ولقد رأى هؤلاء أن الأندلسيين قد أتخموا بترف الحياة وتحكمت فيهم النساء وكثر عندهم التحلل والفساد. أما هم فلا يعرفون من العيش إلا شظفه، شأنهم في ذلك شأن المصامدة، فهم أقرب إليهم من هؤلاء الدهاة.

أغار ابن مردنيش عليهم أولا لما خيبوا مسعاه ثم دفع بجيشه أيضا نحو الموحدين فلم يظفر بهم حتى غربت الشمس وأظهر العرب من ألوان الشجاعة بالقضب المشارف والموحدون بالرماح المداعس صنوفا، حتى ولى جيش ابن مردنيش وقتل منهم الكثير وفر الأمير إلى جبل قريب نصب على رأسه خيمة يوهم أعداءه بثباته ولم تكن إلا خدعة حيث أنه انصرف بعدها إلى مرسية. ويبعد هذا الفحص بعشرة أميال عن مرسية. ولما ولى المرسيون وأتباعهم لحق بهم الموحدون والعرب وخربوا البساتين وقطعوا الإمداد عن مرسية وعيدوا الأضحى هناك وساقوا الأنعام

والدواب والخيرات وأعملوا التخريب والغارات على تلك الأصقاع حتى دانت لهم ولم يبق إلا مرسية بأسوارها المنيعة وكاتبوا خليفتهم أبا يعقوب بما استنصروا به.
وقد كتب الرسالة الكاتب أبو الحسن بن عياش فأبدع في الوصف وأغرق في الكشف حتى أربى من البلاغة إلى المبالغة ومن الإخبار لحصول النص إلى التشفي من الخصوم بالإحبار.

محاصرة القاف

بعد هذه الهزيمة النكراء انحصر ابن مردنيش مع فلوله في مرسية انحصار الثعالب يندب حظه السيء. ولما تيقن أبو حفص وأبو سعيد بعدم جدوى محاصرة ابن مردنيش في هذه المدينة المسورة غربًا بعدما تركا من الأمناء من ثقف البلاد التي افتتحوها. وسار الثاني إلى قرطبة والأول إلى إشبيلية ثم جاز بعدها إلى مراكش حيث احتفل به الخليفة أيما احتفال وخلع على الجميع ألوان بره وعطفه فكان لكل فارس غفارة وعمامة وكساء وقبطية وشقة، وأنعم على الغزاة والقاطنين بما أبهج النفوس.

لما جر ابن مردنيش ذيول هزيمته انزوى في مرسية مغبونا ولم تجرؤ بعدها على مناوشة الموحدين بل إن بعض أعيان مرسية تخلوا عنه وخرجوا يبايعون المتغلبين الجدد.

مرت خمسة أعوام ونار الفتنة محجورة في رمادها محجوزة في كانونها إلى أن حدثت فتنة بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك. وقبل ذلك غزا الموحدون بعض الحصون في الأندلس بين غرناطة ووادي آش ومن جملتها حصن لبسة الذي أقطعه ابن مردنيش أحلافه من النصارى ليغيروا على ظاهر غرناطة فكان هذا الحصن كالشوكة التي اقتلعت من كاحل المدينة. ولما استتب الأمر جددت البيعة لأبي يعقوب وخوطب فيها بالإمام الخليفة أمير المومنين وكوتبت الأمصار فأعلنت بيعتها الرضوانية وطولبت مدن الأندلس بذلك فحررت البيعة من كل صقع. وعلى إثر هذه البيعة أنعم الخليفة على الناس بالعدوتين فضله ورفده كسبا للقلوب مما هيأ الجميع برسم الغزو والجهاد واستكمال الفتوح كحصن طبيرة وتشغيب شرذمة ثائرة عبد الله بن عبيد الله على المسافرين والتجار برا وبحرا. كما تم تحرير بطليوس من ابن الرنك بمساعدة فرناندة البيوج الذي هادن الموحدين مع صهره فرناندة رايس صهر الإمبراطور الفونسو السابع صاحب طليطلة عاصمة قشتالة. كان الجو في مرسية مكفهرا والكل يترقب غدر من يليه بعدما بدا من ابن مردنيش البطش الشديد. فقد قتل أحد العلماء، وهو ابن صاحب الصلاة الغرناطي حيث منع عنه الطعام وكان هذا الشيخ الجليل قد أخذ العلم في إشبيلية ثم فاس وصار من أعلام

العلماء. ولقد كان يحرض خفية ويدعو الناس إلى قبول دعوة الموحدين مما أثار نقمة ابن مردنيش عليه. ولم يكن من بد أمام ابن العربي إلا أن ينزوي عن كل الصراعات التي كانت تنشب في مرسية فكان سلوكه سلوك القائد العسكري المنفذ للأوامر الطائع لحاكمه دون إعراض ولا تلكؤ. ولقد عاين ما حصل لمناوئي الأمير، فكان لا يخرج من بيته إلا إذا استدعاه ابن مردنيش أو ألزمته خطته إلى ذلك. ثم إن صغيره بدأ يكبر ومخايل النباهة والذكاء بدت تظهر عليه، فكان همه أن لا يعجل بختفه حتى لا تتشرد أسرته وبينهم ولده محمد وأخته أم السعد. ثم إن علي كان يحب زوجته ولم يتزوج عليها رغم أنه كان يملك جوار يتسرى بهن لماما. كان انزواء علي في منزله له مبرراته إذ أن أغلب جيرانه من الأعيان قد موتوا أو رحلوا أو نفوا عن مرسية وأقطع ابن مردنيش دورهم وقصورهم أحلافه من النصارى الذين تجبروا ولم يراعوا حرمة لدين المسلمين فصار الخنزير يساق والخمر يهراق والصليب على الرماح يتهادى والمنكرات تتنالى وعلى أهل مرسية تتوالى. وقد أخرج أهل بلنسية أيضا من دورهم وأسكنهم بظاهرها وأقطع الروم وأتباعهم ممتلكات البلنسيين فنقم عليه الناس ولكنه احتمى بأصحابه وأحلافه الذين كانوا يشكلون جل جنده. كان علي يمقت هذا الذي يجري ولكنه رجل كيس يحسب للأمور عواقبها وأدبارها وإن كانت غيرته قد خدشت بحماقات ابن مردنيش فلماذا يرتكب هو حماقة الخروج عليه وليس في الخروج نجاة بل هو تهور واندفاع. وكثيرا ما كان علي يسر بأفكاره لزوجته

وأخيه الذي كان عطارا يبيع الأدوية. بل إن فكرة مغادرة مرسية قد راودته إلا أن عيون ابن مردنيش كانت مبثوثة على كل باب. فاهتم بتربية ولده وتدريبه على الفروسية والرماية والمسايفة منذ نعومة أظافره يزرع فيه حب النجدة والفتوة وتحيي فيه عروق أسلافه الجارية لهذه الخصال والنابضة بسيول الكرم والفعال. وبين الفينة والأخرى كان يصطحب ابنه على حداثة سنه إلى شرق مرسية للصيد والتنفيس عما كان تجيش ويعتمل في صدره ويضيق به كما ضاقت مرسية عليه بعد أن كانت جنته الغناء. كانت الأخبار السيئة تتوالى وكلها تصب في قنينة صدره الذي علا حزنه حتى بلغ عنق تلك الزجاجة فانكفى على قلبه يسقيها ويورثها الحسرة. بل إنه كان يتعجل نهاية ابن مردنيش وتملك الموحدين لناصية الأمور. ووظيفته كقائد لن تغير أمرا فهو منفذ وأداة في يد حاكم تملكه البطش واستولى عليه الكبر والظلم والجور فلم يعد يسمع لأحد بل استبد بكل شيء. ولم يعد ينادم إلا أعلاج الروم ويعاقرهم على الكأس ويتزيى بزيهم حتى لكأنه واحد منهم. وحتى مصاهرته لابن همشك فسدت فقد طلق ابن مردنيش ابنته. وكانت نور تزورها من حين لآخر قبل هذا وتوطدت بينهما روابط حميمية وإن كان علي لا يرغب في ذلك لأنه يعلم أن مصاهرة ابن مردنيش مع ابن همشك ما هي إلا مصاهرة مصالح لا مصاهرة مودة. وقبل أن يطلق ابن مردنيش زوجته كان قد هجرها في الفراش واتخذ جملة من الجواري يراقد جملة منهن تحت لحاف واحد وانهمك في حب القيان والزَمْر والرقص والبطالة والسكر. وسلب من زوجته ولدها وكانت تخبر نور

بما حصل لها ولا تفهم كثيرا لماذا وقع منه هذا التغير المفاجئ. أما نور فكانت تخبر علياً بما حدث بين ابنة ابن همشك وابن مردنيش فكان ينصح زوجته ويناصحها في أن تكف عن رؤيتها لأن سحب القطيعة بدت في أفق سماءها ولن تلبث أن تهمي بالبرد والصواعق والرعود والبروق. كان علي يعلم أن ابن همشك بدأ يتقرب من الموحدين وأنه كاتبهم كما أخبره بذلك ابن مردنيش. والمودة الجديدة بين ابن همشك والمهدوية تعود إلى ما بعد الوقيعة العظمى التي جرت بفحص الجلاب بالقرب من مرسية عام 562. نقلت نور إلى زوج ابن مردنيش بعضا من هذه الأخبار لتفسر لها سبب هذا التغير الذي حدث من زوجها اتجاهها، فكانت ابنة ابن همشك تدافع عن أبيها ولا ترى لزوجها فضلا عليه بل إنه هو الذي استخلفه وأوصله إلى هذه المراتب. ثم إن أخت ابن مردنيش تقربت هي الأخرى من زوجة أخيها فتوطدت العلاقة بينهما. ولم تكن أخت ابن مردنيش راضية عن تصرفات أخيها في إخراج المرسيين من أملاكهم وإسكان الروم والجلالقة مكانهم. فهذا التحالف الغريب معهم وتلبسه بعاداتهم مما غاضها وأنبت في صدرها شوكة التخلص منه وكانت تريد الأمر لها ولأولادها فأخذت تحبك خيوط تحالفات مع ابنة ابن همشك حتى تضمن مساندة الأب إذا ما تم لها الأمر وقتل أخوها. وكم من مرة دس له السم إلا أنه كان لا يطعم أي طعام حتى يطعمه حيوان أو عبد من العبيد حتى هلك عدد لا بأس به منهم فكان يقتل الطباخ وكل من ضلع من قريب أو بعيد في ذلك. ولكم تسامع الناس بخال ابن مردنيش الذي لا يطعم حتى تطعم الكلاب

قبله. ثم إنه اتخذ طباخا من الفرنجة على قذارتهم وقلة ذوقهم واختصار أنواع أكلاتهم. فتمثل المرسيون لهذا دليلا على ذلة الحاكم وضعته فهو لا يأكل حتى تأكل الكلاب من الحيوان وأجلاف الفرنجة. لما وصلت إلى علي أخبار أحاييل أخت ابن مردنيش وانضمامها مع أولادها إلى حلف الساخطين منع نور من الإجتماع بهما لما يعلمه من بطش الحاكم. فكل شك كان يقطعه بالقتل. وفي آخر زيارة لنور إلى ابنة ابن همشك سألها عن ولدها، فقالت: إنه جرو كلب وجرو سوء من كلب سوء، لا حاجة لي به. ولم تمض شهور حتى طلقها وأرسلها إلى أبيها ذليلة مكسورة الجناح. لم يطق إبراهيم ابن همشك هذا الذل وهذا التطاول من ابن مردنيش الذي كان صنيعته إلى أن صار يهتك عرضه ويدوسه في التراب منكلا ببنته ومعرضا به. فعزم على قتاله ولهذا كاتب أخ الخليفة أبا حفص في ذلك فرضي به وبتوبته ودخوله تحت حكم الموحدين واتصلت بلاده بما كان في أيديهم فعم الأمن مجموع ما في حوزتهم. وقد كاتب أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن ابن مردنيش في نفس الفترة ليدخل في الطاعة وأن يفيء إلى حكم الله إلا أنه طغى واستكبر وتغنى ببطانته وشيعته من النصارى. ولما تحققت أخته مما وقع لزوجته علمت أن دورها آت لأن عيون أخيها ترقب كل واحد والإستبداد يقطع رأس كل متطاول. فثبتت لديه خيانتها لأنها كاتبت زوجته السابقة وهي بحضرة أبيها وضبط الكتاب وفيه معلومات عن حالة المدينة وكيفية دخولها عبر مدخل سري وكلها معلومات وجهتها إلى إبراهيم ليستغلها في الهجوم على أخيها والإطاحة به

وإقطاع أحد أبنائها إمارة مرسية. لكن عيون ابن مردنيش وقع في أيديهم ذلك المكتوب فاستخلصوه لحاكمهم الذي أحضر أخته في الحال وأولادها وقتلهم. لم يبق أمام علي وكل البطانة إلا أن تمالئ صاحب الأمر وأن تسايره في آرائه حتى تعود الغلبة للموحدين أو يقضي الله أمرا كان مفعولا. وكانت آخر سنوات حكم ابن مردنيش ويلات عانت فيها المدينة من عدة مشاكل وخصوصا من تحرشات واستفزازات الجلالقة والقشتاليين والقطلانيين حيث رخص لهم ابن مردنيش في فتح حانات لشرب الخمور والإستبضاع من المومسات والغانيات. وبدأت تسمع نواقيس تزاحم صوت المؤذنين فغم المسلمون. أما ابن مردنيش فكان لا يلبس إلا لباسهم ويمتطي جواده على طريقتهم وسلاحه سلاحهم بل كان يعتبرهم أحلافه وأصدقاءه وإخوانه وبلغ به الطيش ووضاعة الجرثومة أن ترك العربية وأخذ يرطن بعجمتهم. ثم إنك لا تكاد تمر في زقاق إلا واستفزتك رطانتهم وقهقهاتهم ووقع أحذيتهم ولا فرق عندهم بين ليل أو نهار وصيف وشتاء. فالعربدة زمان متصل. بل إنهم كانوا يرتاضون الحمامات التي يرتاضها المسلمون حتى فسدت وتأذى الناس منها وكيف لا والمسلم أحرص على طهارته منه على سد رمقه. فقد لا تجد المرء ما يأكل ولكنك تجد في خوزته صابونا يغتسل به. فكثرت برايات الأوساخ التي كان ينزعها الكسالون من بشرة العلوج وكان حجمها سميكا يبعث على التقزز كما أن شعورهم كانت متسخة جدا فكان الصابون لا يعلق بها إلا بعد لأي بل يلزم وقت طويل لكي تظهر الرغوة عليها من فرط لزوجتها والدهونة المرتفعة عليها.

ولم يكن رجال دينهم يرتاضون الحمامات لأنهم كانوا يعتبرون الطهارة لمة شيطانية والحمام وكرا للفساد. فلم تكن ترى إلا جندهم وأوباشهم ورعاعهم يتلبسون بعادات المسلمين في الطهارة. كل هذا لم يمنع المرسيين من ولوج حماماتهم والتي كان يرتادها كثيرا الفقهاء لأنهم أحرص الناس على الطهارة. ولشد ما كانت دهشة البعض منهم حين أخذ بعض مخنثي الروم في التجول عراة بدون تبان داخل الحمام وإظهار العورة والنكاية بالفقهاء الذين علت أصواتهم بالحوقلة والسبحلة، وإن كان بعض المترسمين يعطف النظرة الأولى على الثانية ويزني بعينه ويتناسى أن الأولى له والثانية عليه. فالأمر أكثر من أن يعرض كلية. خصوصا إذا كان العلج فتى من فتيان الصقالبة في خدمة أحد العلوج.

ومرة رأى أحد الفقهاء جاره الذي كان بجانبه تحدق في أحد الفتيان الصقالبة، فلَهجَ بردته وفسقه وأفاض عليه جدلا من ماء ثم قام عنه وهو يهرول وتحوقل ويتعجب من فقهاء آخر الزمان. فما في الصدر متسع إذا جاهر صاحب الدار بالفحش أو إذا أسلم الراعي نعاجه للذئاب.

أما العلماء والصوفية فلم يكونوا يرتادون هذه المواطن خصوصا لما عظمت فتنة الروم. وإن كان البعض منهم يرتاد بعض الحمامات المتواضعة ولكنها نظيفة قلبا وقالبا. ثم إن ورودهم عليها يكون بالخصوص مساء يوم الخميس وصبيحة يوم الجمعة. فلا تكاد ترى إلا عالما أو صوفيا أو زاهدا. وصاحب الحمام كان من فتيان الصوفية وكان يشرف بنفسه على الداخلين للحمام فلا يسمح بالدخول لكل

من رابه أمره. فإن كانت الحسبة قد انقطعت لما فشا أمر ابن مردنيش وزاغ عن الطريق الأمر، فقد قامت البقية الصالحة في هذه المدينة بتنظيم نفسها فلا تسمح لغيرها بالإختلاط بها. لقد عظم على الناس هذا التقي والجور الذي عم في هذا العهد ولم يكونوا راضين عما تجري في بلدهم. فلأهل مرسية من الصرامة والإباء ما هو معروف ومشهور. ولم تعد تراهم في النزهة على ضفاف نهر شقورة الذي خاط سلك تلك البساتين ذات الأهداب والنواعير الطافحة بالماء الزلال. فإن كانوا معروفين بأنهم أكثر الناس راحة وفرجة لكون ظاهر مرسية جنة غناء، لحسن المنظر وجمال المخبر؛ فإنهم الآن أقرب إلى الخمول والإنزواء لما ابتلوا به من فتنة لم ينج منها صغير ولا كبير. فقد تسامع الناس عن خبر كاتبي ابن مردنيش ووزيريه أبي يعقوب يوسف بن الجذع وأخيه أبو محمد عبد الله وما وقع لهما حيث قتلهما وبنى حائطا عليهما. وقد كانت بين الأخوين جفوة ولكنهما لما أحسا بالخطر الداهم من ابن مردنيش تكاتبا فقال أبو يعقوب:

يا أخي ما الذي يفيد الإخاء   وطريق الوداد منا خلاء
ولقد كنت لي كما أنا عضدا   فأحالت صفاءك القرناء
فسلام عليك مني يأســــا   لي إباء كما لديك إباء

فأجابه أبو محمد:

يا أخي لا يضيع لديك الإخاء   وتثبت فليس عنك عنــاء
وكما كنت لست أبرم عضدا   لم تحلني عن الهوى القرناء

فعليك السـلام مني ودا لي انقياد كمـا لديك إباء

ولما رأيا تغير ابن مردنيش كاتبا صهره ابن همشك للإطاحة به إلا أن رجال ابن مردنيش أمسكوا برقاص البريد وحين تحقق ضلوعهم في التآمر عليه قتلهما شر قتلة وكانا من الأدباء والظرفاء.

مرت الأيام كالسنين على سكان مرسية فقد أظلم عليهم الجو وقتل منهم الكثير ورحل الآخرون وأقطعت أرضهم لأعدائهم وتسامع الناس بتحالف ابن همشك مع الموحدين ودخوله في طاعتهم ومذهبهم وكثرت هجمات النصارى من طليطلة فكانوا يغيرون على الكور والقرى ووصلوا حتى الجزيرة الخضراء. وقتلوا المسلمين واكتسحوا سائمتهم واحتبس المطر عن الناس في بداية الموسم للإحتراث عام 565 كما وقع الزلزال في هذا العام وعم جميع الأندلس وسقطت على إثره كثير من الدور وعدد من صوامع المساجد. وتتالت الهزائم والنكبات، فهاهم الموحدون ينهزمون أمام النصارى في بطليوس في شهر شعبان. وكل هذه النكبات زادت ابن مردنيش حنقا وخيلاء. وبطشا فهاجم مع أحلافه صهره السابق ابن همشك الذي كاتب الخليفة مستغيثا به. وكان الخليفة قد وعد بغزو الأندلس إلا أن مرضا ألم به أقعده عن الجهاد. ولكن لما وصلت استغاثة ابن همشك أرسل الخليفة أخاه أبا حفص الذي خرج من مراكش في ذي القعدة من نفس العام فوصل إلى إشبيلية في بداية عام 566 ولحق به ابن همشك مع أصحابه وتشاوروا في الأمر وعزموا على أن يسير أبو سعيد إلى بطليوس فوصلها وفتحها ورجع إلى إشبيلية. ثم

توجهوا جميعا بعد ذلك إلى قرطبة ومنها نهدوا إلى بلاد ابن مردنيش. فأول مدينة فتحوها هي قيجاطة ثم تتالى فتح سائر البلاد حتى وصلوا مرسية ففتحوا حصن الفرج الذي كان منتزه ابن مردنيش. وكان ابن همشك يدل الموحدين على عورات عدوه فأحكموا عليه الحصار فظهر التصدع والخوار على أجناده النصارى ثم توجه الموحدون إلى مدينة لورقة ففتحوها وعادوا إلى محاصرة مرسية فانقلب على ابن مردنيش إخوته وأصهاره وبعض قواده وتحولوا عنه فلزمته العلة حينما تفرق إخوته وأحلافه عنه.

مصحف القاف

وعادت الصحة والعافية للخليفة فكاتب عرب إفريقية تحضهم على الجهاد بقصيدة نظمها الوزير والطبيب أبو بكر بن طفيل يقول في أولها :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

فلبوا دعوته وخرج يطلب الجهاد في هذه الجموع وقد قدم أمامه مصحف عثمان ومصحف المهدي بن تومرت في منظر بهي سني. والمصحف العثماني كان قد استقدم من جامع قرطبة الأعظم إلى مراكش في عهد الخليفة عبد المومن بن علي. وقد أرسله الأندلسيون لما علموا رغبة الخليفة في امتلاكه وقد كانت بعض أوراقه مبددة في مدن الأندلس. وهذا المصحف هو مصحف عثمان الذي كان بالمدينة والذي كان يقرأ فيه لما قتل. وقد أدخل إلى الأندلس في عهد الدولة الأموية بهذا

الصقع. ثم لما انقرضت هذه الدولة قام ملوك الطوائف فتملك بعضهم بعض أوراقه تبركا بهذا المصحف. كما آلت بعض الأوراق إلى النصارى ثم استعيدت. ولما رأى عبد المومن أن المصحف ليس في مأمن ببلاد الأندلس رغب في امتلاكه فأرسلت كل تلك الأوراق إلى مراكش تحملها السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد ابني عبد المومن. فأمر الخليفة أرباب الحيل وصناع كل فن وحرفة أن يستخلص لهذا المصحف أرفع وأثمن ما في فنه لإبرازه. فصنع لذلك تابوت عجيب غريب له كرسي وعلى الكرسي محمل وضع عليه المصحف الذي كسي بأصونة من ذهب وفضة وجعل في أحفظة من الجلد النفيس ووشي بحرير أخضر لا مثيل له كما نظمت على كل ذلك أحجار من الجوهر والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر الغريب والزمرد. وانتظمت في حفاظه أيضا جوهرة بديعة على شكل حافر الفرس. وهذه الجوهرة كانت تسمى بالحافر لشذوذها وغرابتها. وقد كانت في ملك أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر ودمشق وأفريقية والزاب. ثم آلت بعد ذلك إلى صاحب صقلية فلما فتحها الموحدون غنموا تلك الجوهرة فوضعت في جملة ما وضع لتزيين المصحف. وقد أجهد المهندسون وعلماء الحيل أنفسهم في إيجاد نظام لاستقبال المصحف الإمام. فلما أعيوا أسعفهم الخليفة إلى فكرة تحفظ للمصحف حرمته فلا يبدو متبذلا ولا متجملا لكل أحد بنفس الصفة، إذ للناس في الإبصار معارج عليها يرتقون ومقامات إليها يصلون ولا يتجاوزون. فقر الأمر على التابوت والمحمل والكرسي. وكل واحد منها يضم الذي يليه وتحتوي عليه. وبمجرد إدارة مفتاح التابوت تنعطف

دفناه إلى الداخل ويبرز الكرسي يعقبه المحمل. فلا تلمس كل يد هذا الكنز المجيد. وعند إدارة المفتاح في الإتجاه المعاكس ينفتح الباب ثم ينسحب الكرسي ثم المحمل داخل التابوت وينسد الباب من تلقائه ويعود النور إلى مشكاته. ولم يسبق لملك من الملوك أن احتفى بهذا المصحف كما فعل الموحدون بل إنهم أمروا ببناء جامع مراكش فتم البناء في عام واحد لاستقبال المصحف الإمام. وكانوا لا يخرجون إلا والمصحف أمامهم كما هو الشأن في هذه المرة تيمنا بكتاب الله واستدعاء للنصر.

وقد نظم ابن طفيل قصيدة حين وصول المصحف إلى مراكش يقول فيها :

بمصحف عثمان الشهيد وجمعه — تبين أن الحق بالحق يعضد

تحامته أيدي الروم بعد انتسافه — وقد كاد لولا سعده يتبدد

رأى أثر المسفوح على صفحاته — فقام لأخذ الثأر منه مؤيد

وحين رأى الناس هذه الأعمال الجليلة اهتبلوا بهذا المنظر الغريب وتيقنوا من دين الخليفة وحتى أهل الأندلس الذين كان في نفوسهم شيء من خروج المصحف الإمام من أيديهم، لما رأوا ما صنع الموحدون به والإكرام الذي حاطوه به حيث أن ما أنفقوه عليه وما وشوه به وطرزوه به لا يقدر بثمن ولا يستقصى. وقد حمل المصحف الإمام على جمل عظيم عليه قبة حمراء تصونه ووراءه مصحف المهدي بن تومرت محمول على ناقة. وقد وضعت على التابوت أيضا رايات ملونة بالخلدي المعروف بالأحمر والأصفر والأبيض. وسلكت في رماح صغيرة في أعلى واحد منها تفاحة من ذهب. وكان المجموع مصنوعا من أرفع الأخشاب وأجودها وأصلبها

وبالخصوص شجر الابنوس. كانت العادة أن تقصف الطبول وراء الجيش ولم تكن تتقدم أمام الموكب إلا الراية البيضاء. ولكن تعظيما للحرمات واهتبالا بالشعائر فقد قدم المصحفان مع الطبول والرايات وجاء موكب الخليفة بعد ذلك متخلفا عن كتاب الله وتيمنا بالنصر العزيز والفتح المبين. ووصل إلى إشبيلية ثم قرطبة وضحى بها ثم رجع إلى إشبيلية وبنى بها قنطرة للربط بين ضفتي الوادي الكبير.

كان بيت ابن العربي يتوق إلى الخلاص من ابن مردنيش وأعلاجه كسائر المرسيين. فقد استطاع علي أن يبعد الخطر عن بيته وأن تجنب أسرته أمزجة حاكم مرسية المشاكسة. ولما علم بوصول الموحدين وانتصاراتهم المتلاحقة وشاهد اندحار ابن مردنيش، التحق بالقادة الآخرين الذين خلعوا يد الطاعة مع إخوة ابن مردنيش. وكان موقفه ذاك قناعة ولم يدر بخلده أدنى شك من خيانة. بل كان كثيرا ما فكر في الهرب بأسرته إلا أن الرقباء والعيون كانت ترصد أنفاس الناس. فأخلد إلى قدره واستسلم منتظرا بزوغ فجر جديد. كان ابنه الصغير محمد قد صلب عوده وكثيرا ما كان يقارع أقرانه بالسيف بل حتى أبناء الأعلاج كانوا يهابون سطوة مقبضه. وهذه الشجاعة التي كان يبين عنها الإبن كانت تملأ الأب فخرا وتنسيه الضائقة التي تمر منها مدينتهم. وكان أشد أولاد الأعلاج منافسة له الولد حزقيال الذي كان يهزم كل أولاد الروم لكنه كان دائما يهزم من قبل محمد الصغير. وكان هذا الأمر يغيظه كثيرا. وكان حزقيال يسكن قريبا من دار ابن العربي. وقد أخبر صديقه وغريمه محمد بن العربي أنه سوف يغادر قريبا مرسية إلى جنوب

فرنسة لتعلم فنون الحرب. وسيعود ليهزمه ويثأر مما سبق. فكان هذا الكلام يضحك محمدا ، ويقول لغريمه: سوف نرى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار. ولم يكن الولد يجيد المبارزة فقط بل كان على شطر كبير من الذكاء. فقد حفظ القرآن وبدأ حفظ بعض المتون وفقه أقرانه في ذلك. وكانت تعرض له في بعض الأحيان حالات يتوق فيها إلى الإختلاء والهرب من الناس.

اشتد البلاء على ابن مردنيش وضاق عليه الخناق وخذله أعز الناس إليه وأقربهم فاختل عقله وأوقع بالكثيرين. ثم خرج من مرسية إلى جزيرة شوقر ليأخذ ابن هلال القائم لدعوة الموحدين هناك فطلب من أخيه أبي الحجاج أن يعينه في أخذها فعجزا عن دخولها . وعلى إثر ذلك أناب أبو الحجاج إلى الموحدين فزادت زمانة وعلة ابن مردنيش وأصيب بالذهول فتوفي في العاشر من رجب عام 567 وعمره ثمانية وأربعون سنة. وعلى إثر وفاته بادر قواده وأصحابه بالطاعة للموحدين وفيهم ابنه هلال وصاروا إلى إشبيلية إذعانا للأمر وإقرارا لأمير المومنين بعدما دخل أخو الخليفة أبو حفص مرسية وأمن الناس فيما يملكون. ثم ساروا جميعا إلى إشبيلية وكان في الوفد علي بن العربي. لما وصلوا إلى إشبيلية صادفوا حلول شهر رمضان فدخلوا على الخليفة وأذعنوا بالطاعة وبايعوه. فصادف بروز هلال رمضان وصول هلال بن محمد بن مردنيش. فاكتمل الفرح بطلوع الهلالين. ثم أنزل هلال في قصر محمد بن عباد أمير إشبيلية وكان في غاية الحسن والبهاء. كما أنزل أصحابه في الدور المتصلة بهذا القصر ولاقوا من أنواع الترحيب وأصناف الترغيب ما

أفهمهم أنهم صاروا رجال الدولة الجديدة. وفي يوم الغد تقدم هؤلاء القادة بالبيعة واحدا واحدا. فلما كان دور علي بن العربي تقدم فبايع ولاطفه الخليفة.

خرج علي يبغي مرسية ووصلها بعد أيام وكانت زوجته نور وأطفاله والأقارب في هلع وجزع شديدين. فقد مرت أيام على خروجهما من مرسية ولم تأت أخبار تبشر بنجاتهما. فلما شارف على البيت بدا على العتبة خادمه مسرور برفقة ولده محمد. وما هي إلا لحظات حتى لمح الولد أباه فانطلق يعدو نحوه وارتمى على حصانه فنزل الأب عن صهوة الجواد وأخذ ولده في أحضانه ودموع الفرح تسيل على خده وتخترق لحيته. أما مسرور فأسرع إلى داخل البيت تخبر سيدته بمقدم سيده. علا الصراخ داخل بيت ابن العربي وخرجت نور تستقبل أب أطفالها ودموعها تفصح عن مخبرها...

إقلاع القافلة

اكتملت الاستعدادات لمغادرة مرسية، فقد باع علي ما تبقى له من الأملاك بها كما باع داره والأثاث الذي بها ولم تحمل معه إلا ما خف وزنه وغلا ثمنه وحملت النساء جواهرها في صناديق صغيرة معشقة بالعاج والفضة كما حملت بعضا من ثيابها الحريرية الرفيعة. ركبت نور على جمل عال نصب على ظهره هودج وركبت باقي النساء. وقاد الخدم هذه الدواب كما سار مع الركب بعض الجنود. وتقدم الجمع

علي الذي كان يمتطي صهوة جواده وإلى جانبه ولده محمد الذي كان يركب فرسا أقمر وعن يمينه الخادم مسرور. وكانت لحظة الوداع مؤثرة حيث خرجت البقية الباقية من أصلاء المرسيين من أقرباء وأصدقاء أسرة علي. وكان الحي الذي تقطن فيه يضم كثيرا من الأعيان والأسر اليمنية الأصل فكانوا يشكلون عصبية في المدينة جعلت ابن مردنيش يهابها رغم أنه بنى دولته عليها ولهذا لم يتعرض لهؤلاء بسوء كما فعل بغيرهم. خرج الجميع لتوديع علي وأسرته وتواعد البعض منهم على اللحاق بهم في أقرب الفرص. اتجهوا نحو الجنوب في رحلتهم واستمرت الرحلة بعض الوقت وكانوا ينزلون في بعض الحصون التي افتتحها الموحدون وكان الأمن يعم البلاد فلم يتعرض لهم أحد بسوء. ومروا في طريقهم إلى إشبيلية من مدينة غرناطة والوالد تحدث ولده عن بلاد الأندلس ويوضح له معالمها وتحكي له عن بدء الفتوح بها وعن أسرهم التي هاجرت في بداية الفتوحات من جنوب الجزيرة العربية إلى هذه البلاد النائية. وكان الإبن ينصت في تمعن لوالده ويسأله مرة تلو الأخرى عن بعض المسائل التي ترد على ذهنه. ورأى من جمال العمارة في كثير من مدن الأندلس التي مروا بها ما أنساه ذكريات طفولته بمرسية وجنانها. وأعجب خصوصا بقرطبة ومسجدها العظيم الذي شيده عبد الرحمن الداخل فصلوا فيه وحدثه الوالد عن المصحف العثماني الذي كان بحوزة القرطبيين في هذا المسجد العظيم وعاينا سويا موضعه بالخزانة وحكى له علي عن العز والصولة والتعظيم الذي حظي به هذا المصحف عند الموحدين وكيف أنه يتقدم موكب الخليفة عندهم وعن أمر تابوته الغريب

العجيب فكان فم الصبي ينحلب بريقه وعيناه تشعان لاكتناه هذه الأمور التي يسمعها من والده. وأخيرا وصلوا إشبيلية وكانت تأتيهم الأخبار عن فشل أمير المومنين في فتح مدينة وبذة إلى الشرق من طليطلة رغم العدد الكبير للجيش الموحدي كما أن من أسباب فشلهم هبوب العواصف والمطر والوحل الذي عاقهم عن ذلك...

وصل ركب أسرة ابن العربي إلى إشبيلية وحلوا بإحدى الدور الفخمة التي اقتطعها الموحدون قرب قصر ابن عباد. وما أن وصلوا واستقروا في هذه المدينة العظيمة التي تختلف كثيرا عن مرسية بكبرها وكثرة أحيائها ولاحظوا أن الأشغال جارية في المدينة لبناء مسجدها الأعظم حتى عزم علي على اللحاق بركب الخليفة قصد الجهاد فكر عائدا باتجاه مرسية التي وصلها مع دخول أمير المومنين إليها. ورأى بعينه احتفال المرسيين بمقدم أبي يعقوب وكيف تلقوه قائلين: "الحمد لله الذي جمع بيننا وبينكم على أحسن حال وأنعم حال، ورفع عنا الظلم والكفر". وكانت النساء تصيح معربة عن فرحها وانشراحها وهو ما أدهش الموحدين الذين كانت تعاليم المهدي بن تومرت مؤسس الدولة تمنعهم من إظهار النساء وسماع أصواتهن. وقد نزل أبو يعقوب بقصر مرسية الذي أعده لهم هلال بن محمد بن مردنيش كما أعد لرجال الموحدين كثيرا من الدور واشتغل ببرهم وإنجاز أوطارهم كما أهداهم كثيرا من الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب مما كان مخزونا أبيه معدا لنيل الوطر.

لما قدم علي إلى مرسية التحق بأخيه الذي كان لا يزال مستقرا بالمدينة وكان يفهم كثيرا في صناعة الطب. وكانت حرفته هي بيع الأدوية والمستحضرات من الأعشاب وقد علم ابن أخيه بعض مبادئ هذه المهنة فكان يعرف أسماء الأعشاب ولماذا تصلح. أما أبو يعقوب فقد جمع رجال ابن مردنيش وعلى رأسهم ولده هلال وعمه أبو الحجاج يوسف وأنعم عليهم وافر النعم وأشار عليهم بأنهم سيكونون من جملة الموحدين ثم أمرهم بالتأهب لمغادرة مرسية باتجاه حضرته. أما أبا الحجاج فأقره على بلنسية وأنظارها وأبقى على ما بأيدي سائر القادة من الثغور والحصون. ثم تحرك الموكب الموحدي باتجاه إشبيلية مارا بغرناطة حيث ترك أخاه السيد الأسنى أبا سعيد واليا عليها. ولما وصل إلى إشبيلية ومعه جموع الموحدين وفيهم أولاد محمد بن مردنيش بعيالاتهم فأنزلهم بقصر ابن عباد والدور المتصلة به. واستقر علي بإشبيلية مع غيره من الجند والقادة الأندلسيين كما أن بعضهم راحوا برسم الجهاد مع غانم بن محمد بن مردنيش والذي أسندت إليه بعد ذلك قيادة الأسطول المرابط بسبتة...

طاب المقام لأسرة ابن العربي بإشبيلية، هذه المدينة الأندلسية العامرة بأسواقها وحماماتها ومساجدها وقصورها ومنتزهاتها وكثرة أجناسها. ثم إن التحول من مرسية إلى إشبيلية كان عاديا لأن جل من كانوا بمرسية قد حلوا بهذه المدينة. فاجتمعوا في صعيد واحد ولازموا عاداتهم داخل المجتمع الإشبيلي..

أوحال القاف

كانت إشبيلية مدينة عظيمة معروفة بالأدب واللهو والطرب وهي على ضفة النهر الكبير الذي يضاهي دجلة والفرات وتسير فيه القوارب للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار مسافة طويلة. كما أن بإشبيلية جبلها السامق الشامخ المعروف بالشرف. جمعت إذن بين العلو والدنو أو فلنقل إنها جمعت بين الإنسفال والإرتفاع. هذا التباعد في البعدين هو الذي ربما طبع هذه المدينة منذ أنشأها يوليوس قيصر. ومع ذلك فإن الطابع البحري يغلب عليها فإنها لا تبعد إلا ببعض المراحل عن البحر المحيط. لقد أغفلها الأمويون حين جعلوا قرطبة عاصمة ملكهم ولكنها ارتعشت من دور الضرة في عهدهم إلى دور الخاتون المحكمة في عهد ملوك الطوائف زمان العباسيين وكذا على عهد المرابطين؛ وها هي كالملكة مع الموحدين حيث نراها تسحب ضرتها خلفا بنشاطها وحيويتها. فالقوارب تعبر النهر الكبير آتية من وإلى البحر المحيط. إن جبل إشبيلية المسمى بالشرف ينزع بها إلى السموق حاضا لها على الإرتفاع وصادا لها عن الإنقاع سفلا. ولعمري إن أهل إشبيلية هم بين علي ودني ومرتفع ومنخفض فأنت تجد فيها العلماء الأفذاذ وتجد فيها أيضا السفهاء الأنداد. بل إن أحياءها موزعة هذا التوزيع. فهناك أحياء الفضلاء الشرفاء والفقهاء والصوفية وهناك أحياء الأسفال والأوضاع والمسدسات.

ولأجل هذا الوصف الشنيع والنعت القبيح الذميم كنت لا تعدم في مدن الأندلس أو كار الفساد تحمل اسم درب ابن زيدون كما هو الشأن في قرطبة. وكان محمد بن علي بن العربي الذي صلب عوده والتوى عذاره كنمل زاحف على صفحة خده يطوف بهذه المدينة العظيمة مع شلة من رفقائه أبناء الأعيان ويمضون وقتهم في التجول والترف واللهو وكثيرا ما عرجوا على مثل هذا الدرب البئيس فضولا منهم في استنطاق أمره وإعراب إعجامه خصوصا لما تسامعوا بأمر الهيدورة ودرب ابن زيدون بقرطبة وأخباره التي سارت بها الركبان وصارت مضرب المثل حيث يقولون في التعريض: هو من درب ابن زيدون كناية عن تخنثه. كان محمد ورفاقه يريدون إشباع فضولهم في الإستخبار عن هؤلاء القطما. وكيدهم ولهمهم للتطم والضراب وشدة الإغتلام. وبينما هم يسيرون مرة في هذا الدرب إذ بدا لهم رجل مشبوه، خبيث الطوية سقيم الهوية. فتقدم نحو هذه الشرذمة من الفتيان وهذا السرب من اليمام لعله يجد ما يعتلج به سوء المنقلب وبزري العاقبة والمكتلب. فخاطبهم وصوته خليع وضيع يكاد يسطو ويرنو قبل أن يدنو. تتسابق أنفاسه وتتطارد أهواءه فقال: أهلا بالجرثومة الكريمة والفئة الشريفة الرفيعة. عبد رق لكم بين أيديكم، هل من حاجة فنقضيها لكم؟

نعم، هناك حاجة نود أن تقضيها لنا، فاستدبرنا إلى وكرك وسنعلمك بها حين أوانها. هكذا حدجه أحد الفتيان وهو يرغب أن يجعله أمثولة للعيان.

مهلا يا بني، فما هكذا تأكل الكتف، بل تمشون وأمشي أحجز أخلاقكم عن أنظار القطما. بدرع شخصي.

فأجابه الفتى: يالك من غائل خائن، أتريد أن تحجب الأنظار عنا أم تريد أن تتنفل عيناك سبي ما تعلم حرمنه.

استفاق القطم من بداهة الجواب وأردف قائلا: لنظرة خادم أمين يرسلها على أمانته خير من سهام تصيب المقاتل من أعين القطامى في هذا الدرب.

كفاك حيلة أيها الذليل الوضيع! ألا تعلم أن أبي هو قائد الحرس.

وهل قلت شيئا تخدش ذمة ابن قائد الحرس يا ولدي! بل ما أردت إلا أن أديم عين الحرص على بضاعة ثمينة.

لقد لمزت وهمزت وأشرت وأفصحت، فلسنا من غرار الصبيان ولا من سخفاء الفتيان. فلتعلم أننا للرماية ننسب وعلى المبارزة نحسب، وكلنا كر وفر وعلى أعراقنا نجدة وإباية وهمة ودراية. فإن أنت أطعت واستدبرت من أمرك ما استقبلت لأبقينا على شخصك بدون نكاية. وإن كانت الأخرى فلذ بالفرار قبل أن نعمل فيك السيف والخزي والعار يا أقبح من ظل زائل، وسراب سائل.

فقال القطم وقد غادرت الإبتسامة فغره: لقد جمعت يافتى بين النجادة والنباهة، والإقدام والإعدام، والبيان والحجة البالغة. فما على الخادم مثلي إلا أن ينيب وإلى باب الرحمة يثيب حتى لا تزري به قواصم القواضب ونكبات الدهر المتعاقب.

فها أنذا أقدمكم على خلاف مذهبنا، فاعملوا في الجميل وأريحوا منكم كل عليل فرب جيل أدوى من جليل.

انبهر الفتى قائلا: أخبرني عن سيرة شيخكم المتخالع بقرطبة المنعوت نعت الكبش المسلوخ، أقصد الهيدورة الممسوخ.

ومن أين لفتى هذبته الأرومة وأدبته المعارف بمعرفة شيخ القطما. في قرطبة؟ معرفة الأشيا. خير من جهلها يا أقبح من حتى وسوف ولولا.

صدقت يا فتى! فالإستزادة من العلم فرض عين ولو كان موضوع ذاك العلم مما يعتريه التعزير ويستولي عليه التحريم والتحقير. فالهيدورة علم أعلام هذا الفن ورأس ديوانه، فلا يعقد مجلس إلا وطيفه ناشر بألوينه عليه وجانح بأعطافه عليه، وقد كانت له نوادر سارت بها الركبان. ثم سرد لهم بعض ما حصل واتفق من أخباره ثم توقف عن القول وقال لهم: ويكفي هذا القدر من الكلام، فما يليق بالأغرار مثلكم أن يسمع هذا الخنا المشان.

صدقت أيها القطم المتجاسر، فنحن أجياد على أعراقها تجري، وما عهدنا مثل هذا السفه والكيد. ولقد أتينا هنا فضولا وغزاة فاستدبر حتى تقع عليك اللطيمة...

ثم أعملوا فيه الضرب بالعصي ورموه بالأحجار. فكر هاربا لا يهرول على شيء، يعثر في أذياله...

هكذا هي إشبيلية تجمع بين اللهو والجد والظرف والأدب، فجبلها ينزع بها إلى المعالي ونهرها يصب بها إلى المهاوي، والكل بين كر وفر، فتارة تكون الغلبة

لأحدهما وأخرى تنمر النجدة للثاني. شرف إشبيلية دائمر الخضرة ملتف الأشجار بالزيتون طوله فرسخ في فرسخ. وتحيط بإشبيلية قرى ومدن كثيرة وحصون منيعة ومنتزهات عديدة كطريانة.

لقد أعجب محمدا هذا الوسط الجديد الذي انتقل إليه مع أصدقائه من أبناء الأعيان والقادة. فهاهم مرة في أحد المنتزهات وأخرى في مجلس للسماع وثالثة يتعاطون فنون الفروسية والمسابقة والرماية إلى جانب الدروس التي كانوا يتلقونها في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والتوحيد والقراءات والتفسير والنحو والعربية والأدب وغير ذلك مما يجعل من الإنسان إنسانا ومن المرء مرءا. وكثيرا ما كانت الدروس تعطى في مسجد العدبس وهو من أكبر مساجد إشبيلية. ولقد أنشئ هذا المسجد في عهد عبد الرحمن بن الحكم الذي عهد إلى قاضي إشبيلية عمر بن عدبس بالإشراف على بنائه سنة 224. والإشبيليون يعظمون هذا المسجد الذي اعتل بناؤه وضاق بمن فيه وظهرت الشقوق على حيطانه والخروم في سقفه خصوصا في جهة الغرب من جراء الزلزال الأخير في بلاد الأندلس...

قاف المحو والإثبات

كنت أقرأ القرآن على شيخ جليل اسمه أبو عبد الله الخياط الإشبيلي وكان يسكن بجوارنا. كان هذا الشيخ المهيب رجلا تقيا ورعا وكنت أحضر دروسه في مسجد

العدبس وأحيانا في منزله. وكان له أخ اسمه أحمد دخل الطريق بعده بزمن طويل. وقد صاحبنهما مدة طويلة في إشبيلية. كان أبو عبد الله بارا بأمه كأويس القرني لزم خدمتها حتى ماتت. والغالب عليه الخوف وكان في صلاته تسمع لقلبه دويا من بعد. دمعته هطالة، لزم الصمت والحزن والفكرة والخشوع، لا يستحيي في الحق من أحد. كان إذا دخل مسجد العدبس للإقراء أو الصلاة هابه الخلق. كنت أحفظ عليه ثمنا من القرآن في اليوم فأكملت الحفظ في مدة قصيرة ثم ختمت عدة ختمات بعد ذلك. كان يجلس إلى أحد أعمدة المسجد بعد صلاة الصبح وحوله جماعة من الفتيان بأيديهم ألواحهم وتسمع لقراءاتهم طنينا كطنين النحل وفي يد كل واحد منهم قطعة من عاج أو خشب أو حجر أملس تعرف بالكراك يضغطها على اللوح ليثبت ما حفظه من القرآن وهو دائم الحركة يمينا ويسارا أو أماما وخلفا وهو الغالب. فكانت حركة اليد على الكراك تمحو الآيات المكتوبة من اللوح وتكتبها بالمقابل في صدر الحافظ. فما الكراك إلا قلم آخر يكتب في صدر الإنسان فتنتقش الآيات بين محو المرقوم وإثبات الملفوظ. إن هذه العملية أشبه بكتاب الوجود الكبير عن المحو والإثبات فلا محو حتى يكون الإثبات؛ ولا إثبات إلا بعدما يتم المحو. والصبية هنا كأقلام القدر تمحو قضاء اللوح أي تنجزه. وكان يأخذ الواحد منا تلو الآخر ليستظهر أمامه ما تم حفظه. وكان من بين أصحابي أبو عبد الله بن زين اليابري، وكان يقرأ القرآن والنحو بجامع العدبس، وأيضا عبد الله الخياط وقد اجتمعت به في هذا الجامع وهو ابن عشر سنين أو إحدى عشرة سنة. وكان ذا

طمرين لونه ممتقع، كثير الفكرة شديد الوجد والوله. وبعد أن فتح لي في الطريق ولم يكن يعلم بي أحد وددت منازلته في هذا الميدان فنظرت إليه ونظر إلي وأشرت وأشار فابتسمنا فعرف مقصودي وفقهت مرغوبه. فما رأيت نفسي إلا كدرهم زائف بين يديه ثم قال لي منشيخا : الجد الجد، فطوبى لمن عرف ما خلق له. ثم صلى العصر معي وأخذ نعله وسلم وانصرف. فتقفيت أثره أرغب معرفة منزله فما وجدت له أثرا. وسألت عنه فلم أجد أحدا يسعفني بجواب فكان ذلك آخر عهد لي به. وكان لعبد الله الخياط قرين له اسمه أبو العباس أحمد بن همام وكان شديد الجد كثير العبادة ممن فتح عليه في هذا الطريق وهو دون الحلم. وكان أبوه يمنعه من ذلك ويرده إلى الدنيا ولما أعيته الحيلة معه طرده من بيته فساح برسم الجهاد وهو فتى وكانت تلك رغبته. ثم لما طرده أبوه كان ينزل عند صديقه عبد الله الخياط بداره.

وكان إلى جنب هؤلاء الفتيان الأبرار آخرون من أبناء الأعيان وكنت منهم. وفي بداية أمري لم يكن لي هم إلا اللهو وحضور مجالس الموسيقى والرقص بل كنا نرقص حتى ساعة متأخرة من الليل. وأحيانا كنا نجتاز الجسر الذي صنعه الخليفة أبو يعقوب لأهل إشبيلية ونعبر النهر باتجاه طريانة أي إلى الشرق من إشبيلية. وكنت نجد على ضفاف النهر الذي رصف جوانبه الموحدون أهل المجون والمرح وأصحاب الليل. ورغم رقابة المحتسب وأعوانه فلم تجد في منع ذلك شيء. فقد منع ابن عبدون المحتسب عبور النساء المشبوهات النهر وإن كن مع محارمهم لما يعلم من هتك

للحرمات في ذلك. وقد كان أهل إشبيلية أكثر العالم طنزا وتهكما، نساء ورجالا وأحداثا. ومرة وقعت لصاحبنا أبي علي حسن الشكاز واقعة مع بعض نساء إشبيلية. والرجل معروف بصلاحه، كثير الدمعة حتى إنه ليصلي على الحصير الجديد لأول مرة فإذا جاء الصباح رأيت الحصير قد تعفن وتناثر في الموضع الذي تقع عليه الدموع. وكان صاحبي هذا مولعا بالنكاح، على عكسي أنا تماما في بداية أمري، حيث كنت أفر من النساء وأزهد فيهن حتى رأيت ما حولني عن ذلك. خرج يوما إلى دور بني صالح بظاهر إشبيلية ومعه جلود ليغسلها وينقعها في النهر ويبسطها على الضفة في الشمس. فمرت به امرأتان وكانت نساء إشبيلية على جانب من الحلاوة والظرف والرقة والدعابة، فقالت إحداهن لصاحبتها: تعالي بنا نمازح هذا الرجل فإنه شكاز. والشكاز عند الأندلسيين هو المشتغل بالجلود الرقيقة يلينها ويبيضها ويزيل شدتها حتى تصير ناعمة لينة. فاتخذ الإشبيليون هذه اللفظة 'شكاز' لقبا للرجل اللين الذي لا يقوم بالنساء، مثل الجلد الذي يلينه كما هو الشأن بالهيدورة أي جلد الشاة المنعم. ومن هنا كان هذا اللقب يطلق على كل مخنث. فوقفت المرأتان عليه وهو يذكر الله وكان لا يفتر عن الذكر، فقالت: السلام عليك يا أخي، فرد عليها السلام وعاد إلى ذكره، فقالت له ما صنعتك وما حرفتك؟ فقال لها: خل عنك هذا، وفطن إلى مرادها. فقالت له متمادية في مزاحها: لا بد من هذا. فتبسم وقال لها: أنا رجل أبل اليابس، وألين الشديد، وأنتف المشعر. فولتا وهما تضحكان، وقالت لصاحبتها: أردنا أن نرميه فرمانا لما فهمنا لمزه

وغمزه وكنايته عن الوقاع والضراب بما تخفر ذمة الرجال بله النساء. فرب كلمة سفه ذادت عن الحرمات.

كنا نعبر هذا الجسر الذي هو حسنة من حسنات الموحدين بدون مقابل ونخرج من باب قرمونة في الشمال الشرقي للمدينة أو من باب القطائع في الجنوب الغربي. وكان على هذين البابين زلالق عملت في هذا العهد من جهة الوادي احتياطا من السيل كما ترينا سور إشبيلية من جهة الوادي بعدما هدمه السيل. كنا نخرج من أحد البابين ونعبر النهر الكبير باتجاه طريانة أو إحدى المنتزهات الأخرى ونتندر بلطائف الأشعار وملح النكت والأخبار على الزوارق التي كانت من جهة باب القطائع. فكنت لا تعدم رفقة من الفنيان مع صبايا من القيان ينقرن بالأوتار أجمل الألحان ويردفن بالرقص جميل الحركات الفنان. ومرة جرنا الحديث إلى ذكر أبي جعفر بن سعيد أشعر بني سعيد بل أهل بلده قاطبة وكان قد عشق حفصة شاعرة الأندلس، لما أرسل أحدنا جارية برسالة إلى صاحبته بقصد اللقاء على ضفة الوادي عشية أحد الأيام المأثورة. فلمزه صاحبه الذي يليه بقصيدة ماجنة من قول ابن سعيد.

فلما أنهى القصيدة وأنفاسنا متعلقة به مع وقع كل بيت بل مع كل كلمة فاه بها، لما أنهى ضحكنا ضحكا لا أظن أني ضحكت قبله ولا بعده مثله حتى لقد استلقى بعضنا على ظهره وكاد أن يهلك بانحباس النفس. وبينما نحن في هذا النجيع والشحيج إذ رمى سهم الآخر ببيت من جنس تلك القصيدة.

فكاد أن يفني ما بقي منا من منازع النفس والحياة. وتمايل القارب حتى خشينا الغرق ولم نكن نحسن السباحة ونحن متلفعون في أطمار فوق ثيابنا خشية الرقباء وتخفيا من أعين البزاة الوشاة.

ولما أعيانا الضحك، عاد صاحب القطعة يحكي لنا عن الشاعر ابن سعيد حين وصل صحبة والده إلى إشبيلية وافتتن بنهرها، فاعتكف على الخلاعة زمنا فيها مصعدا ومنحدرا بين بساتينه ومنازهه فقال: مر أبو جعفر ليلة بطريانة فانقلب إلى منزه فيه طرب سمعه، فاستوقفه لذلك ومال إلى رفقته من هنالك وهو في الزورق منهمك متخالع وأصحابه بين يديه منحطون. فأخرج أحد الأنذال الأسفال رأسه من طاقة في المنزه وقد أخذ منه السكر كل مأخذ فضرط له ذلك السفيه ضراطا كأنه صياح مردة الشياطين في الجحيم. فاغتاظ أبو جعفر لذلك ولم يعهد مثله في بلده فصاح: يا سفلة، أتقدم علي بهذا قبل معرفتي، فما كان من السفيه إلا أن زاد على الفرض نفلا وثنى بضراطه ولم يكتف بذلك بل خاطبه بكلام يستحي من سماعه كل فاضل. ولما سمع ابن سعيد هذا السفه والفحش غلبه الضحك على الحرج وعلم أن إشبيلية سيدة المدائن في الخلاعة والمجون. فما لهذا عهد في قرطبة وذكرها على الألسنة باد، فلما عرف لزم حده، والإدعاء حيث اليقين محض افتراء وعناد وافتيات. فلما استوفى حكايته وخزه الذي كاله بالبيت السائر الأنف الذكر وأفحش في خطابه واعترف بنزول قدره على مصابه ورزه. أما أنا فرغم بشاعة الموقف وفحاشة القول والمنطق لم أستطع كتم ضحكي وإن كنت أحوقل متبرئا مما نكحت

به الألسنة وزنت به الأسماع والأخمصة. ثم التفت إلى المخبر الفهيم العالم بأخبار القطماء والخلاع ومن شاكلهم: هلا رفعت قدر هذا المجلس بذكر أخبار أبي جعفر مع شاعرة الأندلس، فإنا وإن كنا نندر بأخباره مع الأسفال الأنذال إلا أن الحديث له ذيل وذيله غير محمود في عين الموضع الذي كان فيه فلا نحمد أن يطل علينا من هذه الشراجيب من عينة ذلك النذل فيكيل لنا مثل ما كال لأبي جعفر ونحن متلبسون بالزمان والمكان. فارتفع يرحمك الله بذكر حفصة وأخبارها مع أبي جعفر.

صدقت يا ابن العربي، فإن للحديث شجونا وذيولا قد تزج بصاحبها إلى مهالك تربو عن القول إلى الفعل خصوصا وجحفل الظلام قد طما بجيشه وولى ضوء النهار هاربا.

نعم هي حفصة بنت الحاج الركونية الشاعرة الأديبة المشهورة بالجمال والحسب والمال. وقد تولع بها السيد أبو سعيد بن عبد المومن الموحدي ملك غرناطة وتغير بسببها على أبي جعفر بن سعيد حتى قتله. وسأحكي لكم واقعة لهما. فقد طلبها أبو جعفر للإجتماع فمطلته قدر شهرين فأعياه ذلك فكتب لها يرغب في لقاها شعرا فأجابته بشعر مماثل على لسان العتب والهجاء. ومخبرة على حال الود واللقاء:

يا مدعي في هوى الحسـ ـن والغرام الإمامة

أتى قريضك، لكن لم أرض منه نظامه

إلى أن قالت :

بالله في كـل وقـت يبدي السحاب انسجامه

والزهر في كل حيـن يشق عنه كمامـه

لو كنت تعرف عذري كففت غرب الملامـة

ووجهت هذه الأبيات مع رسول أبياته بعدما أشبعته سبا ولعنا وأمعنت في نكايته وخزيه. فلما أطل على أبي جعفر ومغافر العبوس منسدلة على وجهه، قال له : ما وراءك يا عصام ؟ قال : ما يكون وراء من وجهته خلف إلى فاعلة تاركة، اقرأ الأبيات تعلم، فلما قرأها قال للرسول : ما أسخف عقلك وأجهلك، إنها وعدتني للقبة التي في جنتي المعروفة بالكمامة، سر بنا . فما كان إلا قليلا حتى وصلت وجلسا يتندران على أحسن حالة حتى نغصت عليهم رقعة الكندي الشاعر خلوتهما وفيها :

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجد خلوت بـمن تهواه رغما لحاسد

فهل لك في خل قنـوع مهذب كتوم عليم باختفاء المراصـد

فقرأها على حفصة، فقالت : لعنه الله، قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب، تقصد المتطفل على ذلك، ولم نسمع لمن يعلم باجتماع الخلين والحبيبين فيروم الدخول عليهما ، فقال لها : بالله سميه لنكتب له بذلك، فقالت : أسميه الحائل، لأنه يحول بيني وبينك، فكتب له في ظهر رقعته شعرا من ارتجاله :

سماك من أهواه حائل إن كنت بعد العتب واصل

مع أن لونك مزعـــج   لو كنت تحبس بالسلاســل

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة، ولم يمنعه ذلك من سماع الأبيات فقال للرسول: بلغهما خالي، فلما أعلمهما بذلك كاد أن يغشى عليهما من الضحك. وكتبا إليه في ذلك شعراً كله طنز وسباب.

فلما أنهى قصته، حدجته بنظرة وأنا أكتم ضحكي فقلت له: يا هذا سألناك أن ترتفع فانسفلت ولو سألناك الإنسفال لكان أولى حيث كنت ارتفعت. فما لي أراك مكفوءا على عقبك معقوبا على قبلك. نسألك الإرتفاع عن السفاسف وأنت تهوي بنا إلى أسفل مما في السفاسف، فلنهنأ بفيح نجاستك لما عزفت بالمراء عن البراء. فأنت ممن يتعهد تلك المطامير التي تعمل في الحدائق والبساتين تتلصص منها نها على غذاء الأخلاء والأحبة. فإن لم يكن لك مطمع في اللقا. فاختر لنفسك كوخا قرب تلك المطامير فهاذا شأنك.

كنت أقول هذا الكلام وأنا كذوب اللهجة تخونني الهمزة بعد اللمزة والضحكة بعد السخرة. فعلم المفصول مخبري فأردف قائلا متمثلا بأبيات الحفصة:

زائر قد أتى بجيد الغـــزال	مطلع تحت جنحه للهـــلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت	ورضاب يفوق بنت الدوالي
يفضح الورد ما حوى منه خد	وكذا الثغر فاضح للآلـــي
ما ترى في دخوله بعد إذن	أو تراه لعارض في انفصال

تلكم هي حفصة تأتي بلا استئذان وهي تعلم أن حسنها وأدبها شافع لها في ذلك.

فما أنهى كلامه حتى بدت صاحبته التي أرسل في طلبها مع السائسة. فأكملت بهجة صاحبنا وتفاءل خيرا من ورود صاحبته وهو يوقع آذاننا بكلام حنصة وتفضلها بزيارة عشيقها أبي جعفر بلا استئذان. ثم تشابكت أنامل الريم مع الأوتار فأبرزت من شهي الألحان وشجي الأنغام ما أنهضنا إلى التمايل والرقص حتى بدت طلائع الأنوار تلوح هازمة جحافل الظلام المولية فرجعنا أدراجنا لإشبيلية ودققنا على البواب ففتح لنا الباب وكان يعرفنا لأننا كنا ننقده ببعض الدراهم تغاضيا منه عنا وقيا ما منه بفتح الباب رغم أوامر المحتسب في ذلك. ونروح للتو إلى دار الوضوء المحاذية لمسجد العدبس أو مسجد اليتيم أو مسجد ابن جراد حسب الأيام والفصول وقرب المسكن، أو مسجد الرضى المعروف عند أهل إشبيلية بالكنيسة المرجومة والذي التزمت فيه بعد ذلك طريقة محاسبة النفس كما تعلمتها من أشياخي ابن المجاهد وابن قسوم وأبو عمران المارتلي .فنتوضأ بأقل ما يمكن أن يطلق عليه الوضوء بدون إسباغ ونحن نتثاءب من فرط التعب والرقص الذي كنا فيه. وكثيرا ما كنا نفضل أن نصلي صلاة الصبح في منازلنا وحينها كنت أقرأ بأصغر سورة أي الكوثر مع الفاتحة ولا هم لي إلا أن أذهب إلى فراشي. وأحيانا كنت أقصد المسجد رأسا فإذا وصلت كنت أجدهم في بعض الأحيان قد أنهوا الصلاة فلا أحس بالندم أو الحزن بل على العكس إذا أدركت الصلاة مع الإمام فإما أن أنشغل عنها بالتفكير بالليلة الصاخبة الرائعة التي قضيتها مع رفقاء السوء الذين كنت معهم وأبدأ في استعادة الليلة قسما قسما وأنا أتلذذ بتلك المشاهد من سماع لأبيات يغنيها

أحد الموسيقيين. ولم أكن أعرف ماذا قرأ الإمام ولا بأي سورة بدأ أو ختم بل كنت أقلد المصلين في صلاتهم وأنا غائب عنهم. وإما أن يداهمني النعاس فكنت أنتظر فراغ الإمام من الصلاة وكنت أتعجل ذلك، بل إنني كنت أضجر من قراءة طوال السور وكنت ألعن هذا الإمام الذي يقرأ بسورة الحشر أو الواقعة أو غيرها من السور بدل أن يقرأ بسورة الإنفطار أو الفجر. ألم يأمر النبي بتقصير الصلوات ؟ وكان هذا الإمام يتلذذ بالتطويل وإرخاء العنان لملكته في القراءة فيمد مدات طويلة ويشبع من غير إشباع في كثير من المواضع. وكل ذلك كان يؤذيني وأنا متعجل بالذهاب إلى النوم. ثم حين ينهي الإمام الصلاة أقوم مهرولا لآخذ نعلي بدون تسبيح ولا ذكر ولا صلاة على النبي وحتى الصالحات الباقيات لم أكن أؤديها. وحين أصل إلى بيتي أتسلل إلى غرفتي وأستلقي على الفراش فلا أقوم إلا في وقت الضحى وقد انتصبت الشمس عالية في السماء وقرب أوان الظهر.

لم تكن أيامي ولياليّ كلها على هذا النحو. بل كانت هناك أيام أخرى مملوءة بالعلم الضروري لكل إنسان وولد قائد من أعيان البلد حتى يلج سلك الإمارة ودواليب الدولة حين يكبر. وكان أبي حريصا على ذلك كل الحرص رغم أنه كان لا يمنعني من اللهو مع أصدقائي من أبناء الأعيان والوجهاء..

كنت أدرس القرآن على أبي بكر بن خلف بالقراءات السبع وكتاب الكافي لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي المتوفى قبل قرن من هذا الزمان. وقرأت أيضا السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشراط القرطبي.

وفي سنة 571 حل الوباء ببلاد المغرب والأندلس ومات الكثيرون حتى فني من الناس الكثير ممن نعرف وممن لا نعرف. ومات من البيت المؤمني الكثير من السادة والأشراف. وأول من مات منهم السيد أبو عمران بن الخليفة عبد المومن ثم أخوه أبو سعيد وأخوهما أبو عبد الله ثم أخوهم أبو زكريا، الذي كان صاحب بجاية. كما مات من أشياخ الموحدين. ولقد أخبرني بذلك أبي الذي كان على علم بما تجري في البلاد بحكم وظيفته. كما مرض الخليفة أبو يعقوب وأخوه أبو حفص مرضا طويلا حتى خيف عليهما. وكان عدد الموتى في كل يوم حوالي 200. ودام هذا الطاعون بقية سنة 571 ونصف سنة 572. ووصل هذا الوباء إلى الأندلس عبر هذه السفن والقطع البحرية التي كانت تأتي من بلاد بعيدة محملة بالسلع. والغريب في الأمر أن الجرذان والفئران تصاب هي أيضا بالطاعون، فلا أستبعد أن تكون سببا في انتشار هذا الوباء. وكم هي كثيرة الجرذان والفئران في عنابر السفن، كما أنني لاحظت أنه يكثر مع الرطوبة. ومن أعراضه أن البطن يعظم ويورم وربما شديدا مع رقة في الجلد ويكون له بريق وتبدو العروق بلون أخضر سئيم. والسبب هو تغير الطبيعة بأكل شيء موبوء أو بتنفس هواء خبيث أو حتى بلسعات البراغيث التي تنقل المرض من شخص إلى آخر ومن دابة لأخرى وإن كنت لست على يقين من ذلك. ولكن كثرة البراغيث والجرذان مع ظهور الطاعون تشي

بوجود علاقة بينهما . أما في الأندلس فكان الوباء أقل انتشارا وحدة منه في مراكش. ولقد أصبت أنا أيضا به وأصابتني حمى قوية. والملاحظ أن الشخص المصاب بالطاعون لا يعيش أكثر من عشرة أيام ويبدأ في السعال الحاد المصحوب بنفثات من الدم. ولما علم عمي عبد الله بن العربي بإصابتي حضر لي بعضا من الأدوية لأنه كان يملك دكانا لبيع الأدوية والمستحضرات والأعشاب، ويفهم في صناعة الطب كثيرا. ومن وصفاته تلك أن أخذ حديدا ثم حماه حتى صار أحمر ثم أطفأه في الماء مرارا وأعطاني إياه لكي أشربه كما سقاني لبن الإبل. ولكني لم ألحظ تحسنا كثيرا بل كانت العلة تسري في ذاتي وتدب بسير حثيث حتى كان يغمى علي. وفي اليوم الثالث للحمى دخلت في شبه غيبوبة حتى ظن أهلي أني هلكت ورأيت وأنا في غيبوبتي أن أناسا يريدون حتفي وإذايتي، مناظرهم كريهة. ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عني حتى قهرهم. فقلت له من أنت ؟ قال : أنا سورة يس أدفع عنك. فأفقت من غشيتي تلك وإذا بأبي عند رأسي يبكي وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدته. ثم تحسنت حالي بعد ذلك شيئا فشيئا حتى عاودني النقه. وهذا المرض الخبيث يأتي على الأخضر واليابس بل إنه قد يفني بلدة أو مصرا بكامله. ولا شك أن أصله من بلاد السند والهند، فغالبا ما يأتي من هناك. وقد أخبرني أحد أصدقائي اليهود حين جاء لزيارتي في فترة النقاهة لما دار الحديث عن الوباء أنه مذكور في التوراة وكتب اليونان والروم كما أخبره بذلك أبوه إبراهيم بن عزرا الذي كان حبرا مبرزا من

أحبار يهود. وتذكر كتب الحديث أن رجلا قال للنبي: يا رسول الله قد صدر في زمان عيسى وباء عظيم، فسأله صلى الله عليه وسلم عن كيفيته. فقال الرجل: مات بالنهار الأول ثلث نصف القوم، فسجد رسول الله وقال: "إلهي وسيدي ومولاي هل تكون هذه الوقعة بين أمتي؟ فنزل جبريل من ساعته وعلمه دعاء ليعلمه لأمته. كما أن أحد أشياخي ذكر لي أن من ذكر الآية التي في سورة يس والتي هي قلب السورة كما أن يس قلب القرآن وهي "سلام قولا من رب رحيم" مائتين وثمانين مرة أيام الطاعون سلم منه. ولا شك في أن علاجي كان ببركة هذه السورة وتلك الآية، فالحمد لله. وأخبرني صديقي اليهودي أن النص الذي يتحدث عن الطاعون في التوراة يوجد في الفصل الثاني من الكتاب الأول لصمويل وبأن هذا الطاعون قد وقع ألف عام قبل ميلاد السيد المسيح وأصاب الفلسطينيين بعد انتصارهم على العبرانيين وأخذهم لتابوت العهد الذي توضع فيه التوراة. فعوقبوا بظهور الوباء. ولما أرجعوا التابوت زال عنهم كما أن التوراة تتحدث عن ظهور الفئران وقد رأينا الكثير منها في هذه الأيام. ولا أشك أن هناك ارتباطا بين تفشي الوباء وظهور هذه القوارض والفواسق بل ربما كانت مسؤولة عن نشره، وقد أمر النبي بقتلها. كما أن التوراة تتحدث عن إصابة الناس بالبواسير كما هو مشاهد ومنتشر بين الناس اليوم.

حينما أخبرني صديقي اليهودي بما تتحدث عنه التوراة فهمت مقصوده من وراء ذلك لأنه كان يرمي إلى الإلماع إلى أن ما تحدث الآن من مصائب الطاعون التي عمت

بلاد المسلمين تفسر بما يتعرض له اليهود من اضطهادات على أيدي الموحدين حتى ظهرت شرذمة منهم يدعون بالإسلاميين تظهر الإسلام وتبطن اليهودية. وأن الموحدين لم يتركوهم على دينهم بل خيروهم بين النزوع إلى الدين الحنيف أو القتل. فقلت له: مهلا يا إسحق، فالطاعون أصاب اليهود كما أصاب المسلمين، ولسنا الآن في عهد الشرك حين اضطهد اليهود كما تخبر التوراة. فأجابني متعللا: لم أكن أقصد ماذهبت إليه، وإن كان عبارتي تفيده. ثم طيبت خاطره دون أن أتغافل عن وضع قسط من التهديد في ذلك: لا عليك، فقد تحدث للناس قضايا بقدر ما أحدثوا من الفجور. ولكن الموحدين طهروا هذه البلاد ووحدوها. وإني أنصحك أن لا تعود إلى ذكر ما ذكرت، فقد يسمعك أحد الطلبة المتعصبين للمهدوية فتعزر. فشكرني وانصرف وعلم أنه أفشى ما يدور داخل أوساط اليهود والأحبار عن فتنة الطاعون وانتشاره. وكان حي اليهود مما يلي باب جهور في غرب المدينة. وخارج هذا الباب بنيت قصور الموحدين المعروفة بالبحيرة والتي كانت ضياعا وجنات وبساتين فاختطت قصورهم فيها.

وهؤلاء اليهود الإسلاميين معروفون في بلاد المغرب بثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قرب أقدامهم ولا يسمح لهم بالإعتمام بل يضعون على رؤوسهم كلوتات كأنها البراديع تبلغ إلى حد آذانهم. وهذه الثياب ذميمة شنيعة. والذي حمل أبا يوسف على إلزامهم هذه الثياب هو شكه في إسلامهم رغم أنهم كانوا يصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن. ولقد أخبرني والدي علي أنه سمع أبا يوسف

يقول: "لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم. ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين، ولكني متردد في أمرهم".

ولهذا لم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر الموحدين. وقد استشفع اليهود بكبار رجال الدولة من علماء وكتاب ووزراء وقواد وغير ذلك بشأن تلك الثياب الذميمة الشنيعة فلم تنفع شفاعتهم لدى الخليفة لأن الجميع كان يعلم أن اليهود وإن كانوا يظهرون الإسلام فهم باقون على ملتهم. والحق الذي أراه أننا غير مطالبين باجتلاء السرائر بل إن علمها موكول إلى الله وإنما أمرنا أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر. ومع ذلك ففيهم أناس متقون مؤمنون.

بعد هذا المرض وكرامة البرء منه ببركة سورة يس بدأت تنتابني في بعض الأوقات فترات أخلد فيها إلى الإختلاء بنفسي والتفكير في الملكوت. وكثيرا ما كنت أختلي في الروضات أو المقابر التي كانت متصلة بمسجد اليتيم فكنت أجلس بين القبور وتحدث لي مرائي عجيبة لم أكن أبوح بها مخافة أن يظن بي السفه أو الجنون. فكنت أتحدث مع الأرواح هناك. وقد كنت في بادىء الأمر أرتاع لذلك وأعزوه إلى وساوس الشيطان إلى أن تأكد الأمر واستمر فكنت أتلذذ بذلك غاية التلذذ. ولم تكن تلك الأحوال تدوم لي بل تفارقني ثم تعاودني ولم يمنعني ظهورها من ترك اللهو والإجتماع بأصدقائي من مسلمين ويهود.

كان أبي منهمكا في أمر السياسة والجهاد مع أمراء الموحدين فخرج مرة مع أخ الخليفة والي إشبيلية أبو علي الحسن في أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل إلى جهة طلبيرة وفتحوا حصنا على ضفة وادي الناجه فسبوا من وجدوا فيها من النساء والصبيان وقتلوا الرجال. وكان السيد أبو علي قد حلف أن يجوز الوادي نكاية بالنصارى. وقد تواعد أبي مع رجاله أن يحملوا قاربا من إشبيلية على ظهور الدواب وأن يلحقوا بالجيش وأن يكونوا بحيث إذا ما طلبهم أسرعوا إليهم من دون أن يعلم السيد ولا حاشيته ولا الجند بهذا الأمر. فلما وقع لهم الفتح أراد السيد أن يبر بقسمه وكان الوادي في حالة مد قصوى والتيار قوي فأعيته الحيلة وبدأ يفكر في التكفير عن قسمه حتى رأى القارب الذي أحضره والدي مع رجاله ليركبه أبو علي الحسن. وكم كانت فرحته عظيمة بهذه المفاجأة السارة حيث تم لهم الفتح والغنيمة والبرور بالقسم. وبعد ذلك كانت أيام أخرى للمسلمين على النصارى قادوا فيها من الأعلاج عددا كبيرا واستاقوا الغنائم والسبايا وصف هؤلاء الأعلاج بين يدي السيد الوالي فأمر بضرب أعناقهم. وقد وقعت الشكاية أيضا ببعض الوزراء والعمال الخدماء منهم ابن جامع وبنوه الذين غربوا وهجروا عن إشبيلية. وكذلك الأمر بالنسبة لمشرف إشبيلية فقد سجن وأخذ ما بيده. أما والدي فقد كان يلاقي من الموحدين أصناف العطايا والهبات وكان يسدي النصيحة للوالي فكان يقربه كثيرا ويخصه بالحظوة والتكريم.

وفي عام 574 توفي أبو علي الحسن بن الخليفة عبد المومن الوالي على إشبيلية وكان رجلا فاضلا مجاهدا فكانت مصيبة كبيرة جرأت النصارى على الحصون والثغور بقيادة زعيمهم ابن الرنك. وكما لو أن المصيبة لا تأتي إلا مشفوعة، فقد عم البلاد في هذه السنة السيل. لقد كان الوادي الكبير في إشبيلية مفخرة الإشبيليين ومورد أرزاقهم إضافة إلا أن ضفافه كانت تأوي أصحاب الخلاعة والمجون والمجالس الشعرية الأدبية. وكما لو أن الله أراد أن يطهر رجس هذه الضفاف لما كثر الخبث فكان سيل عارم أتى على الأخضر واليابس وأهلك المحاصيل وأودى بالأرواح فخربت البوادي والكور وأتلفت الأراضي. وكانت معاهدات الهدنة التي عقدت ست سنوات قبل هذا التاريخ مع ملوك ليون وقشتالة والبرتغال قد انتهت. فوجدها اللعين ألفونس بن الرنك ملك البرتغال فرصة للإغارة علينا فأرسل ابنه الذي أغار على بعض القرى في الشرف وغيره ثم على إشبيلية. ولما التقى الجمعان هزم جيش المسلمين. وكانت خرجاتي مع أصحابي قد قلت بل انعدمت لما عظم الخطب وانعدم الأمان وكنت كثيرا ما أرافق والدي داخل دواليب الدولة رغبة منه في أن أصبح كاتبا لدى الوالي. ثم إن الخليفة بعث ابنه أبا إسحاق واليا على إشبيلية كما ولى غانم بن مردنيش على الأسطول بسبتة بعدما اشتدت فتنة النصارى فتغلب على بعض سفنهم إلا أنه أسر بعد ذلك وفداه الخليفة بمال عظيم كما كنت أسمع ذلك من أبي أو من بعض المحادثات التي كانت تجري بين أعيان الدولة وكنت أحضرها. كما أن السيد أبو حفص بن الخليفة عبد المومن توفي وكان بلاؤه عظيما في الأندلس

وغيرها حتى أخمد نار الفتنة حين كان لهذه العدوة رحمه الله. أما الآن فقد تجاسرت جموع النصارى الذميمة وها هو صاحب طليطلة الذي أنقض الصلح قد بالغ في الغارة حتى تعطلت الطرق.

قاف الأمر والنهي

رحلت مع أبي إلى قرطبة بقصد تعزية أبناء أبي حفص فالتقيت هناك بالقاضي أبي الوليد بن رشد مفخرة المغرب والمشرق عموما. وكان صديقا لوالدي، وكان والدي قد حدثه قبل ذلك عني وأخبره بما كان يقع لي وما أراه في خلواتي فعبر عن رغبته في لقائي. وكان أبي قد أرسلني إليه وطلب مني أن أناوله رسما قضائيا تخص شراء إحدى الدور بقرطبة. ولم تكن القضية إلا حيلة من والدي لتسهيل لقائي بالقاضي الذي كان يرغب في ذلك وحتى لا يبدو وكأنه هو الذي طلب ذلك، اتفق مع والدي على هذا الأمر. وكنت في هذا الزمان صبيا ما بقل وجهي ولا طر شاربي. فلما دخلت عليه قام من مكانه تعظيما ومحبة في لما سمعه عن فتوحاتي التي أتتني في خلوتي فضمني إليه وقال لي متسائلا: نعم؟ فأجبته: نعم. فزاد فرحه بي لفهمي عنه. ثم إني لما استشعرت علة فرحه، قلت له منغصا عليه فرحته الفارطة: لا. فانقبض وامتقع لونه وداخلته الريبة فيما عنده، ثم سألني: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ فقلت له: نعم لا، وبين نعم

ولا تطير الأرواح من موادها، والأعناق من أجسادها. فاصفر لونه وأخذه الأفكل، وقعد تحوقل وأدرك ما أشرت إليه. والحقيقة أني رميت رميتين وإن لم أكن أنا الرامي فقد جرى اللسان بما سبق عن الزمان. فأما سؤاله الأول وكان بالإيجاب وإن كان قد ضمن في عطفه نفيا إلا أن النفي لا يثبت مع الإيجاب فلهذا حذف ذلك النفي. وكان جوابي إيجابا لأن ذلك يستدعي هذا، والمتجانس يطلب أخاه فما قلنا إلا حقا. ثم لما رأيت فرحه ألزمته بالنفي لأنه هو المحذوف فذكرته به فانقلب فرحه ترحا لأنه لم ير للنفي وجودا مع الإيجاب وهو محق لا من الباب الذي يطرقه ولكن من باب آخر أخفى منه إلا أنه مشروط بالتقلب من باب النفي إلى باب الإيجاب. وبعبارة أخرى ولتوضيح ما انغلق وفتح ما انبهم، فإن سؤاله الأول كان مقيدا من حيث ما يفيده النظر إلى طريقة وصوله إلى الحق وهو مسلك بعيد وأغلبه تقلب بين أمرين لا يستطيع الناظر أن يرجح أحدهما. فإذا ما تمت الغلبة لواحد منهما على الآخر فلفترة ثم تبدأ سهام الشك تمطر على الميقون منه أولا إلى أن يصير مظنونا وهكذا دائما. والنظار يعلمون ذلك ولهذا لا ذوق لهم في اليقين الذي هو رسوخ. تلك هي الرمية الأولى، أما الرمية الثانية فهي أبعد وأعمق منها وإن لم يكن لي في ذلك إلا أني كنت لسان الحق أو ترجمان الوجود لا غير إذ كنت صبيا ولم تحذقني العلوم بعد ولا أدبتني المعارف كما هو شأن القاضي أبي الوليد. قلت الرمية الثانية هي لما سألني: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ فقلت له: نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها،

والأعناق من أجسادها . قلت سابقا، إن الناظر متردد دائما بين شكين، فراجحه اليوم مرجوحه غدا ومرجوحه غدا هو راجحه بعد غد. وهذا سبيل من لا راحة له إذ هو ساكن في الأكوان قابع مع المظروفات محجوب بالظروف، ولهذا لا يرى إلا وجها من الوجوه. أما أن يرى الوجه والقفا حين يكون القفا هو أيضا وجها من الوجوه فلا تسجنه الأكوان. يكون حينذاك وجها بلا قفا أي أنه وجه في كل وجهة هو موليها . هنا وهنا فقط يرى كيف يتلون الإيجاب بالنفي ويكون النفي عين الإثبات. بين نعم و لا تعرج الأرواح، أي بين الوجوب والنفي يكون العروج. وبعبارة أخرى بين الأمر والنهي يتم العروج. وإن شئت قلت بين افعل ولا تفعل تتم لك السعادة . فإذا ما أمسكت بهذا الميزان الرفيع الذي جاء به القول الإلهي علمت ما هو هذا القول الإلهي وعلمت أنه هو عين العروج. بين نعم و لا تعرج الأرواح، لا تصبح روحا إلا بعد العروج، أما قبل ذلك فأنت محصور ومسجون في قفص الأشباح. فلا تنفك عن الأمر والنهي إلا بالعروج فوق سدرة المنتهى حيث لا تكليف إذ هي وطن السعادة وأرض الولادة . ما هي هذه البينونة الساكنة بين الأمر والنهي ؟ وهل هي أقرب إلى الأمر منها إلى النهي أم أنها على حد سواء ؟ بل ما هو الأصل ؟ هل هو الإباحة أم المنع ؟ لا جواب عن هذا السؤال إلا بالعروج، فاعرج ترى نعم الخالق عليك. من أدرك نَعَم علم نِعم الخالق عليه. ومن أدرك لا علم أنها مقلوبة عن أل، وهي إشارة إلى المعرفة. فمن غالى في النفي هو عارف إلا أن معرفته مقلوبة كما هو شأن فرعون فهو أيضا من العارفين إلا أن تلك المعرفة

مقلوبة على عقبها فولدت النفي وهو الكفر أي الستر لأن بقلب الأشيا. يتم كفرها أي سترها . فما هو غيب البينونة إذن ؟ إنه الحفظ، والذي يرمز إليه هو الها. وعددها خمسة. فبأركان الإسلام ينحفظ الوجود وبالصلوات تحفظ المومن فيدرك النعمة فينطق بالإيجاب فيقول : نعم. وأمهات النعم ستة عشر فإذا سرت فيها العشرة الكاملة صارت مائة وستين وهو الغاية. فإذا أضفت إليها ها. الحفظ وعددها خمسة صار المجموع مائة وخمسة وستين وهي كلمة التوحيد. كما أنك إذا أضفت الها. إلى أل التي هي أداة المعرفة صارت إله. بين نعم ولا تعرج الأرواح، أي حين يدرك المخلوق نعم الخالق يعرج على سفينة الشرع المحفوظة فتكمل الدائرة. بين نعم ولا تطير الأرواح، فالإنسان بين أمر ونهي، ومردهما إلى أنه بين وجود وعدم. ومعنى ذلك أن الأمر يتضمن أمرا وجوديا وهو الفعل. أما النهي فهو أمر عدمي وهو "لا تفعل". ولهذا لم يكن للملائكة ذوق في النهي بل "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون". والوجود الحق هو الله وغيره عدم. وبين الوجود والعدم تعرج أرواح الأنبيا. والأوليا. عبر منازل القرآن. ولذلك تفصيل يطول شرحه. ولقد أرخينا العنان للسان وهو لا يتوقف لأنه لا يعتمد على عظم يؤول إليه وتحتمي خماه. وفيه اللام وهو من حروف اللسان وهو برزخ بين الحلق والشفتين. والبرازخ لها وجه لكل جهة.

ولنتكلم الآن بلسان آخر لأهل النظر في شرح ما أشرنا إليه. إن مذهب الفلاسفة والنظار من أمثال أبي الوليد بن رشد هو أن الواجب هو الوجود المطلق المجرد

الموجود في الخارج. وجميع الموجودات إنما هي موجودات بإضافتها إليه، ولا يضرنا موافقتهم في ذلك، أو بالأحرى موافقتهم لنا في ذلك. والأصل في كل ذلك هي الشرائع والأديان وغير أهلها هم المطالبون بموافقتنا لا نحن. وكم من اتفاق حصل بين أهل الإقرار وأهل الجحود ولا يعني ذلك أن أهل الإقرار جحدوا أو أن أهل الجحود أقروا. وكم أخطأ الكثيرون حين رأوا غير واحد من أهل الله يتكلم بكلام رأوه عند أهل الفلاسفة أو النظار فقالوا في حق الأول فيلسوفا وأخطأوا. وقالوا في حق الثاني وليا وأسرفوا. وهذا القول هو قول من لا تحصيل عنده لأن الأول قالها وهو صاحب دين والثاني نطق بها ولا دين له وشتان بين ذاك وهذا. وكلام الفيلسوف ليس كله باطلا بل قد يكون في كلامه ما يوافق الحق. وكونه لا دين له لا يعني أن ما عنده باطل. فإذا سلمنا في الأولى فإنا لا نسلم في الثانية.

تلك هي الرمية الثانية، وإن أبا الوليد عرف ما أشرت إليه في جوابي الذي أجراه الحق على لساني، فأصابه الأفكل وقعد بعدما كان قائما وصار يحوقل لما علم أن الأمر ليس هناك كما قد ظن أولا أو هو هناك كما أنه هنا. ثم طلب الإجتماع بي مع أبي مرة أخرى ليعرض علينا ما عنده، هل يوافق أم يخالف ما علمناه وحققناه بالفتح على صغر السن وحداثة العمر. ثم إنه شكر الله تعالى لأنه كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته وهو جاهل وخرج منها وهو من العارفين من غير مطالعة ولا بحث ولا درس ولا قراءة. وأقر بهذه الحالة التي لا ذوق له فيها. ثم أردت الإجتماع به مرة ثانية فرأيته في واقعة وبيني وبينه حجاب رقيق، أراه منه

ولا يبصرني ولا يعلم بمكاني وقد شغل نفسه عني، فقلت: إنه غير مراد لما لحن عليه. فطريقه غير طريقنا. ولم أره بعد ذلك.

ولم نتكلم عن المعراج وهو لا يكون إلا على أقدام الكمل ودرجاته ثلاثمائة وأربعة عشر درجا. فإذا سلك رجلان واحد بحكم النظر والآخر بحكم الشرع وأخذا في المجاهدة بألوان الطاعات وأصناف العبادات وانتهيا بعد ذلك إلى سجن الطبيعة العنصرية وأسرها إلا ما هو ضروري لقيام البدن حتى يعتدل فيصير قابلا لتلقي العلم بالله. فأما صاحب النظر فيتلقى روحانية القمر؛ أما التابع فيتلقى آدم فيعلمه أبوه من الأسماء الإلهية وصاحب النظر لا علم له بذلك، فحظه من العلم هو معرفة التأثيرات العنصرية في الأبدان. فأما التابع فيحصل له هذا وغيره. أما صاحب النظر فلم تحصل له إلا ما ذكرناه من غير زيادة. وهكذا الأمر في كل سماء سماء حتى يصيرا إلى السماء السابعة، فيسأل صاحبها التابع عن الأجنبي أي صاحب النظر، فيعلمه بأنه أخوه من الماء فيصدقه في ذلك ويؤكد عدم معرفته لأنه لا يعرف إلا إخوته من الرضاعة لا إخوته من النسب ولهذا يأمره بمصاحبة إلا من هو أخوه في الرضاعة كما كان هو أبوه من الرضاعة "ملة أبيكم إبراهيم". ثم دخل البيت المعمور دون صاحبه ثم ارتحل عنه يطلب العروج وأمر صاحبه بالوقوف هناك حتى يرجع. فلكل حد يقف عنده ومعراج ينتهي إليه. فصاحب النظر لا قدم له هناك. ثم سار التابع حتى بلغ سدرة المنتهى وهناك عاين أعمال السعداء. ورأى عمله من جملة أعمالهم. وهناك رأى أربعة أنهار أحدها أكبر من الثلاثة وهو نهر القرآن.

ولهذا فإن التابع حين عرج من سماء إلى سماء كان يرتقي على سلم درجاته مائة وأربع عشرة درجة على عدد منازل القرآن. وهذا النهر مهيمن على الأنهار الأخرى. وعند السدرة رأى نورا ولم يعد يرى أعمال بني آدم، فعلم أن التكليف يقف عندها وأن حدود الأمر والنهي تنتهي إليها . ويستمر معراجه فوق هذا فيمر عبر الرفارف ويدخل أرض النور الأعظم ولايزال يترقى في أرض السعادة...

ثم عدت بعد ذلك من قرطبة إلى إشبيلية واجتمعت ببعض رفقاني ومنهم إسحاق الذي كان على ملة اليهود رغم تستره على ذلك مخافة بطش الموحدين به. وعدت إلى دروسي بجامع العدبس وبدأت دراسة الحديث على بعض الشيوخ. كما كنت أحب علم القراءات وخصوصا حينما كان يخرج لنا الشيخ مصحفا كان في ربعة بخزانة المسجد وكان خطه يشبه خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطا وأبرعه وأبينه وأتقنه وهو من خط ابن مقلة وقد قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع. فالألفات واللامات كلها على قدر ووضع واحد.

دجال التاف

خرجنا إلى ظاهر إشبيلية رفقة الأصدقاء للترويح عن النفس والإستمتاع بالهواء النقي والمنتزهات الخضراء وسماع الألحان الرقيقة والأشعار البليغة. فكانت نزهتنا

الأرتحية فننشد البيت والبيتين، بل لم يكن كلامنا إلا شعرا مبالغة منا في المبارزة الأدبية حيث لم تكن هناك مبارزة بدنية. وكانت تعجبني كثيرا الموشحات وخصوصا موشحات الأعمى التطيلي الذي كان في عهد الملثمين. وبلدته من مدن الثغر الأعلى إلى الشمال الغربي من سرقسطة. وكان والد صديقي اليهودي من تلك المدينة وقد خلف هناك بعضا من أقاربه وخصوصا أحد أبناء عمومته وكان من علماء اليهود يقال له بنيامين بن يونه التطيلي. فلما سمعني أردد قفل إحدى الموشحات:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدري

سألني عن صاحبها، فأخبرته بقصة تلك الموشحة فقلت له: لقد اجتمع جماعة من الوشاحين في مجلس بإشبيلية، وتواعدوا على هذه الجلسة بوضع موشحة والتأنق فيها. فتقدم الأعمى التطيلي بإنشاد موشحته، فلما افتتحها خرق ابن بقي موشحته وتبعه الباقون لأن الأعمى توفق في هذا المطلع بما لا مرمى لأحد بمثله. فالتفت إلي صديقي يريد أن يحدثني مرة ثانية عن ذلك الحبر بنيامين التطيلي. فقلت له: ماذا عن قريبك يا إسحاق؟ فأخبرنا برحلة قام بها عبر أنحاء الدنيا دون على إثرها مشاهداته ولدى والده نسخة منها وفيها من العجائب والغرائب ما يستحق الذكر. فشوقنا إلى سماع أخبار تلك الرحلة ونحن فتية نتوق إلى السياحة في أرض الله

الواسعة. فقال لنا : إن الربي بنيامين قد كتب هذه الرحلة باللسان العبري وقد دامت رحلته تلك ثماني سنوات زار خلالها جل أنحاء العالم المعروف آنذاك. فسألته قائلا : وما هي الغاية من رحلته تلك وهو يعلم أن السفر قطعة من العذاب وخصوصا إذا لم تجد المرء الأخ أو الصديق أو المعين. فأجابني مردفا : صحيح، إلا أن الجالية اليهودية في العالم كثيرة ولا تخلو بلدة منهم. وأنت تعلم تماسك هذه الطائفة. وهو كما تعلم تاجر في الجوهرات والأحجار الكريمة إلا أنه قام بهذه الرحلة أيضا من أجل الحج وزيارة الأرض المقدسة في بيت المقدس والخليل وغيرها...

ثم سأله أحدنا : وماذا رأى من غرائب وعجائب في البلاد التي زارها ؟

لقد انطلق من تطيلة إلى الشمال حيث زار جنوب فرنسة والتقى بعترة النبي داود عليه السلام في أربونة هناك، وخصوصا العلامة فلوفيوس بن تيودوروس النربوني الشهير صاحب القصيدة المعروفة "أزهروت" وهو صاحب أملاك وعقارات هناك على عكس حال اليهود في دول النصارى حيث منعوا من امتلاك الأرض والإشتغال بالزراعة كما تعلمون. ويقول المسيحيون إن القديسة ماري مادلين التي جاءت لفرنسة بعد الصلب تحمل قطرات من دمه في كأس مقدسة يسمونها السانغرال **sangreal** أو **saint graal** قد استقرت في هذه المنطقة،

وكانت السبب غير المباشر في ظهور دولة الميروفانجيين من ذرية داود وعيسى.

ثم يمم بعد ذلك شرقا نحو رومية الكبرى على نهر التبر وكذا بيزنطة حيث

الكنائس العظمى ومنها إلى جزيرة رودس فأنطاكية والأرض المقدسة ودمشق وبغداد وفارس.

وعن ماذا تخبر هذه الرحلة ؟

إنه يتكلم فيها عن علماء وصلحاء اليهود في هذه البقاع وأعداد المنتسبين لهذه الملة، وقد بلغ والدي إلى عد ستمائة ألف عائلة ذكرها الربي في هذه الرحلة. ولقد ذكر أن اليهود بدأوا يظهرون في بيت المقدس بعد مرور جيلين على إبادتهم من طرف الإفرنجة في أول حملاتهم الصليبية. ومن أغرب ما سمع عنه رجل يقال له شيخ الجبل يتزعم مجموعة من الفداوية يسمون أنفسهم بالأساسين، زرعوا الرعب في القلوب فلا يقوى على الوصول إليهم أحد وهم يصلون إلى من يريدون بسهولة ويغتالون بأيسر سبيل. ويعيش بينهم مجموعة من اليهود فيهم بعض العلماء التابعين لرأس الجالوت ببغداد.

ثم سألته: وماذا عن فتنة المسيح الدجال الذي يظهر أنه ظهر في ملتكم منذ ما يقرب من عشرين عاما ؟

نعم، لقد ظهر في العمادية وهي قلعة قديمة شهيرة في شمال العراق، فتنة داود بن الروحي. وكان هذا قد تلقى العلم في بغداد عن حسداي رأس الجالوت وغيره، فتضلع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم وبرع في اللسان العربي والآداب العربية ونبغ بفنون السحر والشعوذة. فعزم على إعلان العصيان على سلطان الموصل وقتال النصارى الذين ملكوا بيت المقدس والإستيلاء عليها وطردهم

منها . فشرع ينشر دعوته بين اليهود ويقيم الحجج الواهية على ذلك فآمن به جماعة من البسطاء. ولما اشتد أمره واستفحل قبض عليه السلطان وزج به في السجن فخرج منه طليقا بدون أغلال بينما كان السلطان مع حاشيته. فسأله السلطان عن ذلك. فأجابه بأن حكمته ودهاءه هما اللذان خلصاه من الأغلال وأغلظ القول للسلطان، فأمر هذا الأخير بالقبض عليه إلا أنه اختفى عنهم وبقي يكلمهم ولا يرون شخصه. فهال السلطان وحاشيته هذا الأمر. ثم خرج وتبعوه حتى شاطئ النهر فنشر طيلسانه فوق الماء وعبر إلى الجانب الآخر. فتعقبه الجند لكنهم لم يفلحوا في إمساكه فعلم السلطان أن الرجل ساحر كبير. ولقد أخبرني والدي أن داود بن الروحي هذا قد تمتم ببعض التعاويذ ونطق باسم الله الخفي فقطع بيوم واحد مسيرة عشرة أيام من الموصل إلى العمادية.

وهنا قاطعته: وما هو هذا الإسم الخفي ؟

فامتقع لون صديقي وقال لي أنه لا يعرفه، وإن القلائل فقط هم الذين يعلمونه من المتوغلين في أسرار القبالة. وكنت قد سألت أحد الشيوخ عن ذلك الإسم الذي تخفيه أحبار اليهود فأخبرني ملغزا بتصحيفه إنه مكون من عشرة أحرف "يشرمه شاروف" . فنقلت ذلك لإسحاق الذي تعوذ من ذلك ونفى نفيا قاطعا أن يكون سمع بذلك الإسم. ثم أكمل قصته حيث أن السلطان كاتب الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي عن أمر داود بن الروحي ليطالب رأس الجالوت وكبراء اليهود ليكفوا ابن الروحي عن التمرد وإلا عاقبهم السلطان. فكاتب رأس الجالوت الدجال

مفندا دعاويه بكونه هو المسيح المنتظر لأن علامات المسيح لم تظهر بعد والأمر لا يكون بالعنف وهدده بفصله من الملة اليهودية. فلم يتب من دعواه بل زاد في زيغه وضلاله. ولما ولي الحكم زين الدين التركماني أرسل إلى صهر الدجال عشرة آلاف دينار لقتل ابن الروحي، فدخل صهره عليه وهو يغط في نومه وذبحه وانتهى أمره وتخلص اليهود من شره.

فقلت لإسحاق: يظهر أنك قرأت هذه الرحلة لأنك على دراية كبيرة بتفاصيل ما ذكره الربي بنيامين بن يونة التطيلي. فهل تخفي عنا أشياء أخرى؟

فأجاب قائلا: في الواقع، إن قصة هذا المسيح الدجال قد شوقتني، فطلبت من والدي أن تحكيها لي مرارا ولهذا علقت في ذاكرتي كما ترون. ولا يمكن أن أخفي عن أصدقائي شيئا. وأنتم رأيتم أني كنت البادىء بذكر خبر رحلة الحبر بنيامين ومشاهداته، فليس في نيتي إخفاء شيء.

فسألته مرة أخرى: وماذا عن ممالك الإفرنج في شمال الأندلس، هل دخلها ورأى فيها أشياء معينة، وكيف هي العلوم عندهم؟

فأجابني: نعم، إن آخر ما يتحدث عنه في الرحلة هو باريس عاصمة إفرنج الشمال فرنسة التي يسميها اليهود "صرفت" أو "سرفت" ومنها نقول السرفاتي أي الشخص الذي ينحدر من سرفت أو فرنسة. تقع باريس هذه على نهر يسمى السين وتحكمها ملك يدعى لويس السابع. وقد أزمع أسقف هذه المدينة بناء كنيسة عظيمة في هذه المدينة وما زال البناء لحد الآن جاريا لها ولا أظنه سينتهي قريبا

نظرا لضخامتها كما حدثني بذلك والدي. أما العلم عندهم فيعطى في الجامعة وهي تضم أربع مدارس تسمى كليات: واحدة في العقائد والثانية في القانون والثالثة في الطب والأخيرة في الفنون. وهذه الكلية تهيىء لباقي الكليات. والطلبة ينقسمون فيها بحسب أصولهم. أما رئيس الجامعة فيختار من ضمن أساتذة كلية الفنون. تدوم الدراسة بها من ست سنوات إلى خمس عشرة سنة، ومما يثير الإنتباه هو أن هؤلاء الأعاجم يدرسون أرسطو وشارحه الإمام أبا الوليد بن رشد قاضي قرطبة حاليا. وقد وصلت كتبه إليهم وهم يعظمونه كثيرا.

وكيف يقبلون على دراسة كتب ابن رشد وهو من غير ملتهم؟

فأجاب إسحاق: إنهم يدرسونه للتوفيق بين مقتضيات النظر وعقيدتهم النصرانية. فيقرأون النصوص الفلسفية من خلال الشروح الرشدية كما فعل موسى بن ميمون تماما في ملة اليهود. ثم يتعاطون للمناظرة الحرة باستعمال الجدل. أما في كلية العقيدة، فهناك تيارات مختلفة تمثلها طوائفهم المختلفة كطائفة الفرنسيسكيين المنسولين من رجال الدين، وكذا طائفة الدومينيكيين. وبعض هذه الطوائف عقلانية وأخرى تعتمد على النقل كما هو الشأن عند فرق المسلمين من معتزلة وأشاعرة.

إذا تيسر لي اللقاء بأبي الوليد بن رشد فسأنقل له هذا الخبر الذي ربما ليس من الصائب أن يعرفه عامة المسلمين حتى لا يتهموه بالمروق من الدين لما صارت كتبه تدرس في جامعة النصارى. هكذا حدثت نفسي راجيا أن لا يتعدى هذا الخبر جمعنا الصغير. وهذا يدل على أن أبا الوليد من أنبغ رجالات الدنيا، بل إن علماء

اليهود أنفسهم يأخذون عنه. فهذا موسى بن ميمون أكبر العلماء الذين أنجبتهم الملة اليهودية يتتلمذ على أبي الوليد بل إنك إن سمعته يتكلم تحسبه ترجمانه.

ثم التفت إلى أصدقائي قائلا: لقد كان مجلسنا اليوم ممتعا، علمنا فيه أشياء كنا نجهلها. فانظروا إلى ما جرنا إليه الحديث من خلال بيتي الأعمى التطيلي إلى ذكر هذه الرحلة وهذه البلدان وما تجري فيها. فالسياحة في الأرض هي العبادة الحقيقية لأن بها يصبح المرء إنسانا متميزا عن البهماوات حيث يزداد علما ومعرفة. ولقد سمعت أن أحد النصارى مثل صموئيل بن يونة هذا قد قام برحلة إلى صقعنا وتعلم العربية بل إنه قد زار العدوة الجنوبية من بحر الزقاق وقد نقل إلى اللسان اللاتيني عددا كبيرا من الكتب الحكمية وغيرها تصل إلى السبعين. واسمه جيرار دي كريمونا ولا يزال حيا في طليطلة حيث يترجم كتب الحكمة والطب والهندسة والكيمياء. وكتاب إصلاح المجسطي في علم النجوم لجابر بن أفلح الإشبيلي الذي نعرفه جميعا. كما نقل كتب الأوائل في الحكمة والسيمياء. فحري بنا نحن أيضا أن نرحل في طلب العلم ونحن أحداث نقوى على السفر.

فأجابني واحد من الرفقة: السفر قطعة من العذاب مع ما يتطلبه من مال وزاد وراحلة، ثم إن الطرقات إن كانت مأمونة في مغربنا، فإن الأمر مختلف تماما في المشرق. فإذا أفلتت من النصارى أصحاب الصليب فإنك لا تفلت من البدو والأعراب والمكاسة الذين يفرضون على الحجاج والمسافرين مكوس الجواز

وهي مجحفة كثيرا كما أخبرنا غير واحد من الذين يمموا شطر المشرق لطلب العلم أو الحج.

فأجبته: صدقت، ولكن ذلك لم يمنع طالبا أن يطلب العلم أو يؤدي الفريضة. وكم صار للمغاربة من فضل في دول الشرق نتيجة هذه الرحلات والأسفار. فعلماؤنا قد انبثوا في كل المدن والبلدان هناك وصار لهم صيت كبير. والإنسان لا يعدم أحدا من أبناء جلدته يأويه ويأخذ بيده حتى يصلب عوده في بلاد الغربة.

فأعاد الكرة قائلا: إنها أضغاث أحلام يا محمد، فإن كان بعض هؤلاء قد توفرت له دواعي النجاح ووسائل الفلاح، فكم من واحد قد هلك ولم يعد له ذكر. وفيما يخصني، فالأندلس أجمل بلاد الدنيا وفيها العيش الهني وماذا ينقصنا هنا. آباؤنا في دفة الحكم ونحن نقضي وقتنا بين الدرس واللهو، وأمر اشتغالنا بالدواوين المختلفة والخطط المتعددة مسألة وقت فقط. فإني لا أبغي بالأندلس بدلا.

فقلت: ألا تحدثك نفسك بأرض الآباء والأجداد. وفيما يخصني أنا فلن يهنأ لي بال حتى أيمم شطر الشرق أؤدي الفريضة وأجاور ببلد الله الحرام وأروي العلم وأشهد بعيني أرضا وطئها الأسلاف.

بدأت أقلل كثيرا من الخروج مع رفقتي قصد التنزه واللهو. وبدأت أقبل على دروس العلم وخصوصا علم القراءات والحديث والعربية. وكانت كثير من المسائل التي يتعرض لها الشيوخ مفيدة. وكان همي كبير في الإقبال على هذه الدروس المختلفة، فازداد فضولي العلمي وكنت أقارع الشيوخ الحجة بالحجة في أدب شديد، وأطلب منهم الدليل على ما استشكل واستشعب. فمرة يفون بالطلب وأخرى يعدمون ذلك. وقد سألت مرة أستاذي في النحو والعربية عن المسألة الزنبورية التي جرت بين سيبويه والكسائي والفراء. فأجابني الأستاذ قائلا: إن أمر هذه المسألة يا بني له علاقة بشهادة الزور قبل أن يكون له علاقة بمادة النحو. فهي المسألة الزنبورية المقترنة بالشهادة الزورية. يذكر لنا شيوخنا أن الإمام سيبويه لما قدم على البرامكة تقدم إليه الفراء والأحمر الكوفي تلميذ الكسائي، فسأله الأحمر عن مسألة فأجاب فخطأه ثم سأله ثانية وثالثة وهو تجيبه فيخطئه. فقال له سيبويه: هذا سوء أدب. فأقبل عليه الفراء فسأله فأجابه سيبويه إلا أنه لم يقره على جوابه. فامتنع سيبويه عن الحديث معهما حتى يأتي صاحبهما الكسائي. فلما جاء سأله هذا الأخير فقال له: تقول العرب "قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، وقالوا أيضا: فإذا هو إياها". فقال سيبويه: فإذا هو هي ولا تجوز النصب. فقال الكسائي: العرب ترفع كل ذلك وتنصب. فلما لم ينتهيا إلى رأي، قال

الكسائي : العرب بالباب، فلما أحضروا وافقوا الكسائي الذي كان قد رشاهم ليشهدوا الزور. ثم قال الشيخ بعد ذلك : إن جواب سيبويه هو الصحيح لأن "إذا" في المسألة من حروف الإبتداء المتضمنة للتعليق بالخبر، فإذا اعتبرت المضمرين بعدها بالإسمين المظهرين لزمك أن تقول "فإذا الزنبورُ العقربُ" او "اللسعة اللسعة" أي مثلها سواء. أما إذا قلت "فإذا هو إياها" بنصب الضمير الأخير للزمك أن تقول :* "فإذا الزنبورُ العقربَ" بالنصب، وهذا لاوجه له. فإذا لم يجز نصب الخبر المظهر فكيف يجوز نصب الخبر المضمر الواقع موقعه ؟ والدليل من القرآن على صحة ما ذهب إليه سيبويه قوله تعالى :"فإذا هيَ بيضاءُ" وأيضا "فإذا هيَ حيةٌ تسعى". وأما عن تخطئتهم له في غيرها من المسائل، فالحق أنه كان يجيبهم على مذهبه وهم يخطئونه على مذهبهم. وتلك عادة النحاة في العراق. وكانت هذه الشهادة الزورية سببا في موت الإمام سيبويه كمدا حيث خرج كسيرا حزينا إلى الأهواز. ولما بلغ الكسائي موته قال للرشيد : ده يا أمير المومنين فإني أخاف أن أكون شاركت في دمه. فهذا ما حضر في ما سألت عنه يا ابن العربي. فاحذروا يا أبنائي من شهادة الزور فإنها باطل وكذب قبيح وهي من آفات هذا العلم حين لا يريد به صاحبه وجه الله تعالى.

ثم إني كنت أختلي كثيرا في المقابر حتى ظن الناس أن بي مسا من الجنون وبدأت أصحب بعض الشيوخ وأرحل إلى زيارة آخرين وكنت أستأذن دائما والدتي نور قبل أن أقدم على زيارة معينة. ولم تكن تمنعني من ذلك بل كانت تبارك لي فيه

وتشجعني عليه؛ على عكس والدي الذي كان يصدني عن التجرد وسلوك الطريق ويرغب في أن أصل إلى ديوان الإنشاء والكتابة. أما رغبتي أنا فكانت على عكس مراده ولكنه لم يكن يرغمني على شيء. ما بل كان يناقشني ويرغب إلي ما يريد وحين يرى إصراري على رأيي كان يتركني وشأني. بل إن اللقاء الذي رتبه لي مع القاضي أبي الوليد بن رشد لم يكن إلا لهدف أن يثنيني عن سلوك هذه الطريق. فلما رأى أن القاضي أقرني على ما أنا فيه وشهد بعلو كعبي، أذعن للأمر وتركني وشأني دون أن يغفل عن التصريح بما يريده لي مرة بعد مرة. كان الوالد مشغولا بأمور السياسة والجيش والغزوات ضد النصارى. وقد هيأ لي أسباب الدرس والتحصيل من كل جانب. فكنت أقبل على العلم الشرعي وعلوم الآلة دون أن أنسى نصيبي من الفقه الأكبر أو فقه القلوب. كانت خلوتي في بدايتي لا تتعدى بضع ساعات كنت ملازما فيها للذكر بشتى أنواعه. وكنت أجد لكل ذكر نتائج مختلفة. ثم بدأت أمدد تلك الخلوة حتى خلوت مرة أربعة أيام وخلالها تم لي الفتح الذي واجهت به القاضي أبا الوليد فأقر به. وكنت أدخل في مقبرة هناك وعليها بناء فكنت ألزم هذا البناء لا شغل لي إلا الأذكار والصلاة في أوقاتها حتى فتح الله علي ما بين صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس فعلمت ما علمت من دون درس ولا مطالعة ولا غير ذلك. ثم دخلت خلوة أخرى دامت مدة أطول بكثير حيث بقيت هناك أربعة عشر شهرا. وفيها علمت تلك العلوم التي دونتها بعد ذلك. كانت خلوتي بالمقابر التي تلي مسجد الينير بإشبيلية. دخلت هناك إلى ضريح بني على قبر

إلا أن جدرانه عفا عنها الزمن. وعلى الضريح باب صغير لا يسع قامة المرء ولولوجه ينبغي الإنحناء. ولم يكن بالضريح نافذة أو شباك، فدخلت هناك وجلست على حصير كنت أخذته معي واستقبلت القبلة بعدما أقفلت الباب. كان عسكر الظلام مستوليا على المكان وزيادة على الظلام القاتم كان المكان هادئا ساكنا إلا ما كان من زقزقة الطيور التي كانت تؤم الروضة. وفي وسط الضريح قبر صغير على ارتفاع شبر. لم أكن أعرف من صاحب القبر وإن كان من الواضح أنه لأحد العلماء أو الصلحاء؛ إذ لا تبنى الأضرحة إلا لمثل هؤلاء أو للملوك والأمراء وكبار رجال الدولة. وكنت أتساءل دائما لماذا تبنى مثل هذه الأضرحة؟ لماذا لا يكتفى بالإستواء على الأرض بدون هذا البروز الواضح الذي يقتطع الناظر حين يسيل نظره على صفحة الأرض فمرة كنت أرى أن ذلك له علاقة بكل بناء مقدس. فالكعبة بيت الله بارزة على الأرض كما أن القبر النبوي عليه قبة. ثم إن مثل هذه الأبنية هي نوافذ للسماء وإلى السماء منها تعرج الأرواح وتتنزل الرحمات. وأيضا إن هذه الأضرحة نتوءات على أفقية الأرض، فكأنها أوتاد وضعت لتشد ميد الأرض بعموديتها. فالكمال لا يكون إلا بالجمعية لما هو أفقي وما هو عمودي. وبعبارة أخرى إن الوصول إلى الحقائق إما إسراء أو معراج أو هما معا. وأخيرا إن أشكال البنايات المقدسة حروف فمنها ما هو على شكل ألف كالمآذن. ومنها ما هو على شكل الطاء كالقباب وتشكل تفافيح

الجاموس إشالة الحرف. ومنها ما هو على شكل حرف الدال المربع. ولكل هذه الحروف دلالات عديدة ومعان لطيفة.

إسراء القاف

دخلت ذلك الضريح إذن كما لو أنني دخلت إلى أعماق أعماقي حيث لا أبصر بصري على ذلك يكون سببا في انقداح بصيرتي. فإذا انعدم ضوء البصر صار المرء ينظر ببصيرته أي داخله ليرى ما يمكن رؤيته. إن ذلك أشبه بما يراه الإنسان وهو نائم. فهو يسافر في كل العوالم الممكنة وهو مستلق على فراشه وعيناه لا تطرفان. لا يمكن للمرء أن يشتغل بشيء آخر إذا ما ألجم عينيه عن رؤية الأغيار لأن بالأعيان تفتك بك الأغيار، فإذا ما وجهتها باطنا فتكت هي بالأغيار فاستعبدتها واستعملتها. وشتان بين أن تفتك وأن يفتك بك. وبعبارة أخرى، شتان بين أن تستعمل وبين أن تستعبد. حين يوجه المرء نظره إلى داخله ينقدح فيه نور من عالم السر فينير له الطريق بشرط أن تكون مادة سيره دوام الذكر مع الأنفاس. إن هذه الأنفاس صارت من الأحباس لأنها وقفت على ذكره. فالذاكر تحاسب على كل نفس أخرجه وكل نفس أدخله. فساعته منه وليست خارجة عنه. صارت ثوانيه ودقائقه هي أنفاسه فتوحد الزمان مع الذاكر وصار الظرف عين المظروف. وتوقيعات الأنفاس هي حركات زمان الذكر. صرت أذكر "لا إله إلا الله"، بدأت

في أول الأمر هادئا لا أتحرك ثم صرت أتمايل يمنة ويسرة وبدأت أغيب عن حركة شبحي حيث فنيت عن حسي ولم أعد أبصر شيئا أو أحس بشي. بل لم أعد أدرك أني أذكر كما لو أنني صرت مذكورا أو صار مذكورا بي. ثم بدأت أعود ووجدتني بين نفي وإثبات وكان جسدي يتحرك مع النفي إلى جهة اليمين ومع الإثبات إلى جهة اليسار. فكان مقطع "لا" في جهة اليمين و"إله" في جهة اليسار. ثم حرف الإستثناء وهو نفي مركب لأن الإستثناء إما أن يكون من جنس المخرج منه وإما لا يكون وهو المنقطع فيأول إلى النفي لأن الإستثناء هو نفي إلحاق اللاحق بالسابق، فكانت حركتي إلى اليمين، ثم ختم الدور بكلمة الجلالة، فكانت حركتي إلى اليسار. كان هذا الترتيب حينما تلاحقت الأنفاس وتسارعت فتسارع لها الجسد بأكمله ثم خفت الأنفاس ولنقل أشبعت لما عادت محملة بالطرائف من عالم الملكوت تداعت وتساكنت فنطق الجسد ترجمانا عنها فصارت الحركة متباطئة. وبدل أن يربع الذكر إلى أربعة مقاطع صار التربيع شفعا فاندرج الزوج في الزوج واشتمل المجانس على المجانس فصرت أذكر مقطع "لا إله" على جهة اليمين ومقطع "إلا الله" على جهة اليسار، وهو محل القلب الذي جمع المعارف وحوى الطرائف. قضيت هكذا أوقاتا طويلة ولنقل أنفاسا كان شبحي فيها ساعة أي ظرفا لتلك الأنفاس. ولم تكن حركات الأنفاس على وتيرة واحدة بل كانت تفتر وتسرع وتتباطأ وتتحافز فلم تكن حركة فاترة منتظمة كما هو الشأن في ساعة الأكوان بل كان زمان هذه الساعة الذاكرة متلونا بلون ما يأتيه من نفحات وما يعتريه من

لوحات الهيبة والأنس والقبض والبسط والجمال والجلال، والعبودية والعبودة، والإحسان والإيقان، وما إلى ذلك من أحوال ومقامات ومواطن ومنازل. ثم فنيت مرة أخرى عني وقد كنت جالسا كما تجلس المصلي على أليتي ناصبا قدمي اليمنى ثانيا أصابعها صوب القبلة. خلال هذا الفناء الثاني أو الثالث أو لربما الرابع في زمان الذكر الذي لا يضبطه إلا تلاقح الأنفاس بالأنفاس وجدتني قائما في سكرتي. وكيف لا يسكر الحبيب بمحبوبه وهو قائم عليه منول لخدمته كحال الساقي بالأكواس يديرها على الجلاس وهو قائم فكيف أجلس والحبيب يسقي ويدير خمرة المعرفة الصافية العذبة التي لم تمزج إلا بعرف الأنوار وختم بمسك الأسرار. وجدتني إذن قائما ولم أعد أتمايل يمنة ويسرة بل كنت أتمايل إلى الأمام كما لو أنني أرسم صورة الركوع والسجود فأنتقل من ألف التوحيد إلى حاء الحمد وميم العلم ودال الدلالة. كنت إذن في صلاة دائمة، صلاة أحدية سرمدية أبدية أزلية لا تعرف إلا الإثبات حيث زال ظل النفي فلم يعد إلا ضوء الشمس في واضحة النهار فأطفئ السراج. حينها أفقت من فنائي على فنائي ومن فنائي على بقائي فانقطعت الأنفاس وعقب ذلك أنس لذيذ ولطف رقيق. حينها انقلبت نفسي إلى نفسه فانفتح سكون تلك النفس التي تشاكست عليها الشركاء إلى نفَس رحماني، فصارت فاء النفس المسكونة بالهوى والنزق والشركة والتشاكس فاء الفتح فعلمت ما لم أكن أعلمه وأحسست ببرد في ثديي فخرجت من خلوتي الجثمانية وإن لم أخرج من خلوتي معه أو بالأحرى خلوته هو معي. فكان شبحي بين الأشباح وروحي مع الأرواح. دامت هذه

الخلوة شهورا . وقد كان شيخي أبو العباس العريبي هو الذي أمرني بهذه الخلوة حتى فتح الله علي . فقد قال لي حين حل بإشبيلية لأول مرة عام 580 وذهبت إليه أطلب منه أن يوصيني فسألني : هل عزمت على طريق الله تعالى ؟ فقلت : أما العبد فملازم لما كان الله هو العازم . فأردف قبل أن يراني ويتحقق من خلقتي : هذه همة عالية شريفة . يا ولدي سد الباب واقطع الأسباب وجالس الوهاب يكلمك من غير حجاب . فعملت بهذه النصيحة فرأيت بركتها في خلوتي بجبل قاف بعد ذلك .

قشرة القاف

أما بعض من كانوا يترددون على الشيخ فإنهم وإن سمعوا مثل هذا الكلام فقد حملوه محامل أخرى ولم يفطنوا إلى أنه لا تبديل ولا تحويل لسنة الله وسنن الله . فما كان صحيحا في عالم الحس صح أيضا في عالم المعنى والعكس صحيح . فقد كان بعض تلاميذ أبي العباس يحملون كلامه على المعاني دائما وهو كذلك ولكنهم ينسون أنه لا وصول إلا بسد الباب حقيقة ومجازا أي بالخلوة . فلم يكونوا يختلون ولم تحصل لهم نفحات الأنس وكان شغلهم كثيرا بالكتب الصوفية وهي مفيدة ولكن الكتب كما سمعت حكاية عن أبي مدين حين كان يطالعه تلامذته بكلام الأولياء من كتبهم كان يقول : لا تطعمونا قديدا أي لحما يابسا غير طري

يقصد بذلك أن تخبروا عن فتوحهم لا عن فتوح غيرهم. أما أنا فلم أكن أعلم حتى لفظة التصوف ولا على ماذا تنطلق وتطلق. ولم أسمع بكتب الصوفية المتداولة بين أيدي أصحابي من تلامذة الشيوخ. وأول مرة سمعت فيها برسالة القشيري كانت حينما أمرني أحد شيوخي الذين أدبوني وعلموني الرياضة لأن فتحي سبق رياضتي وهو مقام خطر. فلم أجد سوى هذا الشيخ أي أبا يعقوب يوسف الكومي ليسلك بي طريق المجاهدة فكان نعم المؤدب والمعلم. فقد أمرني وأحد تلامذته بالخروج إلى المنتيار وهو جبل عال على فرسخ من إشبيلية فخرجت والصاحب في الصباح الباكر عند فتح باب المدينة. وكان صاحبي تحمل رسالة القشيري ولم أكن أعلم من هو القشيري بله رسالته. فلما صعدنا الجبل وجدناه قد تقدمنا وغلامه ممسك بفرسه. فدخلنا مسجدا هناك في أعلى الجبل وصلينا الظهر ثم استقبلنا بعدما أمنا في الصلاة وناولني الرسالة وأمرني بالقراءة فلم أقدر أن أضم كلمة لأخرى فسقط الكتاب من يدي من أثر الهيبة فناوله لصاحبي الذي بدأ يقرأ من أول الكتاب الذي كان يتكلم عن أصول التوحيد عند الصوفية. فكانت أول مرة أسمع فيها لهذا الإسم حيث يقول المؤلف: اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم. ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله: التوحيد إفراد القدم من الحدوث...

ثم قرأ أشياء من أقوالهم في معرفة الله وصفاته وانتقل إلى مصطلحاتهم ومقاماتهم. واستوقفني ما قاله عن الخلوة والعزلة في حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من خير معايش الناس كلهم رجلا آخذا بعنان فرسه في سبيل الله، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه، او رجلا في غنيمة له في رأس شعفة من الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير"

فأفادني هذا الحديث عن مقام شيخي الكومي الراكب على فرسه في رأس هذه الشعفة أو الجبل، جبل قاف، كما لو أن الحديث يتكلم عنه بالذات فاغرورقت عيناي بالدموع وعلمت صدقه وتحققه. فلما رأى الشيخ مني ذلك أخذ يتكلم عن الكتاب وعن الخلوة. فقال كلاما مفاده أنها من نعت وصفة أهل الصفة والصفوة وهي من أمارات وعلامات الصلة والوصلة وأنه يلزم المريد في بداياته العزلة عن أبناء جنسه وفي نهايته من الخلوة ليتحقق بأنس حبيبه. والخلوة العظمى هي خلوة جبل قاف الذي هو محيط بالأرض ولا يصل له إلا كبار الصالحين لحضرة الحق تعالى.

وبقينا على هذا الحديث حتى صلينا صلاة العصر ثم أمرنا بالرجوع إلى المدينة. فوضعت يدي على ركاب فرسه وهو راكب فجعل يحدثني عن أبي مدين وفضائله وكراماته وأخباره حتى فنيت عن حسي والأرض تطوى لنا وكان يهمز فرسه بين الفينة والأخرى فيسرع الفرس وأسرع أنا لذلك وأنا غائب عن ذلك حاضر مع كلامه

الرائق الرقراق. وكنت أغفل عن الطريق أمامي لأملأ عيني بوجهه النير فكان ينظر إلي ويبتسم ثم أوقف فرسه وأمرني أن أنظر خلفي إلى الطريق الذي مشينه فرأيت شوكا كثيرا يصل إلى معقد الإزار والطريق كله شوك. ثم أمرني بالنظر إلى قدمي فلم أر بهما أثرا لجروح وأمرني أيضا بالنظر لثوبي فلم أر به أثرا لشوك أو غبار فتعجبت من ذلك فقال لي إن ذلك من بركات ذكرنا للشيخ أبي مدين رضي الله عنه ثم أوصاني بملازمة الطريق حتى أنال الفلاح ثم همز فرسه وتركني ونحن على مشارف المدينة فدخلتها وقد حان وقت الغروب فولجت مسرعا قبل أن تقفل الأبواب وقصدت مسجد أبي عمران المقري فصليت به صلاة المغرب وحديث الشيخ الكومي وما وقع لي معه لا زال يرن في هيكلي رنين كأس بلور من الزجاج الصوري رطم برأس أنملة في بيت فارغ. فكأني ذلك الكأس البلوري من زجاج صور رمزا لتلك اللطافة والشفافية اللتين كنت أحس بهما ورأس الأنملة هو حديث شيخي الكومي الذي ضربني بأحواله ومعارفه. والبيت الفارغ هو واقع الطريق في هذا الزمان وكل زمان إذ لابد من الخلوة حتى تتحقق الجلوة أي الخروج من الأولى بالنعوت الإلهية بعدما كان السر جليس الحق. وقفت أصلي صلاة المغرب في هذا المسجد الذي كان يأوي إليه أحد شيوخي كذلك وهو صالح العدوي وهو من رجال الإشنياق الخمسة وكان قليل الكلام. فحين وقفت أصلي مر أمامي أحد المصلين فتذكرت أول مسألة سألنيها الشيخ الكومي حين لقيته أول مرة بخصوص الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلي حتى يود أن يقف أربعين خريفا فأجبته إذ

ذاك على حسب ما وقع لي أي أن الحق في قبلة العبد فمن مر بين الله وبين عبده بنفسه لا بربه فوباله تخور عليه. وللمصلي الذي هو المناجي عليه أن ينبهه ويرده عن رؤية نفسه في ذلك لأنه مطالب بإسداء النصح والنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين ولأئمتهم وكافة الناس أجمعين. فالذي يأثم هو الذي يمر بإرادته واختياره. فلما أجبته هذا الجواب سر بذلك وفرح به فرحا بالغا لما رأى أنه طعام سماوي لم تمضغه الأسنة ولم تلكه الألسنة. وصلت إلى دارنا فوجدت والدي مع أمي وقد قلقا علي وعن غيابي وخلواتي التي تكررت في هذه الأماكن القفرة.
وقد كنت رغم كل شيء أستأذن الوالدة قبل أن أخلو بنفسي أو أسافر لزيارة أحد الشيوخ أو الصالحين. وكانت تأذن لي دائما لأنها كانت متواطئة معي في إعراضي عن الدنيا وإقبالي على الحق. أما الوالد وإن كان يتفهم ما أنا فيه إلا أنه لم يكن يقبل هذه الخلوات بين القبور والموتى. وكان يود لو يستطيع أن يصدني عن ذلك لأنال الحظوة داخل البلاط. وإن كان أفلح بعض الوقت حيث عينت كاتبا بديوان الإنشاء لدى أحد الأمراء.

وديوان الإنشاء مهمة خطيرة وتكلفة عظيمة. وأصناف الكتاب خمسة: كاتب خط وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير. فالأول هو الخطاط أو المحرر، والثاني هو المترسل. أما كاتب العقد فهو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل. والرابع هو الذي يكتب للقاضي والأخير وهي مهمتي داخل البلاط وهو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته. ويحتاج صاحب هذه الصناعة إلى أن يتمهر في علوم اللسان والعربية حتى يسلم من اللحن الذي هو آفة الكتابة وأحدوثة الرسالة. وأعظم منقبة يجب أن يتحلى بها الكاتب هو أن يكون كاتما للأسرار ناصحا للأبرار عفيفا نزيها سمحا. وللقيام بهذه المهمة كان علي أن أكون عارفا زيادة على ما تقدم بأصول الأموال التي ترد على بيت المال وأقسام وجوهها وأوضاع الأملاك والأراضي والعقارات وما يجوز إقطاعه وما لا يجوز وكذا معرفة وجوه صرف الأموال لمستحقيها مما علم بالشرع أو بالعرف. والأموال إما أن تكون فيئا أو زكاة أو غنيمة. وأقسام هذه الأموال متعددة يطول تعدادها. وخطة الكتابة ليست مهمة إنشائية فحسب بل يسهر الكاتب على تنفيذ كثير من الأحكام وإيصال الحقوق، فليس دوره تشريفيا أي صاحب قلم فقط بل هو إلى جانب كل ذلك يسوس الأمور على قدر ما وكل إليه منها. وبالجملة فالإنسان يجد بعض المتعة في هذه الخطة وإن كان لا يسلم من كيد الكائدين وحسد الحاسدين وتدبير أجناس وأجياش المغرضين الطامعين الذين يسعون بكل ما أوتوا للإجهاز

عليك عند السلطان. فصحبة السلطان كركوب البحر لما في ذلك من الخطر العظيم فأنت لا تأمن ريحا عاتية تأتي على شراع سفينتك فتلقي به بين أمواج البطش وتكسر الصاري فينقسم ظهرك لدى كل ذي حظوة بعدما كان يبدي لك أنواعا من المحبة تبخرت مع كرور أول ريح وانقلاب الأحوال لدى الحكام والأقيال. ومع كل هذه المثالب والحزائز والرهائب فإن للكاتب أياما من دهره ينعم فيها بتلك المجالس الأدبية والعلمية والسياسية الرائقة المثال والعديمة النظير في غيرها من المجالس بحيث تنتهي إلى أصمختك أولى الأخبار وتسقط في آذانك قبائل الأنباء والأسمار. ولهذا وجب أن تكون مشاركا في جميع العلوم ضابطا لأمور التاريخ جماعة لأخبار الملوك والسير والدول، لَسِنًا بالأمثال سيلا دافقا من الحكم والأشعار لأن قلوب الملوك إلى مثل هذه المعارف أميل وأفئدتها إليها تتهد وألسنتها بها تلهج. والكاتب لا يسلم من المهادنة لأنه بحكم تنقيبه واستغراقه في تجنب ما يغضب أميره والتنقيب على ما يبهجه ويفرحه ولو أن ذلك مما تخالف معتقده وهواه، فإنه بذلك ينفق سوقه في هذه الفلاحة البائرة التي تجره إلى الإفلاس لأن للحكم سطوات وللملك شطحات تزري بك وإن قربت وتغري بك وإن أنصفت. والسلطان لا يريد أن يرى منك القفا فإياك أن تدبر عنه فحتى هذا الشبح الذي أنت مؤتمن عليه ليس للحركة فيه أي حرية ولا للوجهة إليه سفر في حاضرة أو برية. وكما أنه لا يلزمك أن تتقدم على السلطان فيرى منك القفا، كذلك ليس لك أن تتأخر عنه فيلوي عنقه إليك بل أنت أنت حيث هو لا أنت. فإياك أن يفتقدك حيث أحب أن يراك.

وذلك ميزان لطيف غاية في اللطافة لأن به توزن الأمزجة وهوى النفوس فمن أجرى الله له ذلك بين جنبيه وأدرجه له إلى ما فوق صدغيه فقد ملك زمام أمره وحاز الفضائل بأكملها وهو من الحكمة أقرب وعلى النبل يغرز وتحسب. ثم إنه إلى جانب هذا عليه أن يهيئ جملة من الأدوات لا غنى له عن معرفتها وحيازة أجلها وأنبلها وأحسنها وعليه بمعرفة أسماءها وإن تعددت فقد تجري غيره ذكرها وهو لا يفطن لذلك فينسب إلى الجهالة التي قد تجره إلى الإقالة وهي مهانة ما بعدها مهانة ونكاية ليس لجبرها إلا منة أو عناية. فمن ذلك الدواة وتسمى النون والرقيم وتجب أن ينخير لها صوانا رائقا وغشاء فائقا كما أن عليه أن يضع على فمها العفص المحكم حتى لا يسيل المداد فيفسد الكتاب فتكون بذلك نهايته. كما أن عليه أن يضع في الدواة ليقة من خالص الحرير بدل الصوف المنفوش لأن القلم قد يأخذ بعض خيوط الصوف فيفسد مقدار الحروف ويشيع المداد مع تلك الخيوط التي تترك آثارها على الكتاب فيعتبر ذلك من عيوب الكتاب. كما أن على الكاتب أن ينخير أجود الحبر وأقنمه بل إن أكابر الكتاب كانت لهم وصفات سرية يضنون بها على غيرهم. وللسفر حبر جاف يذاب في قليل من الماء. أما القلم وهو عمدة هذا الأمر فعليه أن تحسن تقليمه وقطه بمقطة حادة وأن يضبط أطوار ذلك من شق وفتح وقط على حسب الخطوط المطلوبة والرسوم المرغوبة. وأحسن تلك الأنواع القلم الجاوي وله غمد يوضع فيه كالسيف تماما إذ هو سيف الكاتب به يدافع وينافح ويكر ويغير ويصارح ويسارر وتجمل وينصل وتجور ويسامح ويثأر

ويؤثر ويصيب ويخطئ . ويتبارى الكتاب في كتابة المصاحف والحديث والشعر .
وقد كتب أحدهم لأحد السلاطين سورة الإخلاص على حبة رز فغضب السلطان
لذلك لأنه راعى التنزيه فكان نظره إلى تعظيم الحرمات موجها . أما الكاتب فإنه
لم يخل بشيء من الحرمات في ذلك بل كان متمثلا بقول القائل : ولا ذرة في الكون
إلا لها قلب .

أما الكتاب فيكون من جلد أو ورق، فالذي هو من جلد يقال له رق
وقرطاس . ولا بد للكتاب أن يكون مختوما بخاتم أغلبه يكون من الطين .
فهذه جملة من الآلات والأوضاع التي على الكاتب معرفتها . كما أن هناك
اصطلاحات لا بد من فقهها كوضع التاريخ والإبتداء بالبسملة وإدراج البعدية
للشروع في الكلام .

خزانة قاف

ورغم اشتغالي في ديوان الإنشاء فلم يكن همي التسابق إلى المراتب التي تؤدي حتما
إلى انكسار التراتب بل كانت فرصة سانحة وجدتها للدرس والعلم في خزائن
الملوك . وتلك هي النعمة العظمى والمنقبة الحسنى التي استفدتها أيام خدمتي حيث
كنت أرعى في مروج العلوم وغدران الحكمة والفنون وأتفيأ ظلال المعارف

وأركض بين السهل والحزن وأغير على الأوتاد وأفيء إلى كل الشعاب التي تجذبك إليها صحف العلوم وقراطيس الفنون وأسفار الحكمة. وكانت للسلطان خزانة من أعظم خزانات الدنيا. والولوج إليها ليس بالأمر اليسير بل في ذلك من التسعير والتعسير ما يفت من عزائم كل لبيب ويقطع همة كل أريب. وأعجب من الكتب بناء الخزانة نفسه التي هي عبارة عن قلعة محصنة ملحقة بقصر السلطان وعليها برج عال وأمرها عجيب غريب. بناؤها دائري حلزوني على شكل القاف ومركزها هو ذلك البرج الذي يشبه دائرة القاف، فيالها من متاهة عجيبة. وقاعدة الخزانة على شكل مربع وأعلى المربع قبة دائرية وعلى القبة التواءات كما لو أن حية ملتوية على القبة آخذة بفكها على ذنبها. وعلى البناء شرفات لتدخل النور إلى القاعات المختلفة. وقد وضعت مرايا على الشرفات لتستقبل النور فتحيله على السراديب والحجرات المتعددة فلا تحتاج المرء إلى مصابيح ولا أسرجة تنير له طريقه داخل الخزانة كما أن استعمال تلك المصابيح والأسرجة محرم داخل الخزانة مخافة الحريق. فكانت تلك الشرفات بمراياها كافية لإيصال الضوء إلى كل مكان في الخزانة. ولا توجد أدراج في هذه الخزانة بل إن الصعود إلى أعلى مكان فيها يتم عبر طرق عديدة وملتوية فيشكل الكل متاهة لا يسلم منها ولا تخرج عنها إلا الحاذق المتمرس، المتعهد لسراديبها المتعقب لمجاهيلها، المغير على جميع أركانها والفقيه بكل أصقاعها. وتحتاج كل ذلك إلى مرشد ودليل ودربة ودراية يسبقها نقل ورواية عن شيخ الخزانة ومحافظها. وقد بنى السلطان هذه الخزانة الملحقة

بقصره رغم أن إشبيلية لم تكن حاضرة علم كما هو الشأن بالنسبة لقرطبة المعروفة بعلمائها وفقهائها وصوفييها . وقد جرى التفاخر بين الفقيه العالم أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر بشأن قرطبة وإشبيلية. فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية. ولكن لما آثر الموحدون جعل إشبيلية حاضرة ملكهم لهذا الصقع حج إليها العلماء من كل صوب ووفد عليها الفقهاء والنبهاء والحكماء.. وإشبيلية كانت منفتحة دائما على غيرها فقد استمرت في تدريس كتب الغزالي على عكس قرطبة وتولى ذلك الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي فأخذها عنه ابن خير الإشبيلي. وتلك منقبة عظيمة لهذه المدينة رغم أن كتب الغزالي كانت قد منعت في عهد المرابطين وأحرقت وخصوصا كتاب الإحياء.. والقاضي أبو بكر بن العربي مفخرة المغرب وقد عاش مكرما معظما إلى أن تولى خطة القضاء. وقد وافق أن احتاج سور إشبيلية إلى الإصلاح لما أخذه السيل من جهة الوادي الكبير ولم يكن في المدينة مال متوفر ففرض على الناس جلود ضحاياهم في يوم العيد فأحضروها وهم كارهون فثارت عليه العامة ونهبوا داره فخرج إلى قرطبة. وقد حكى لي شيخي أبو عمران الزاهد بعض أبيات قالها وهو في أحد أيام الجمع ينتظر الصلاة فإذا بغلام رومي وضيء قد جاء تخترق الصفوف بشمعة في يده وكتاب، فلم يتمالك أن قال :

وشمعة تحملها شمعــــة   يكاد تخفي نورها نارها

لولا هي نفس لهت غيها لقبلته وأنت عارهـــا

فعقب أبو عمران على البيتين بقوله إنه لم يكن يفعل ولكن أريحية الأدب هزته. وقد أخبرني أبو عمران بهذه الحكاية في بيته حين زرته وكان لا تخرج منه. وقد مضى عليه أكثر من ستين سنة وهو في خلوته. وإشبيلية جامعة لكل النقائض فهي مرتع من مراتع المجان والفساق والمعربدين وهي أيضا روض من رياض الأزهار التي يبسم فيها الصلحاء والعلماء والفضلاء والحكماء. فقد كانت مركز الصوفية وبها كان يتيم أبو الحكم بن برجان إمام المريدين كما كان بها شيخ مشيخة الصوفية أبو عبد الله بن المجاهد. فلما جعل الموحدون إشبيلية قاعدة حكمهم ازدهرت بها المعارف وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أولائك الذين اتخذوا الكتب أثاثا يزينون بها بيوتاتهم. وأمر هؤلاء غريب فإن الواحد منهم يريد أن يستر عورته العلمية بأن يضع هذه الكتب الجميلة والأسفار العظيمة على رفوف خزانته. فما لم يدركه وما لم يكن ليراه من نفسه يراه على جدران بيته. فالخزانة صورة لما عز إدراكه وأجهد نفسه في امتلاكه وهيهات له ذلك إذ الأمر ليس بكثرة المداد بل من قلة الإمداد.

وللخزانة السلطانية بابان الأول لعموم الرواد ويفضي بالداخل منه إلى قاعة المطالعة. أما الثاني فهو باب سري لا يعلمه إلا المشرف الأعلى ويسمى وكيل الخزانة دون أمين المكتبة ويسمى الخازن ومساعده ويسمى المشرف. وعلى الباب الرئيسي ثلاثة أقفال ولفتحه يلزم ثلاثة مفاتيح، كل واحد منها بيد واحد من

هؤلاء الثلاثة. فلا يتيسر فتح الخزانة إلا إذا حضروا مجتمعين. ولم يكن لهم الحق في السفر أو مغادرة المدينة بل سكناهم بجوار الخزانة في البناء المربع الذي هو قاعدة الخزانة. والباب السري لا يدخل منه إلا السلطان وبعض خاصة الخاصة. وقد تمكنت من الدخول منه بحكم عملي في ديوان الإنشاء كأحد الكتاب وربطت علاقات ودية مع الوكيل فاستطعت التعرف عليه. وليس على الباب قفل بل إنه يعمل بشكل آلي على طريقة الحيل الهندسية. فقد كتب على جدران المكتبة آيات قرآنية وأشعار كثيرة في مدح العلم والعلماء. ومن بين هذه الآيات آية استرعت نظري وهي الآية الثامنة والخمسون من البقرة: "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين". فتوقف الوكيل لحظة وأشار إلي أن أنظر خلف الوجهة التي كنا ننظر إليها منبها لي على قراءة بيت شعري كتب هناك، فالتفت وراء. فلما قرأت البيت حولت رأسي صوب الوكيل لكي نستمر في المشي لوجهتنا رأيت فجأة بابا مفتوحا لم يكن في الموضع الذي رأيت فيه الآية المذكورة، فقلت له: إن هذا الباب لم يكن هنا منذ لحظة. فأجابني: طبعا، لأنه باب سري لا تحق لأحد معرفته إلا المشرفون الثلاثة والسلطان وبعض الخاصة. أما طريقة فتحه فلا يعلمها إلا أنا والسلطان. وفي حالة انتقال الأمر إلى وكيل آخر بسبب الوفاة فإني ألقنه طريقة فتح الباب. وهكذا يتم المحافظة على كنوز هذه الخزانة من عبث العابثين. دخلنا من هذا الباب الضيق والذي لا يبلغ ارتفاعه ذراعين بحيث على المرء أن ينحني حتى

يقارب السجود لكي يدخل. ثم لما دخلنا انغلق الباب بكيفية لم أنتبه لها .
فواجهنا سرداب عظيم مستدير مشينا فيه ثم حولنا الوجهة مرة ثانية لسرداب آخر أحسبه موازيا للأول ثم إلى ثالث ورابع وخامس ونحن ننتقل بين السراديب حتى فقدت كل قدرة على تمييز وجهتي وكنا ندخل عبر حجر عديدة أخبرني الوكيل أن عددها في الخزانة خمسون حجرة لكل واحدة بابان واحد للدخول إليها وآخر للخروج منها . وتجب التمييز بينهما حتى لا يتيه في هذا البناء الغريب الذي وضعه شيخ العرفاء أحمد بن باسة وهو الذي عهد إليه ببناء جامع إشبيلية بمنارته. وكان من أمهر العرفاء الذين أنجبهم صقعنا . ولقد أخبرني من أثق به أنه كان تلميذا لأبي الحكم بن برجان وكان مولعا بعلوم الأسرار والحروف. وكان يحفظ كتاب ابن مسرة الجبلي المعروف بكتاب خواص الحروف. وهو كتاب جليل القدر تحدث فيه صاحبه عن الحروف النورانية وأسرارها . وبينما نحن ندخل من حجرة إلى أخرى حتى وصلنا إلى غرفة كبيرة مستديرة كتب على جدرانها خمس آيات ووضع على رأس كل آية وختامها اسمان من الأسماء الحسنى مفتاحها قاف وهي : قوي قادر قدير قائل قريب قدوس قيوم قهار قابض قاهر. فسألت الوكيل عن معنى هذه الآيات وهذه الأسماء. فأخبرني أنه لا يعلم سر ذلك الأمر. فلم أكثر عليه لأنه كان صادقا فيما يقول. كما أن قبة الحجرة كلها منقوشة بآيات قرآنية كثيرة ولكنها أصغر حجما من الآيات الخمس التي على الجدران وهي مكتوبة بالأسود وبعض الحروف بالأحمر والأخضر. وفي هذه القاعة مخطوطات وكتب في الحكمة لا يوجد

لها نظير في مكتبة أخرى جمعت من كل العلوم. ويتوسط القاعة صندوق عجيب غريب رصع بأنواع من الأحجار الكريمة المنعدمة النظير. فسألت الوكيل عنه فأخبرني بأنه تابوت المصحف العثماني الإمام الذي استقدمه عبد المومن من جامع قرطبة إلى مراكش وبني له هذا التابوت الغريب المعمول على الحيل الهندسية. وحين عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف من العدوة للأندلس أحضره معه كما عاينته عن بعد في موكب الخليفة إذ ذاك. وحين يعود الخليفة لمراكش يوضع بدله نسخة منه. ويدخل الضوء لهذه القاعة من بابيها كسائر الغرف فباب للولوج والآخر للخروج وتقوم المرايا بعكس الأضواء من الخارج إلى الداخل عبر السراديب. أما أرض الحجرة فعليها خطوط تحاكي الحية الملتوية على جبل قاف. فبدأت أفهم بعضا من أسرار هذه الخزانة وإن لم أدركها كلها وهندستها بعد. وعقدت العزم أن أعود لزيارتها وحدي المرة القادمة. سألت الوكيل مرة أخرى عن الخطوط التي على أرض الحجرة والتي تتقطع أحيانا وتلتف كرا وفرا. فلم يجبني على ذلك وأومأ بحاجبه إلى أعلى كما لو أنه لا يعلم سرها. وإن كان يظهر أنه لا يريد أن يخبرني بذلك. فبدأت أحدق جيدا في تلك الخطوط التي تفضي إلى قلب دائرة عليها ثقب. وفجأة لمعت في ذهني فكرة كتمتها ولم أخبر بها الوكيل ثم أخرجت حبرا وورقا كما يليق بكل كاتب لكي أنقل بعض ما أقرأ في الأسفار التي أمامي على الرفوف. وانشغل هو عني ثم طلب مني أن أنتظره في القاعة حتى يعود إلي وإلا تهت في متاهتها وهلكت. فسررت لذلك وما أن اختفى عن ناظري حتى بدأت أستنسخ رسم

تلك الخطوط على الورق الذي كان معي كما هو شأن كل كاتب حاذق عارف بأصول مهنته. وكنت بيتت أن أعود إلى هذا الحرم العرفاني لأستكنه أسراره وأقف على أخباره سالكا بين أوديته وشعابه ومتطلعا إلى أعاليه وسوامقه. ولما أنهيت نسخ تخطيط مسار الخزانة كما خنت ذلك لفقته في جيب عباتي وبدأت أفتح بعض الكتب وأخذت منها بعض الفوائد ونقلتها على الورقات التي كانت معي. وفجأة دخل الوكيل فألفاني مكبا على كتاب حشرت فيه أقلام سرية فطويت الكتاب وأقبلت على صاحبي الذي قادني من الباب الثاني للقاعة فطوينا تلك السراديب التي في جنباتها تلك الحجر الخمسون التي ذكرها لي الوكيل والتي ملئت بالأسفار والكتب. وفجأة وجدتني في حجرة المطالعة حيث أكب العلماء وطلاب العلم على كتبهم. وكانت هذه القاعة مفروشة بفاخر السجاد والبسط وعليها أستار. وزينت جنباتها بما يلزم من الأثاث. ووضعت الطنافس في أصقاعها كما رصت طاولات قصيرة الأرجل على أرض القاعة. وعلى كل طاولة ثقب أو أكثر بحيث يستقبل دواة من زجاج أو طين أو معدن. كما حفر رأس الطاولة من الجانب المقابل لما يلي الجالس إلى الطاولة بحيث يستقبل مجموعة من الأقلام المختلفة الأحجام بحسب أغراض الكتابة. كما أن الطاولة مائلة إلى حجر من يجلس إليها. وذكر لي الوكيل أن الأقلام منها ما يقطع من قصب حديقة الخزانة. ومنها ما يجلب من الشرق وخصوصا القلم الجاوي الذي طار ذكره في الآفاق. ومن بين الأقلام قلم يؤخذ من قصب يعمر مائة سنة ثم يموت بعد أن يورق وييبس فيكون

أوان إثماره أوان إعماره. فما أشبهه بطائر العنقاء الذي يولد من رماده. وما أعجب هذا القصب بحيث أنه يورق على شكل مظلة. وهو لا يتأثر بالمكان والزمان بحيث أنه يعمر في كل بقعة وجد فيها. فإعماره على عدد الأسماء الحسنى مع الإسم الأعظم. ولهذا خصص لكتابة الأمور الجليلة فقط كالقرآن والحديث. وهو عزيز الوجود وثمنه غال جدا ويجلب من بلاد الصين كما أنه يموت شجر هذا القصب بموت دابة تعيش عليه وهو حيوان أشبه بالدب رمادي اللون مشرب ببياض إلا أنه حقير الشخص إذا ماقيس بالدب، ثم إنه وديع. وهذا الحيوان يقتات على أوراق شجر هذا القصب، فإذا مات الشجر ماتت الدابة وصنعت بالقصب تلك الأقلام. وبالحجرة كتب وضعت على رفوف يتوسطها رف كبير وضعت عليه مصاحف كبيرة الحجم بمختلف الأحرف والقراءات المتواترة. وبجانب هذه المصاحف كتب الحديث من الصحيح والسنن والأسانيد وغيرها وكتب اللغة واللسان وما يتعلق بعلوم الآلة عموما مما تحتاج إليه رواد القاعة أثناء مطالعتهم. وأثناء تجولنا رأيت بعض الوجوه التي أعرفها فسلمت عليهم بهدوء لأن للخزانة آدابا مرعية فلا يجوز الكلام ولا الحديث في هذه القاعة حتى لا يشوش البعض على القراء. كما لا يجوز الأكل والشرب حفاظا على الكتب من التلف. أما توقيت فتحها فيبدأ مباشرة بعد طلوع الشمس إلى صلاة العصر حيث تبدأ الشمس في الإصفرار فيقل الضوء. مما يعجل بمغادرة الخزانة. أما في الأيام التي تنعدم فيها الشمس بسبب السحب فيسمح بإسراج المصابيح في هذه القاعة. وفي أيام الجمع تعبق أرجاء هذا المكان برائحة

العود والعنبر. وفي هذه القاعة عشر نوافذ دائرية على شكل حرف القاف وملتوية بحيث أن تعريقة القاف تتلوى حتى مركز الدائرة وبين الإلتواءات يدخل النور الذي يضاعف بفعل المرايا الموضوعة على الشرفات فيخال المرء نفسه وكأنه في رابعة النهار من فعل الضوء المنعكس والمركز بداخل القاعة. ثم خرجت والوكيل من القاعة الكبرى من باب غير الباب الذي ولجنا منه فوجدنا أنفسنا في صحن كبير مستطيل الشكل وبجنباته عقود وأقواس على شكل حدوة الفرس. وعدد تلك الأقواس مائة، كل قوس يفضي إلى غرفة صغيرة. وفي وسط الصحن نافورة بديعة الشكل دائرية الرسم حلزونية الإلتواء وفي رأسها أنبوبان للماء. ولا شك أنها كذلك تحكي القاف بتقطنيه. والصهريج الذي يستقبل الماء واسع جدا. وأخبرني الوكيل بأنه جعل على هذه الصفة لغرضين أساسين: أولا للوضوء والطهارة، وثانيا لإطفاء النار إذا ما شب حريق في الخزانة فيكون الماء قريبا. وفي إحدى الغرف وضعت أقباء من خشب صفحت بصفائح من معدن لمسك أجزائها. كما وضعت في بعض هذه الغرف كل لوازم النظافة وما تحتاج إليه الخزانة. أما في سائر الغرف فقد خصصت لأعمال النسخ والتسفير والتجليد والتذهيب والتزويق والتسطير وغير ذلك من مهام الوراقة حيث أن الخزانة تعج بجيش من الحرفيين والصناع وقفوا على الخدمة بها. كما أن هناك أعوانا مكلفين فقط بإحضار الكتب لطالبيها في قاعة المطالعة أو لهؤلاء الصناع والحرفيين حين يراد نسخ كتاب معين أو إنجاز عمل محدد وكلوا به وصرفوا إليه من أحد المشرفين الثلاثة كالترميم والإصلاح وغير ذلك. أما

الإعارة من الخزانة فشبه مستحيلة إلا لكبار رجال الدولة وعلماء المصر. وقادني الوكيل إلى غرفة عمله وكانت أكبر من غيرها فرشت بفاخر البسط والأثاث. وأنواع الحبر وضعت في قناني ملونة فيها الأسود والأخضر والأحمر والأزرق والأصفر والمذهب وغير ذلك. كما وضعت عدة رفوف على الجدران تنوء بأحمالها من الأسفار والكتب فجلسنا على البسط واستندنا إلى الطنافس المنثورة في المجلس. أما مكتبه الذي يكتب إليه فقد صنع من كرائم الأخشاب من آبنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط. وطعم بالعاج والفضة ووضعت عليه بعض الأحجار الكريمة تتوسطها زمردة خضراء. وفوقها رقمت عقيقتان حمراوتان من عقيق اليمن. كما نحت على المكتب آيات قرآنية وأشعار بديعة. أما الدواة فإنها كانت من الذهب الخالص مربعة الشكل. وعلى كل واجهة ثلاثة أقواس يتوسطها واحد أكبر من صاحبيه. وعلى سطح الدواة سبعة ثقوب استقبلت سبع محابر زجاجية ملئت بأنواع من الأحبار المختلفة الألوان. وفي كل واجهة من واجهات الدواة المربعة نقشت آية قرآنية. على الواجهة الأولى البسملة وعلى الثانية نقشت "ولو أنما في البحر من شجرة أقلام". أما الواجهة الثالثة فنقشت بما يلي: "والبحر يمده من بعده سبعة أبحر". وأخيرا الواجهة الأخيرة كملت بهذه الآية: "ما نفدت كلمات الله". ثم وضعت قبة من الذهب المشبك المخلل بقطع من الزجاج الملون. ووضعت مقابض على سطح الدواة لتمسك القبة عند الفتح والإغلاق. وعلى أركان القبة وضع هذان البيتان:

حلفت من يكتب بي   بالواحد الفرد الصمد

أن لا يمد مـــدة   في قطع رزق لأحـد

فكان منظر هذه الدواة عجيبا . فالرائي يظنها قبة السما. فترت عن ثغر الزمان الباسم بالدر والأقاح والنسرين والخيلي والديدي والنرجس. وأعجب من هذا تشخيص الدواة للآية. فهناك أربع وحدات على عدد أركان الدواة. كل وحدة مستقلة ومرتبطة مع أخواتها . فالأولى تبدأ بالبسملة، والواجهة الثانية تتحدث عن الأقلام والشجر وهو داخل في الكتابة. أما الواجهة الثالثة فتخبر عن الأحبار وهي المعبر عنها بالأبحر السبعة، ولهذا جعلت تلك المحابر السبع على سطح الدواة لتستقبل أنواع الأحبار المختلفة. أما الواجهة الأخيرة فهي تشي بأصل الكتابة وأن مصدرها هو الكلام الإلهي الذي لا ينفد. أما الأقواس الإثنا عشر فهي إخبار عن عدد البروج وعدد الشهور "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم". أما هذه الأشهر الحرم فقد رمز لها بالأقواس الوسطى وعددها أربعة وكذلك بأشطر البيتين. كما أن القبة شكلت ناعورة مقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما رمز لها بأحجار كريمة صغيرة الحجم على عدد الحروف العربية. ووضع على رأس القبة درة بيضا كبيرة الحجم وهي ترمز لكوكب القمر الذي يقطع الشهر القمري. ولهذا نقش على تلك الدرة حرف ألف لام: "لا" الذي هو تمام الترتيب الألفبائي المكون من تسعة وعشرين حرفا . والذي يرمز للإنسان الكامل الذي هو المخاطب بالنطق والكلام والكتابة لأنه

صاحب أنفاس. كما أن هذا الحرف برزخ جامع بين الحق والخلق. أما الأحجار الثمان والعشرين فقد قسمت على أربعة أقسام: كل قسم من سبعة أحجار. والغرض من ذلك الإشارة إلى أنواع الحروف من هوائية وترابية ومائية ونارية. وروعي في كل قسم أن يكون لونه على لون هذه العناصر الأربعة. فكان قسم الحروف الهوائية بأحجار حمراء لأن الغالب على الهواء هو الدم. أما الحروف النارية فجعلت من الأحجار الصفراء لأن النار تهيج الصفراء، والحروف الترابية رمز إليها بالأسود لأنها تحرك السوداء. وأخيرا رمز للحروف المائية التي تهيج البلغم بالأبيض الشفاف على لون الماء.

فما أعجب صنع هذه الدواة التي جمعت الحكمة والمعارف في أثواب قشيبة من الرونق والجمال الباهر لأن الأساس في صنعها كان كلام الله الذي لم يزل قائلا متكلما.

التفت إلى الوكيل وقلت له: حقا إن هذه الخزانة يمكن أن تسمى خزانة القرآن أو خزانة قاف. فأجابني بأن اسمها هو كذلك عند الخواص وإن سماها العامة باسم خزانة التوحيد نسبة لعقيدة الموحدين. وكان قصد الخليفة وضع خزانة تجمع علوم الدين والدنيا كلها على أنقاض مكتبة الحكم الثاني في قرطبة والتي كانت تضم أربعمائة ألف كتاب. وأن تكون خزانة قاف هذه مبنية ومنظمة بالقرآن. وبعبارة أخرى، إن خزانة قاف يجب أن تكون الترجمان الحقيقي عن كل العلوم. فخزائن قاف هي خزائن القرآن الكريم والقرآن العظيم والقرآن المجيد. ورغم

تنوع المعارف وتوسع العلوم والمدارك فإن الذي تجمع كل هذا الكم الهائل هو التوحيد. ولما أنهى كلامه قلت له إن الفاطميين أيضا وضعوا مكتبات عظيمة في مصر. فلقد سمعنا عن خزانة كتب أحد وزراء الخليفة الفاطمي المعز بالله والتي كانت تضم أربعين مخزنا ضمت كل أنواع المعارف والعلوم. بل إن مجموع كتب القدماء فقط بلغت في هذه الخزانة ثمانية عشر ألف كتاب. كما أن الخليفة الحكيم أسس دار الحكمة التي أربت على كل خزانة أخرى. ثم سألت صاحبنا، وكان من أصدقاء والدي المرسيين: هل هذا التنافس الشريف في وضع الخزانات بين الفاطميين والموحدين له علاقة بما يقولانه جميعا عن المهدي المنتظر؟ لم يُحر صاحبي جوابا ولم أكن أعلق أملا على ذلك. ثم شكرته على هذه الزيارة بعدما طلب مني أن أعود لزيارته مرة أخرى فوعدته بذلك وإن كنت أزمعت أن أزور الخزانة لوحدي هذه المرة من دون دليل حتى أكتشف أسرارا لم ينقلها لي الوكيل أو لم يكن ليعلمها.

خرجت من هذا المكان البديع الرهيب الذي لا يفصح لك عن إعرابه إلا بعد إعجامه. أو فلنقل إنه أشبه بالحسناء التي لا بد لها من نقاب. فمن أراد اكتناه الأغوار والأسرار فعليه بمصابرة محاجز الأحجار والأسوار. فكل معرفة تتبذل لك بدون حسيب فهي معرفة مبتذلة حقها أن تعرض عنها. بل إن إطلاق المعرفة عليها من قبيل التجويز. فالمعارف وراء بر السلامة حيث يرجف محيط الهلاكة، ولا سبيل إلى الساحل إلا بخوض غمار أمواج هذا البحر المتلاطم الذي قعره نار وماء، إنه البحر المسجور سُجر ببرازخ العلوم والفنون. إذ وراء كل ظاهر باطن، والحق

بين الظاهر والباطن أو لنقل إنه حيث الظاهر في الباطن والباطن في الظاهر. وبعدها تفني معالم شفعهما لتصير حقيقة الأشياء متوحدة واحدة. فلا تنتقل حقيقة الظاهر إلى حقيقة الباطن أو العكس. بل لا راجح ولا مرجوح. إن مرساتك غاصت إلى حيث ذاك البحر المسجور تأخذ بك بكلتا يديها.

قائف القاف

وصلت إلى منزلي والشمس زفت لعسكر الظلام فوجدت الوالدة والوالد وأختي. أحضر الطعام فأكلنا سويا وحدثت والدي عن خزانة قاف التي سمع بغرائبها وإن كان ينفر بحكم طبيعة عمله من مثل هذه الأمور. بل إنه كقائد عسكري مشتغل في أمور الجهاد ضد النصارى ولم يكن له الوقت ليتفرغ لمثل ما أنا عليه. فاجأني والدي هذه الليلة بخصوص هدية يود أن يهديها لي. سررت بنيته تلك وسألت عن نوع الهدية فأخبرني بأنه تملك مؤخرا غلاما من الأحباش أهداه له أحد شيوخ الموحدين مع عبور الخليفة أبي يعقوب إلى الأندلس. رفضت أول الأمر لأنني لم أكن أحب أن أتملك نفسا، فتدخلت والدتي التي كانت تراني بدون خادم ولا زوجة تقوم بأموري. قبلت على مضض وقد بيتت في نيتي عتق هذا الغلام. نادى والدي على خادمنا مسرور فحضر متأبطنا وقد بدأ يهرم وعلا ناظريه شيب الزنوج

فحيانا ثم طلب من الوالد إحضار الفتى الحبشي. ذهب مسرور ثم عاد وبرفقته شاب في مقتبل العمر أسود اللون وأساريره تبدو في ظلام الليل وعلى نور المصابيح الخافت، كدر منثور على خمار أسود أو كأنها درب التبانة في صفحة الليل البهيم. سلم الغلام علينا ثم قال والدي : هذا هو سيدك من الساعة، وأشار إلي. فأجاب الفتى بصوت رخيم : سمعا وطاعة سيدي. سألته عن اسمه وأبيه. فقال : إسمي بدر الحبشي ووالدي هو بلال بن عبد الله الحبشي خادم الشيخ أبي مدين. لما سمعته قال هذا فرحت فرحا عظيما لأنني كنت قد سمعت كثيرا عن الشيخ أبي مدين وكراماته ومواجيده، إلا أنني كتمت أمري مخافة أن يلاحظ والدي ذلك وهو الذي حاول مرارا صدي عن مجالسة هؤلاء الأشياخ الذين ما فتئوا ينصحونني بالعزوف عن الدنيا والإنابة إلى العليا. أمرت بدرا بأن يتخذ غرفة له في الجناح الذي أقيم فيه من دارنا أو بالأحرى، قصرنا لأنها كانت كبيرة. وفيها الكثير من الجواري والخدم الواقفون على خدمتنا. ثم قصدت مكان إقامتي ونمت تلك الليلة وأنا أفكر في خزانة قاف وفي هذا الغلام الذي أهداه لي الوالد. وتلك كانت منة عظيمة لأنني كنت عازما على استيفاء الخبر عنده عن الشيخ أبي مدين.

وفي هذه السنة أي 580 للهجرة، كان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد تحرك من فاس إلى سبتة ثم عبر البحر فحل في جبل الفتح إلى أن وصل إلى إشبيلية في الأيام البيض من شهر صفر. وكان يوم قدومه يوم جمعة فخرج الناس لاستقباله. وقد نزل الخليفة داخل قصر البحيرة التي له بخارج باب قرمونة. وكان المصحف العثماني يتقدم

موكبه ولهذا لما زرت خزانة قاف رأيته هناك. بقي الخليفة في إشبيلية بعض الأيام لأنه كان أزمع غزو مدينة شنترين. وتقاطرت في هذه الأيام عساكر أهل الأندلس من جميع الأقطار والأمصار، وأحضرت آلات الحرب وأتى القائد أبو العباس الصقلي بأجفان غزوانيات وغيرها من معدات الحرب. وبقي الخليفة في إشبيلية تحضر لشؤون الغزوة. وعقد عدة مجالس علمية حضرت فيها مع جملة الكتاب. وكان فيها كبار رجال الدولة والعلماء. وقد جلس الخليفة في وسط المجلس وبقربه أبناؤه. وكان الوالي على إشبيلية هو ولده السيد أبو إسحاق. وكانت أول مرة أرى فيها الخليفة عن قرب لأني رأيته حين عبر الأندلس المرة الأولى وكنت حدثا صغيرا. وكان تجلس بجانب الخليفة أيضا ابنه يعقوب الذي ولدته له زوجته الرومية ساحر. والخليفة معروف بخصاله العالية وعلومه الجمة. فهو يستظهر القرآن عالم بناسخه ومنسوخه، وتبحر في علوم الحديث، ضابط لعقيدة الموحدين الواردة في المرشدة وأعز ما يطلب التي وضعها المهدي بن تومرت. كما أن له حظا وافرا في علوم العربية وعلوم القدماء. فقد استوزر له ابن طفيل الفيلسوف الحكيم والطبيب المعروف والذي قدم له أبا الوليد بن رشد لوضع شروح عن كتب الحكيم اليوناني أرسطوطاليس. والخليفة إضافة إلى هذه الخصال الحميدة رجل شجاع صليب على الأعداء مجاهد بالحق كثير العمارة في كل أنحاء الدولة. فقد بنى بالعدوة في مراكش وتينمل وسلا والرباط وغيرها كما بنى في إشبيلية القنطرة التي وضعت على النهر بدون قبالة من العابرين. وبنى مسجدها

الأعظم وقصورها الفخمة وبدأ ببناء منار الجامع الذي لم يتم بعد. وقد جند لذلك كثيرا من العرفاء. منهم العريف أحمد بن باسة الذي بنى خزانة قاف. وقد كان أبو بكر بن زهر الطبيب والأديب والعالم المشارك من المشرفين على بناء الجامع الأعظم بإشبيلية. والخليفة معروف بعدله وزهده وورعه. ولقد أمنت البلاد في عهده وأنس شاردها وساكنها. ولقد غزا في صقعنا هذا الكفرة بعساكره برا وبحرا وفدى من أسر من رجاله بمال عظيم. وقد شبه الناس أيامه بأيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي كان آية في الجود والكرم والسماحة والبذل للقريب والبعيد، حتى قال وزيره الفيلسوف الطبيب فيه وفي الموحدين:

مساعير في الهيجا مساريع للندى بأيديهم تحمى الهجير ويبرد

تشب لهم ناران للحرب والقرى وتجري لهم سيلان جيش وعسجد

وقد تمثل ابن طفيل في البيت الأول بقول القائل:

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى إذا اغبر آفاق السماء من القرص

وفعلا كان الخليفة سيلا من البسالة والندى. فقد ورث عن أبيه النجدة والنخوة والإباء. وبحكم أنه ولد في قرطبة ونشأ في إشبيلية فقد أثرت فيه حياة الأندلس المترفة الغنية البعيدة عن تقشف المهدي وصرامته. ولهذا كان محبا للعمارة والبناء والفنون والجمال.

دار الحديث في المجلس عن تقدم بناء صومعة المسجد الجامع وعن أمور أخرى. وقد لاطفني الخليفة لأن أخباري وصلته عبر بعض الرسائل التي كنت كتبتها لسلطان

الأندلس ووالي إشبيلية. وأيضا لأن القاضي أبا الوليد أثنى علي لدى الخليفة.
انفض المجلس بعدما أعلم الحاضرون عن عزم الخليفة فتح شنترين. خرجت إلى البيت مسرعا حيث وجدت بدرا برفقة مسرور الذي كان يعلمه آداب الخدمة وأصول الأدب فهو ابن جلدته وليس هناك أفضل منه ليعلمه تلك الآداب. صرفت مسرور ودخلت غرفي وأمرت بدرا أن يتبعني. وما أن أخذت مجلسي حتى بادرته سائلا: كيف حصلت في الأسر؟ فأجابني: لقد أمر الشيخ أبو مدين والدي أن يرسلني مع أمي إلى منازل عرب بني سليم بإفريقية فأذعن والدي للأمر دون أن يسأله عن سبب ذلك. ثم إن والدتي من تلك المنطقة. فخرجت معها إلى إفريقية بين أخوالي وكنا نعاني هناك من تظلمات الأعراب الذين كانوا يغيرون على المدن وينهبون ما بها من سائمة وهائمة. وقد كنت مقيما بقابس مع أهلي حتى هجموا على المدينة ونهبوها وقبضوا على السيد أبي الحسن بن الخليفة عبد المومن. وكان ذلك عام 579 ثم فدي السيد بمال كثير أعطي لعرب بني سليم، فوصل السيد إلى تونس. ولكن الخليفة انبسط حين أطلقوا أسره وأشخص رؤوسهم إلى مراكش برسم القتال. فاقتيد كل رجل صالح لحمل السلاح وهكذا خرجت مع من خرج لا رأي لي في الظعن أو الإرتحال. وكان الشيخ قد دعا لي بمحضر والدي وتنبأ لي بخير كثير. وما أمره لنا بالإرتحال إلى قابس إلا لذلك الأمر لأنه أخبرني أنني سأصل إلى الأندلس وسأجد أصحابه هناك وسيرفقون بي. ولقد علمت من مسرور أنك

ياسيدي من أصحاب الشيخ لأنك تجالس أصحابه كالشيخ الكومي والشيخ السدراتي وغيرهما، فهل هذا صحيح ؟

فأجبته : لا تخف يابدر، نجوت من القوم الظالمين. لقد أوقعك الله في يدي بدعوة الشيخ لك، وما قاله مسرور صحيح، فإني أحب الشيخ وأعتقد في ولايته، وأريد منك أن تخبرني عنه. فلطالما حدثني شيوخي عنه.

فقال بدر : وماذا عسى أن أقول والشيخ قد طار ذكره في الآفاق وعم الملك والملكوت. فمن فتوحاته رضي الله عنه ما وقع من اختلاف طلبة بجاية في حديث:"إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة" فأشكل عليهم ظاهره حيث جوزوا أنه إذا مات مؤمنان استحقا كل الجنة، فما بقي شيء لباقي المؤمنين. فجاؤوا إلى أبي مدين وهو يتكلم على رسالة القشيري، فكاشفهم في الحال بلا سؤال، وقال لهم: المراد أنه يعطى نصف جنته هو، فيكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة" . فصحت فرحا لهذا الجواب القريب العهد من ربه حيث لا تعمل فيه ولا فكرة . ثم قلت لبدر : زدني من أخباره.

فقال : نعم، سأحكي لك حكاية أخرى تدل على رسوخ الرجل وعلمه. ذكر الشيخ أبو مدين أنه كان يأتيه رجل عند الفجر يقال له موسى الطيار ويسأله في مسائل كثيرة . ومرة حضر إليه عند الفجر ومعه رجل ثان فقال له : لقد صلينا الصبح في بغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح فأعدنا معهم، وجلسنا حتى صلينا الظهر. وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم، فقلت

لا، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له : كذلك كان يفعل شيخي وبه أمرنا، فاختلفنا وأتينا نسألك عن الجواب، فقال أبو مدين : فقلت لهما : أما إعادة الصبح بمكة فلأن بها عين اليقين، وببغداد علم اليقين. وعين اليقين أولى من علم اليقين. وصلاتكم الظهر بمكة وهي أم القرى، فلذلك لا تعاد في غيرها، فقنعا بالجواب وانصرفا.

أخبرني أيضا عن حكاية ذلك المنكر الذي حضر مجلسه. فلقد سمعت الشيخ الكومي تحكيها ولم أسمع كل ما قاله.

نعم، صدقت يا سيدي، فقد كان الشيخ أبو مدين يشرح أحد الكتب ثم التفت إلى رجل دخل عليه فقال له : لم جئت ؟ فقال الرجل : لأقتبس من نورك، ولم يكن جاء إلا ليعترض عليه. فقال له أبو مدين : ما الذي في كمك ؟ فقال له : مصحف. فقال : افتحه واقرأ أول سطر تخرج لك، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه "الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين". فقال له الشيخ أبو مدين شعيب : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله.

وكان كثيرا ما يردد في مجلسه مطلع قصيدته التي يقول فيها :

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته   عدم على التفصيل والإجمال

هذه بعض من أخباره وكراماته ومواجيده يا سيدي. وبجيئي إليك كرامة أخرى من كراماته. فقد سمعته يذكر أن في بلاد الأندلس الآن فتى سيكون له شأن عظيم.

ولاشك عندي يا سيدي أنك ذلك الفتى. فلقد تسامع الناس بخبرك وبما جرى لك مع أبي الوليد بن رشد. وإنني أعاهدك على أن أخدمك كما خدمت والدي الشيخ أبا مدين.

فقلت: نسأل الله أن نكون عند حسن ظن الشيخ. ولقد رأيته مناما وأخبرني أننا لن نلتقي في عالم الأشباح وإن كنا نلتقي في عالم الأرواح. فالحمد لله الذي أتى بك من عند الشيخ أبي مدين. وستكون صاحبي لا خادمي في هذه الطريق. وسيكون لك أنت أيضا شأن عظيم. فالزم واكتم عني وعاهدني على الوفا. . ولقد أعتقتك من الآن وأنت مخير في ملازمتي أو الرحيل إلى حيث تريد .

بل أختار ملازمتك ومصاحبتك، فهذه يدي أبايعك على الوفا. والطاعة لك ما أطعت الله ورسوله.

فقلت وقد وجدت فيه الأخ والصديق والتلميذ: ستأتي معي الليلة لنزور خزانة القصر، فلا تخبر أحدا، فإني أريد فك إعجامها وحل إشكالها. فقد زرتها مؤخرا وحيرني عمرانها ونظامها، وظهر لي أن ما تخفيه أكثر مما تبديه. وذلك شأن كل أمر جليل. فلا بد للحسناء من نقاب وللشمس من سحاب. ولا تنس أن تحمل معك قرطاسا وحبرا وقلما وسراجا.

نعم سيدي، سرك في بئر شطون. وصدور الأحرار قبور الأسرار.

تعشينا تلك الليلة عشاء خفيفا وخرجت وبدر يعقبني حتى وصلنا إلى القصر ودخلنا إلى حيث مقر عملي في ديوان الإنشاء. فرأيت بعضا من أترابي ما زال مشتغلا بتحرير بعض الرسائل التي طلبها الخليفة. ثم قطعنا صحنا تتوسطه نافورة من سباع. وكانت تلك عادة قد استحكمت في الأندلس. فكل أمير لا بد وأن يتنافس في تجميل صحن بيته بإحدى تلك النوافير التي كان يصنعها صناع من الأعلاج. ثم دخلنا في سرداب حتى وصلنا إلى حيث الباب الرئيس للخزانة. وكانت قد أغلقت فأكملنا طريقنا حتى وصلنا إلى حيث موضع الباب السري الذي كنت قد دخلت منه أول مرة مع الوكيل. التفت أماما وخلفا حتى لا يرانا أحد. ثم رفعت رأسي حيث تلك الآية 58 من سورة البقرة "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين". فقلت لبدر: هذه الآية هي مفتاح هذا الباب وعلي أن أجد هذا المفتاح. فترتيب الآية هو 58 وهو يزيد على العدد 57 الذي هو نصف سور القرآن بواحد فقط. وذلك الواحد ربما يشير إلى مفتاح النصف الثاني الباطن لأن مفتاح النصف الأول يرمز للباب الرئيس. وهذا الباب سري. والخزانة خزانة القرآن وهي المعبر عنها بالقرية. كما أن هذه الآية من سورة البقرة وهي أول سورة إذا ما أغفلنا الفاتحة. والبقرة سنام

القرآن. والسنام جبل الجمل، فأشبهت هذه السورة الجبل، أي جبل القرآن الذي أريد أن أدخل إليه من بابه الباطن كما دخلت من بابه الظاهر. اقتربت من الجدار وأمرت بدرا أن يوقد السراج ففعل ثم أخذته منه وأدنيته من الآية فرأيت شعاعا تخرج من نقطتي كلمة "الباب" التي في الآية. وكانت النقطتان عبارة عن زمردتين صغيرتين. وضعت أصبعي عليهما لأتحسسهما. وفي تلك الأثناء سمعت وقع أقدام آتية من السرداب ففزعت وأثناء فزعي قمت بحركة مفاجئة. فبدل أن أخرج أصبعي من الثقبين المعدنين لنقطتي كلمة "الباب" قمت بالعكس تماما حيث دفعت بهما فانفتح الباب فجأة ودخلت مسرعا وأمرت بدرا أن يتبعني. ثم التفت إلى موضع الزمردتين من الجهة الداخلية فرأيت ذراعا عليه سراج فأدرته فانغلق الباب بسرعة. وأحسسنا بنسيم غريب يتجول داخل الخزانة تحمل عرف العود والعنبر. وكان المكان مرعبا وصامتا وخيل إلينا أننا لسنا لوحدنا في الخزانة. فالأرواح منتشرة في أرجائها حتى إننا نكاد نرى أطيافها. أخرجت من ثيابي القرطاس الذي كنت نقلت منه التخطيط المرسوم في حجرة الخزانة الكبرى حين زرته لأول مرة مع الوكيل. ثم قلت لبدر: ربما يكون هذا التخطيط هو السبيل للوصول إلى قلب الخزانة والخروج منها، فاحذر أن تمسه النار.

نعم سيدي، سأكون حذرا متيقظا ولن أضع رجلي إلا حيث نقلت أنت رجلك.

حسن، فعلينا أن نراقب كل شيء. لأن كل آية أو صورة أو نحت له أهميته في هذا المكان. انظر إلى هذه الآية مثلا "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا يوم

خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم". وانظر إلى هذا الرسم الغريب، إنه يشبه رسم خروف وانظر كذلك إلى ذلك العدد المكتوب فوقه، إنه 12000 .

سأكتب هذا على التخطيط، فانطلاقتنا كانت عند الحمل الذي له العدد 12000 .

وانظر هناك، إنني أرى لحنا كتب عليه "قريب". وهذا الباب لم يكن حينما زرت الخزانة مع الوكيل. أو لربما كان ولم ألاحظه لأنني كنت مشغولا بإقتنائه بدل أن أعاين كل التفاصيل. إن الأمر أكثر صعوبة مما كنت أظن، فكيف نفتح هذا الباب ؟

حاولنا كل الطرق لفتح الباب لكنه لم ينفتح. وفجأة لمعت في ذهني فكرة, فقلت لبدر : إن عدد الإسم "قدير" بحساب الجمل هو 314. وكان على الباب قفل غريب على صفحته أسطوانات مرتفعة تدور حول محور داخلي. وكان عدد الأسطوانات ثلاثة. فأدرت الأسطوانة الأولى ثلاث مرات ثم الأسطوانة الثانية مرة واحدة والأسطوانة الثالثة أربع مرات ففوجئنا بلسان القفل يرتفع عن مكانه وينفتح فينفتح له الباب. فرحنا بذلك أشد الفرح. ثم سألني بدر : كيف صنعت ياسيدي ؟

فقلت له : إن هذا الباب مرصود على الإسم الذي رأيناه منحوتا وعدده 314 . وأنت ترى هذه الأسطوانات الثلاث، الأولى للمئات، والثانية للعشرات، والثالثة للوحدات. فما كان علي إلا أن أدير الأسطوانات بعدد كل مجموعة : ثلاث مرات للمئات ومرة للعشرات وأربع مرات للوحدات.

فصاح بدر : إنه الفتح ياسيدي حقيقة ومجازا . يالها من خزانة عجيبة حراسها الأسماء الإلهية .

دخلنا من ذلك الباب ومشينا في سرداب عجيب لا أدري كم مرة قطعناه ذهابا وإيابا حتى وصلنا إلى باب آخر ولمحنا رسما ثانيا لثور ثم رأينا عددا آخر هو 11000 على مقربة منهما تحت مكتوب عليه الإسم "قدوس". وضعت هذه المعلومات على القرطاس وتركت بدرا يفتح الباب بعدما أخبرته بعدد "قدوس" أي 410. حينما أدار الأسطوانتين الأولتين توقف متسائلا: وكيف أفعل الآن؟ لا تفعل شيئا، فالقفل قد فتح لأن مجموعة الوحدات فارغة. فتح الباب ودخلنا. ثم مشينا في سرداب مماثل للأول حتى وصلنا إلى الباب الثالث وعليه رسم الجوزاء مع العدد 10000. والباب مرصود بالإسم "قيوم". وكان عدده 146، فصنع بدر نفس ما قام به حتى فتح الباب. وهكذا كنا ننتقل من باب لسرداب فباب ثم سرداب، وهكذا دواليك. مررنا بعد ذلك بالإسم "قائم، قريب، قادر، قهار، قاهر، قوي، قديم، قابض". وحين وصلنا إلى الباب الأخير، وجدنا على الباب ثلاثة أقفال، فسقط في يدي بدر الذي كان قد اعتاد فتح الأبواب وصار الأمر يمتعه. فلما لقينه هذه الصعوبة أيس من الحيلة رغم أنه أدار الأقفال على عدد الإسم "قائل" أي 132 فلم تنفتح له. ولم أكن أعلم طريقة فك هذا الرصد الجديد. فما معنى هذه الأقفال الثلاثة؟ وإن كنت أتوقع أن ينعقد الأمر كلما قربنا من قلب الخزانة. أمرت بدرا أن يدني السراج من الجدار حتى نرى ما تحت أو كتب عليه. وكما توقعت فقد رأينا اسم الجلالة "الله" عن اليمين وعن الشمال وبينهما اسم "محمد" في الوسط. فقلت لبدر: أبشر يا أبا البيضاء، فالأقفال الثلاثة مرصودة بهذه الأسماء الثلاثة.

وسوف نتحقق من صحة ما أقول. انظر فاسم الجلالة عدده 66. وها أنت ترى أن على القفل الأول أسطوانتين فقط. فأدرت الأسطوانتين بعددها فانفتح القفل الأول. ثم انتقلت إلى القفل الثاني وكانت عليه ثلاث أسطوانات لأن عدد "محمد" هو 132 على عدد "قائل" الذي حاوله بدر في محاولاته. فأدرت الأسطوانات بالعدد المذكور فانفتح القفل الثاني. ثم أمرت بدرا أن يكمل "الفتح المشترك" على عدد الإسم الثالث "الله" أي 66 فانفتح له القفل. ثم دخلنا ولاحظت أن أرضية السرداب اللولبية تتصاعد شيئا فشيئا. وأظن أننا قمنا بدورة كاملة حتى وصلنا إلى باب كتبت عليه هذه الآية "وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور". وهنا حرت في الأمر لأن الباب عليه قفل هو الآخر وليس هناك مفتاح إسمي كما مضى معنا في السراديب اللولبية السابقة. ويمكننا استخراج مجموعة من الأسماء من الآية. وهكذا حاولت مع الحي والمحيي والمميت والمستوي، فلم أفلح حتى حاولت مع الإسم "سميع" فانفتح القفل على عدده. ثم انتقلنا إلى سرداب لولبي آخر وما زلنا نرتفع حتى وصلنا إلى الباب الثاني في هذه المسارات اللولبية المغايرة. وكان مكتوبا على الباب هذه الآية " إن الله بما تعملون بصير". فأمرت بدرا أن يفتح القفل المرصود بالإسم "بصير". وأخذت أفهم ألغاز هذه الصعوبة الجديدة. ثم أكملنا صعودنا عبر مجموعة من الأبواب مرصودة بمجموعة من الأسماء المأخوذة من الآيات التي تحيل عليها وهي على التوالي: المتكلم والقادر والمريد والعليم والحي. فمجموعها سبعة أسماء إضافة إلى الأسماء الإثنا عشر

السابقة. وخلال رحلتنا هذه كنت أقيد على القرطاس جميع مراحل هذا السفر الأفقي والعمودي. وأخيرا وصلنا إلى القاعة الكبيرة وكانت تشع بنور أخضر عظيم. فألفيت الآيات الخمس التي كنت لاحظتها حين زرت لأول مرة الخزانة مع الوكيل. والآية الأولى هي من سورة البقرة وهي "بسم الله الرحمن الرحيم. ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا النبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين". والآية محفوفة بالإسمين "قوي وقادر". أما الآية الثانية فمن سورة آل عمران وهي "لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق". وهي محصورة بالإسمين "قديس وقائل". والآية الثالثة من سورة النساء وهي "ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا" وهي محاطة بالإسمين "قريب وقدوس". أما الآية الرابعة فمن سورة المائدة وهي "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين" وكسائر الآيات فهي مسورة بالإسمين "قيوم وقهار". والآيات الأربع سرد أي متتابعة أما الآية الخامسة فهي

فرد لأنها من سورة الرعد وهي "قل من رب السماوات والأرض قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركا. خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء. وهو الواحد القهار" وهي مسيجة بالإسمين "قابض وقاهر".

سألني بدر قائلا : ما معنى هذه الايات ياسيدي وما سر هذا النور الأخضر الشفاف الذي يظهر من بعض كلماتها ؟

فأجبته قائلا : ذلك ما أود معرفته يا بدر. انظر إلى الايات الأخرى المكتوبة على قبة القاعة، وهي بخط أصغر من خط الايات الخمس. إنني أكاد أرى بسملة هناك: قرب السراج أكثر حتى نرى أحسن. ماذا بعد البسملة ؟ إنـ ـه حرف (ق). إنها سورة ق إذن. ثم انظر هنا أيضا، ها هي بسملة أخرى. إنها تبتدئ بـ ـ ـ بـ ـ بـ ـ بـ بـ ب "حم عسق". ألا تلاحظ يا بدر أن الضوء الأخضر يأتي من بعض الحروف وأكاد أقول إنه حرف القاف، بل إنه كذلك. لقد قال لي الوكيل إن لهذه الخزانة خمسين قاعة لحفظ الكتب. فما السر في ذلك. لا بد وأن لهذا العدد علاقة مخصوصة لهذه الايات بل لهذه القافات المكتوبة بالأخضر مغايرة بذلك شكل الحروف الأخرى. فلنعد عدد القافات في الايات الخمس. اقتسمنا المهمة فيما بيننا حيث بدأت بعد حروف آية البقرة وآل عمران والنساء. وأمرت بدرا أن يعد قافات آية المائدة وآية الرعد. ولشد ما كانت المفاجأة لأن

عدد القافات في كل آية هو عشرة . فالمجموع في الآيات الخمس 50 خمسون قافا .
فالسر في عدد القاعات الخمسين هو من سر هذه القافات. كل حرف أو قاف بقاعة. إنها حقا خزانة قاف.

يا سيدي، إنك حقا من أولياء الله، فكيف اهتديت إلى هذه الأسرار وهي من الخفاء بحيث لا يعلمها إلا واضعها، ويظهر أنه كان راسخ القدم في علوم السر ؟

يا بني، لقد فتح علي بكثير من الأسرار والأنوار خلال الخلوات التي قضيتها بين القبور. ولقد رأيتني أدخل هذه الخزانة أو هذا الجبل خلال تلك الخلوات قبل أن يتحقق ذلك فعلا . لقد كنت جاهلا قبلها فخرجت عالما أرشح بالمعارف والعلوم. وأعتقد جازما أن السورتين ستفصحان لنا عن أسرار أخرى. فقم أنت بعد قافات سورة حم عسق وأنا سأعد سورة قاف.

بعد مدة من ذلك أنهيت العد وكنت أنتظر أن ينهي بدوره عده. فعاجلته بالسؤال :
كم عددها ؟

إنها سبع وخمسون 57 قافا

وأنا كذلك وجدت سبعا وخمسين قافا 57 . يا الله يا الله سبحانك ما أعظم شانك.

ما لك يا سيدي تسبح هكذا ؟

يا ولدي، إن عدد القافات في السورتين هو 114 مائة وأربعة عشر أي على عدد سور القرآن. وهذا دليل آخر على أن هذه الخزانة خزانة القرآن. فانظر إلى هذا التابوت الموضوع في وسطها . إنه تابوت المصحف العثماني الإمام وانظر إلى

هـذه الأحجار الكريمة والأصونة العجيبة. انتبه معي، ثم أدرت مفتاح التابوت فأزيحت الدفتان من تلقائهما وظهر محمل ثم بعده كرسي وضع عليه المصحف وهو في أصونة من الذهب والفضة وزين بالأحجار الكريمة النفيسة وعليه زمردة خضراء شديدة الشفافية على شكل حافر ففتحت المصحف ووقع بصري أول ما وقع على سورة قاف. تهللت أساريري وابتسم قلبي قبل أن تفتر شفتاي بالحمد وأحسست كأن كل جارحة في قاف يلهج بالثناء ويسبح الخالق بل أعجب من ذلك أنني رأيتني قافا أخضرا. ارتاع بدر مما رأى فلم ينبس بشيء حتى زال عني الوارد فطيبت خاطره وقلت له: الحمد لله الذي جعلنا من أهل القرآن الذين هم خاصته وعباده المقربون ثم قرأت مرتلا: "بسم الله الرحمن الرحيم ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ..." وبقيت أرتل حتى أتممت السورة.

بعدما أنهيت قراءة السورة التفتُ إلى بدر قائلا: يا بني لقد دخلنا هذه الخزانة وأول اسم صادفناه هو "قدير". وكما قلت لك فعدده ثلثمائة وأربعة عشر على عدد الكمل من الرسل. ولهذا كان ورثتهم في الأمة المحمدية نفس العدد وهم أصحاب بدر وأصحاب طالوت في قصة نهر الحياة الذي شرب منه الخضر، وكانوا 314. أما آخر الأسماء في السراديب اللولبية فكان "الله" مرتين و"محمد" مرة واحدة. فعدد "الله" مرتين 66 + 66 = 132 هو نفس عدد "محمد" أي 132 "إن

الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم". فانظر إلى الآية كيف كررت اسم الجلالة مرتين، والكاف يرمز إلى الإنسان الكامل "محمد" صلى الله عليه وسلم. ثم إن عدد "محمد" التفصيلي هو 314 على عدد الرسل لأن ما اجتمع فيه تفرق في غيره، كما أنه عدد "الإنسان الكامل" . فهو نسخة الكمال بل عين الكمال. ولا يمكن للإنسان أن يسلك إلى رب العزة إلا على يديه، فافهم. هذا هو الإسرا. ولهذا كانت طريقنا في تلك السراديب منبسطة. فلما بدأنا الصعود أخذنا في العروج، فعرجنا عبر السماوات السبع والأسماء الحاكمة عليها حتى وصلنا إلى القاعة الكبرى وهي كناية عن سدرة المنتهى. ولاحظ معي أن الأسماء الإثنا عشر مع الأسماء السبعة الأمهات تشكل مجموعا يصل إلى تسعة عشر 19 وهو عدد حروف البسملة لأن كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر وأقطع وأجذم. وأيضا لأن هذه الخزانة هي خزانة القرآن ولا يقرأ القرآن إلا بالبسملة. ثم انظر إلى شكل تلك الزمردة العظيمة في سقف القاعة إنها تشبه شكل الجبل هكذا: 8 وانظر إلى ظلها في أرض الحجرة إنه هكذا : 7 فإذا وضعنها جنبا إلى جنب كانا هكذا : أي ثمانية وسبعون 78 . وهذا العدد له أسرار عظيمة منها أنه عدد فواتح السور القرآنية النورانية وعدد شعب الإيمان وعدد مدارج جنات الأعمال وعدد مراتب البروج الإثني عشر التي رأينا أعدادها في السراديب ابتداء من رسم الحروف الذي يشير إلى برج الحمل ودورته 12000 متبوعا ببرج الثور ودورته 11000 وهكذا بالتنازل حتى برج الحوت ودورته 1000 . فمجموع هذه

الدورات هو 78000 وهو يوم من أيام الدهر. كما أن هذا العدد 78 إذا أضفت له مرآته أي 87 صار المجموع 165 وهو عدد لا إله إلا الله. وأسرار هذه الأعداد فوق هذا الذي نشرناه بعدما كان مطويا. بل إن ماذكرناه ليس إلا نقطة من بحر لا ساحل له.

لقد ضاق صدري عن حمل هذه الحقائق يا سيدي، وإني أحمد الله على أن تحققت فيّ دعوة الشيخ أبي مدين. فما على وجه الأرض من بلغ هذا المقام الشريف.

اللهم اجعلني عند حسن ظن الناس بي. ثم قلت لبدر: إن هذه الخطوط المنحوتة على أرض الحجرة هي التي قادتني إلى هذه الأسرار، فانظر كيف أن الأرض مفتاح للسماء.. إن الأرض برة يطأها البر والفاجر، فمن عرف أرضه وعمرها بالفلاحة الطيبة أثمرت له في سماء المعارف والعلوم. إن هذه الخطوط عبارة عن الحية التي تكلم عنها الحكماء والتي تطوق جبل قاف الذي وصلناه بحمد الله. إنه جبل ليس من صخر أو تراب بل من زمرد أخضر. والحية رمز للحياة ولهذا كان آخر اسم دخلنا منه للقاعة الكبرى هو اسمه "الحي". فافهم يا ولدي، فقد كشفت لك عن أسرار ما باح بها قبلي أحد. إن جبل قاف لا يصله إلا الصالحون العارفون المقربون. ولا تظن أنه فعلا محيط بالأرض. فالأمر وراء ذلك إنه جبل غيبي لا يرى بالعين المجردة. إنه عبارة عن الحجاب الذي يفصل الحس والمعنى والغيب عن الشهادة والملك عن الملكوت. فلا يصل إليه إلا من اخترق الحجاب ولا يصل لذلك إلا الأولياء.. وبعبارة أخرى إنه رمز للقلب المحمدي ولهذا كان عدد "قلب" على

عدد "محمد" 132 الذي مر بنا في الأقفال الثلاثة. وجملة القول، إن الذي يصل إلى جبل قاف هو المتحقق بمرتبة القطبية العرشية، ولهذا تفصيل آخر تحرم إفشاؤه. . .

منازل القاف

ثم بدأت أتصفح الكتب الموضوعة على الرفوف. أما نظام وضعها فكان تابعا لعدد القافات المذكورة في سورة ق والشورى أي 114 . وكل حجرة من الحجرات كانت هي الأخرى موزعة على 114 مدخلا كل مدخل تحته علم من العلوم. وكل علم تحته علوم فرعية بعدد آيات كل سورة. فمثلا بالنسبة لعلوم سورة البقرة عددها هو 286؛ أما سورة الناس فعدد علومها ستة بعدد آياتها . وهذا النظام بديع في غاية الإبداع. ثم سألني بدر عن سر الأسماء المحيطة بالآيات الخمس، فقلت له: إنها طلسم وضع على الخزانة لحمايتها. فلو استولى الكفار على المدينة مثلا فسيقع خراب الخزانة دون أن يصلوا إلى كتبها فلا يقع كتاب الله بأيديهم. إن للقاف حفظا مزدوجا لأنه عبارة عن دائرة مكتملة ° ونصف الدائرة ن وهو شكل النون الذي عدده خمسون 50 . ولم يظهر في النون إلا عالم الشهادة. أما عالم الغيب وهو كمال الدائرة فقد ظهر في القاف، ولهذا كان عدد القاف مائة أي نونين. ومن

المعلوم أن الخمسة هي للحفظ ولهذا كانت أركان الإسلام خمسة، والصلوات خمس لأن لها تحفظ الوجود.

والآن اتركني أطالع بعض هذه الكتب، واشتغل أنت أيضا بمطالعة بعضها. ثم فتحت كتابا وأخذت أنظر فيه فغبت عن حسي ورأيت الخضر وقد ارتدى حلة خضراء ولحيته بيضاء كأنها الدر وعلى رأسه عمامة من الأخضر الفاتح، فسلم علي وبادرت إلى رد السلام عليه. وقال لي: وأخيرا وصلت إلينا يا محمد، كنت أنتظرك منذ مدة طويلة ولكنك تخلفت عنا وانشغلت. هذا هو جبلي الذي أقيم عليه وتلك هي حيتي التي روضتها حتى إن ذنبها معقود على فمها. فلا تصيب أحدا بسوء وصل إلى هنا. اسمع يا محمد، سيكون لك شأن عظيم فجل في هذا الجبل وهذه الخزانة وكن كما هي بحرا مملوءا بالعلوم والأسرار. تحقق بما فيها واحملها في صدرك لا في أوقارك تكن قرآنا يمشي على وجه الأرض كما هو شأن أخي أكمل الكمل محمد صلى الله عليه وسلم. ثم ألبسني الخرقة وتركني واختفى وشعرت ببدر يناديني: يا معلم، انظر إلى هذا السفر إنه مكتوب بلسان غريب. وهذه الخطوط والجداول إنها فريدة.

نعم، هي كذلك ولكن لا تشغل نفسك بذلك. إنه كتاب تصاريف. وانظر إلى هذه الكتب، إنها لجابر بن حيان المعروف بالصوفي وقد عده الشيعة من كبارهم وأنه أحد الأبواب. وقد صاحب الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه. وقضى حياته في التنقل مخافة أن يبطش به السلطان لأنه حاز الرياسة في كثير من العلوم وكان يدبر

الإكسير بالكوفة لصحة هوائها . ولما أصيب الأزج أي ذلك البناء المستطيل المقوس الذي وجد فيه هاون ذهب فيه نحو مائتي رطل، ذكروا أنه دار أبو عبد الله جابر. انظر إلى هذا الكتاب إنه كتاب الحدود وهذا كتاب الأحجار وهذا الثالث كتاب الخواص الكبير. أما هذا الرابع فهو كتاب السر المكنون. بل إن كتبه التي نعرفها هنا ككتاب التدابير الرائية وكتاب الماجد وكتاب الحكمة المصونة وكتاب الحق الأعظم. وعددنا تلك الكتب فوجدناها تقارب المائتين. وكما ترى فقد كتب في الحيوان والنبات والأحجار والأملاح والمعادن والإلهيات والصنعة والطب وآلات الحرب والحيل والفلسفة والمنطق وألف في المرايا . وله شرح على المجسطي، كما ألف في الزهد والمواعظ والعزائم. فتحت أحد هذه الكتب فواجهتنا هذه الكلمات :" اعلم أن انقسام البروج الإثني عشر برجا على الطبائع كانقسام الأفلاك سواء، أعني أربعة أقسام إلا أنها على مراتب ثلاث. وذلك أن الحمل والأسد والقوس بروج نارية حارة يابسة... والثور والسنبلة والجدي أرضية باردة يابسة ... والجوزاء والميزان والدلو هوائية حارة رطبة... والسرطان والعقرب والحوت مثل ذلك" . إن الإحساسات المختلفة التي أحسسنا بها في السراديب الملتوية خاضعة لطبائع البروج التي مررنا منها ولهذا كنت تتأذى مرة من الحرارة وأخرى من البرودة . وما ذلك إلا بسبب طبائع كل برج. وعلى الجملة فإن جابر تكلم في العلوم السباعية وهي :1 . علم الطب وحقيقة ما فيه. 2 . وعلم الصنعة وإخراج ما فيها . 3 . وعلم الخواص وما فيها . 4 . والعلم الأكبر أي علم الطلسمات. 5 . والعلم

العظيم الكبير الذي ليس في العلوم كلها مثله ولا أعز منه ولا هو مفهوم ولا معقول ولا ألف فيه شيء من الكتب وهو علم استخدام الكواكب العلوية وما فيه وكيف هو. 6. وعلم الطبيعة كله وهو علم الميزان. 7. وعلم الصور وهو عالم التكوين وإخراج ما فيه.

هذه هي أمهات العلوم عنده. ولتعلم يا بني أن كل ما ذكره لا شيء في جانب العلم الشريف أي علم الحروف وأسرارها والذي لا يعلمه إلا أكابر هذه الأمة وأصوله كلها قرآنية. فلا يصل القطب إلى مرتبة القطبية أو الفرد إلى مرتبته حتى يعلما أسرار هذه الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن. أما من قال إن ذلك غيب لا مجال لعلمه، فالحق أنه تخبر عن جهله هو وعن مرتبته. والله سبحانه ما حجر علينا هذا بل إن رسوله الكريم ما طلب الزيادة إلا في العلم "وقل رب زدني علما". فعليك بالعلم يا ولدي، فإن الله لا يعبد بالجهل.

وماذا يقول جابر عن الطلسمات يا معلم؟

إن هذا العلم قائم على المماثلة والمقابلة وذلك أمر يطول شرحه. والطلسمات إما استجلاب واستكثار كاستجلاب العقارب والحيات والضفادع والسمك والناس والوحوش. وإما نفي وإبعاد مثل طرد هذه عن المدن والأماكن. وهذه الطلسمات تتبع شيئين وهما: طباع الأدوية والعقاقير، وطباع حركات النجوم وطباع مواضعها لا غير.

لم أفهم شيئا يا سيدي، ولكن لا بأس، أخبرني عن أصل التسمية، لماذا سمي بالطلسم؟

لقد روي عن جابر أن شيخه الإمام جعفر الصادق سأله عن ذلك وتركه يفكر سنة في سؤاله فلم يهتد لجواب، فأمره أن يقلبه، فإذا معناه مسلط لأنه كذلك من جهة الغلبة والتسليط. وسأفصح لك أكثر. فإذا أردت مثلا أن تستجلب الأسد إلى مدينة من المدن أو السمك إلى ماء من المياه. وهذان المثالان هما نقيضان في الطبع إلا أنه تجمعهما المماثلة. فليكن الرصد إلى برج حار يابس كبرج الحمل أو الأسد أو القوس. ويكون في أحد هذه الأبراج نجم حار يابس كالشمس أو المريخ أو الزهرة أو عطارد. والشمس أقواها. أما بالنسبة للسمك فيجب أن يكون البرج باردا رطبا كالقمر. أما الأدوية فلتكن من أحد الأجناس الثلاثة أي الحيوان أو النبات أو الحجر. وأفضلها الحجر لأنه يدوم على عكس الحيوان والنبات اللذان تجفان فيبطل العمل بهما. كل هذا في المماثلة. أما المقابلة فعلى العكس لأنها نفي وإبعاد. وهو أن يكون العمل في الحار بالبارد وهكذا. فإذا أردت طرد العقارب والأفاعي من موضع من المواضع. فالعقارب باردة. فيجب أن يكون البرج في البارد حارا والكوكب حارا والحجر حارا. وفي الحار البرج باردا والكوكب باردا والحجر باردا. هذا هو ما يمكن قوله في الطلسمات وقد سقته لك لأننا صادفنا الطلسم المعمول بالأسماء الإلهية. وعموما فإن الإشتغال بهذه الأمور مضيعة للوقت. وعالي الهمة يصرفها في معرفة الحق لا في الكثرة الكونية.

وغير بعيد عن كتب جابر كتب أخرى لابن وحشية. وكان من النبط. وهو من كبار السحرة ومن كتبه المعروضة هنا كتاب طرد الشياطين وكتاب السحر الكبير وكتاب مذهب الكلدانيين في الأصنام وكتاب أسرار الكواكب وكتاب الفلاحة وغيرها. وغير بعيد كتب منسوبة لهرمس رأس هذه العلوم وهو أول من تكلم عن علم الصنعة. وقد انتقل من بابل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل كما يزعم. ويقال إنه ملك مصر وكان حكيما. وقد اختلف في أمره فقيل إنه كان أحد السدنة السبع الذين أوقفوا على خدمة وحفظ البيوت السبعة. وإنه كان مكلفا لحفظ بيت عطارد، وباللغة الكلدانية عطارد هو هرمس. ولهذا توفي ودفن في البناء المعروف ببابي هرمس أو الهرمين كما تقول العامة. ومن كتبه كتاب الذهب السائل وكتاب الأسرار وغيرها...

وفي الخزانة كتب أخرى لكل الملل والنحل والمعارف والعلوم والصنائع والفنون. وفيها كتب بغير لسان العرب وإن كانت قليلة نظرا إلى أن كتب القدماء قد ترجمت في عهد المأمون. وفيها أيضا كتب الشرائع المنزلة ومذاهب كل شرعة وفيها من الأخبار أمور كثيرة. فمن أخبار الأمم والشعوب والقبائل إلى أخبار العلماء والزهاد والصوفية والنحاة والحكماء والشعراء وغيرهم. كما فيها كتب في الآداب والسير وأخبار الرواة والنسابين والأخباريين وطبقات كل فرقة. وكذا فيها حكايات في الأسمار والخرافات والعزائم.

قضينا الليلة كلها في العب من هذه المعارف والإنتقال من سفر لآخر كما ينتقل النحل من زهرة لأخرى. وحين ظهر الفجر المستطيل عدنا أدراجنا من الباب الثاني للقاعة الكبيرة حتى أفضى بنا السير إلى الباب السري فخرجنا من الخزانة وصوت المهللين ينتشر في الفضاء الواسع من منار لآخر ومن صومعة لأخرى. دخلنا المسجد من الساباط الذي يفضي إليه مباشرة. ثم أذن المؤذن لصلاة الصبح فصلى بنا الإمام. وكان اليوم صبح الجمعة فقرأ في الركعة الأولى بالشورى وفي الثانية بسورة ق.

كنت خلال الصلاة غائبا عن حسي أجول في الملكوت بروحي متعما متلذذا لحضرة القدس أراني في خزانة القرآن أعب منها ولا أرتوي وأكرع من البحر الذي لا ساحل له. بل لقد رأيتني أعب بكل جارحة في حتى شاهدت مسام جلدي تتفتح كأفواه القرب راغبة عن الظمأ طالبة للكلأ والنبأ وكلما ازددت ريا كلما ازددت عطشا. تحلل الإمام بالسلام فخرجت وعلى إثري بدر الذي أبهرني صدقه وورعه ورسوخه حيث كنت أظن أنه قد يصير إلى حافة الجذب. فالحقائق التي شاهدناها وحققناها تضيق عن حملها الرجال فكيف بالفتيان.

فتوة القاف

وصلنا للمنزل فأخلدت للراحة في ذلك اليوم ومرت أيام لم نكن نسمع فيها إلا عن تحضير الخليفة لغزوة شنترين. وفعلا خرج هو والعساكر وكنت في الخارجين مع

والذي صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين لصفر الخير. وكانت عادته الخروج يوم الخميس. وقد توشح الجند السيوف الهندية والدرق اللمطية والقسي الخطية وسالوا في بقاع الأرض بتبريز وهيئة أسخطت الروم حتى وصلنا بطليوس التي كانت فيها هزيمة الأدفنش في واقعة الزلاقة لما استنجد المعتمد بن عباد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله. وقد أثر عن المعتمد أنه قال: لرعي الجمال أهون علي من رعي الخنازير، حين طلبه الأمير يوسف ليستقر في المغرب. وفعلا فقد كانت دويلات الطوائف التي قامت بعد سقوط الدولة الأموية تتحالف مع النصارى وتدفع لهم الجزية. وقد أبى ذلك المعتمد فاستنجد بالمرابطين الأشاوس فأنجده يوسف لذلك ودحرهم في تلك الواقعة العظيمة في الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان عام 480 .

كانت مدينة بطليوس أشبه بالحصن، بناؤها عجيب. وقد بنى المرابطون ومن بعدهم الموحدون تحصينات كثيرة لما رأوا طغيان الروم وحملاتهم المتكررة. ومن ذلك ما يعرف بالأبراج البرانية والمداخل ذات المرافق لتضليل المغيرين ومفاجأتهم. ولبطليوس سور يسمى الستارة وقد بني في عهد الفتنة باللبن. وقد بني هذا السور على أنقاض السور الروماني. ولكن الدول المتعاقبة أدخلت عمارة جديدة على هذه الأسوار لما شعروا بأخطار الغارات والهجمات المتتالية للنصارى. فأكثر المرابطون من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور حتى لكأنه يبدو منكسرا منعرجا . وهذا الصنيع كان من مزاياه تضليل العدو حتى يتقدم إلى

إحدى الزوايا فيندفع عليه الجند من أعلى الأسوار بفضل الدروب التي كانت عليها . وكان لسور بطليوس ممشى يسير عليه الجند كما أن به شرفات تقذف منها السهام ثم تحتمي الجند وراء ذروات تشبه أسنان المشط إذا رئيت من بعيد . وكان على كل ذروة فتحات تمكن من مراقبة العدو دون أن يصاب المراقب بالسهام . وكان يقوم على الستارة التي تحيط ببطليوس أبراج ترتفع عن مستواها . وفي أعلى البرج غرف أعدت للمراقبة والدفاع وفيها منافذ لرمي السهام وبعض هذه الأبراج مغطى بقبوات كما أن عليها ذروات هرمية كسائر الستارة . وبعض هذه الأبراج مثمنة الأضلاع وهو اختراع موحدي كما بنوا أبراجا مؤلفة من اثني عشر ضلعا كما يتراءى لنا الآن على ستارة المدينة . وهذه الأبراج أفضل من الأبراج المربعة حيث يتحرك الجند في كل الجهات والزوايا ويرقبون تحركات العدو . وهناك أيضا الأبراج البرانية التي تربط الستارة بستارة أخرى تسمى القورجة . أما الأبراج المستديرة فلم تكن كثيرة الإستعمال لأنها صعبة البناء رغم أنها أكثر تحصينا . وهذه المدينة محصنة جدا فلها الستارة الأمامية وحولها خندق يمنع العدو من الوصول إلى السور كما أن خلف هذه الستارة الأمامية الستارة الأساسية . وتشق هذه الأسوار أبواب ونها مرافق بزوايا قائمة لتعطيل زحف العدو وتمكين الجند في أعلى الباب من الإشراف عليه ورشقه بالسهام وصب النار المحرقة عليه .

بقينا بضعة أيام في بطليوس ريثما يلتحق بنا الجند من مختلف الأصقاع وتم التحضير جيدا للمعركة . وأمر الخليفة بتمييز العساكر ورحلنا يوم الخميس العاشر لربيع

الأول من بطليوس. ولما وصلنا وادي تاجه أمر الموحدون أن يقفوا على باب شنترين وقام معهم والي إشبيلية السيد أبو إسحاق وكنت مع والدي بجانبه. وكان الهدف مطالعة العدو ومعرفة مكامن قوته وضعفه وتحصيناته. أما الكفار فقد انجحروا في غيرانهم انجحار الثعالب في غيرانها وقد ملئوا ذعرا وفزعا. ونحن نهلل ونكبر والخليفة مشرف على المدينة في الجبل المطل عليها وقبته الحمراء تتوسط الجموع. ولم يستطع العدو أن تخرج إلينا فأعملنا معاول الهدم في ربضهم المتصل بالسور. وأشعلت النيران فيه وصنعت السلاليم لصعود الأسوار. وبتنا تلك الليلة وكافة ليلة الجمعة في أحسن حالة. فلما صلينا الصبح أمرنا بقتال الروم في الأسوار فتمكنا من الربض وهزم من خرج منهم وتركوا خيلهم ودوابهم وتسلقوا بالحبال إلى القصبة. وهدم الجند الكنيستان اللتان بالمدينة البرانية وخربت الدور والمعمور. وبتنا تلك الليلة ونحن نؤمل فتح هذه القصبة المنيعة، فلما أصبح الصباح عدنا للكر والفر وبقينا على هذه الحال إلى يوم الإثنين الواحد والعشرين من ربيع الأول. وكان العدو وقائده ابن الريق الخبيث قد هيأ للقتال لما علم بعزم المسلمين على الجهاد وإخراجه من جحره فجمع المؤن بما يكفي للسنين بله الشهور، وادخر الأسلحة ودخل مع وجوه دولته للقصبة المنيعة. ووضع على أسوارها الجند بالقسي والرماح والحراب والدرق والنيران المحرقة. وكانت الحملة في آخر فصل الخريف والشتاء على الأبواب فخاف الخليفة من تمادي الحصار لشهور وتضايق الجند من ذلك خصوصا وأن النهر إذا عظم بالماء فليس من سبيل لعبوره فينقطع المدد عن

الجيش. فأشير على الخليفة بالرجوع إلى إشبيلية، فإذا أقبل الزمان بوجهه أعدنا عليهم الكرة بالحصار حتى يسلموا أنفسهم وأموالهم أو يهلكوا دونها. فأمر الخليفة أن يرفع الناس أيديهم عن القتال وأن ينتقلوا إلى مكان آخر فتعجب الناس من ذلك وذبت الفتنة ولم يكن الخبر قد انتشر لأنه قال ذلك مع خاصته. فقوض أبو الحسن المالقي خطيب الخلافة خيمته بدون إذن وأظهر الرغبة في الرحيل. فلما رآه الناس قد فعل اقتدوا بفعله فعبر أكثر الجيش النهر في ذلك اليوم مخافة الزحام. ولم يبق إلا من كان مواليا للخليفة. وأكمل الناس العبور في الليل والخليفة لا علم له بذلك. فلما رأى الروم عبور المسلمين خرجوا وهجموا على من بقي من الجند. ولما رأى الخليفة انزعاج ذئاب الكفار الجائعة إلينا أمر بدق الطبول وإشراع الألوية فأقبل الناس إلينا وقد كنا نتدافع ونتقاتل مع ابن الخليفة يعقوب وهو يصول ويجول. وتحول الخليفة من منزله ذاك وهو في شرذمة من الرجال فهجموا على خيمته وأصيب بطعنة تحت سرته وقتل خلق كثير من أشياخ الموحدين وأعيان أهل الأندلس وبعض بني مردنيش.

ولما رأى الخطيب المالقي قباحة نعته وشناعة فعله وخاف عاقبة ما جناه وسوء تدبيره أظهر الجنون مخافة أن يفتك به رجال الخليفة فركب فرسه ودخل معسكر النصارى الذين فتحوا له أبواب قصبتهم وأكرموه ليعرفوا منه مكامن ضعف المسلمين وليغيروا على عوراتهم بأخس سبيل وأقبح مثيل. غضب الخليفة على المالقي غضبتين: الأولى بسبب تقويضه لخيمته دون إذن والتسبب في الفتنة التي

حدثت؛ والثانية بسبب التحاقه بالنصارى وإظهار الشماتة بدين المسلمين. وقد زاد هذا من حنق الخليفة عليه لأن الفار هو خطيب الخلافة وإمام الجمعة. فكانت هذه الأخبار مما أماته هما وكمدا زيادة على الطعنة التي تلقاها تحت سرته.

تحرى والدي عن سبب هذه الإنتكاسة, من العيون التي كان يرسلها إلى معسكر العدو وحاول أن يفهم ما جناه الخطيب المالقي فأتته الأخبار بأمر غريب حيث ذكرت له عيونه أن النصارى استعانوا بأحد السحرة اليهود الذي دس طعاما للخطيب أخرجه عن رشده نكاية بالمسلمين وتشفيا منهم وإسكاتا للسان الخلافة والملة. فكان الطعام الذي تناوله سبب شروده وهذيانه وتقويض خيمته ثم الإلتحاق بمعسكر النصارى. ولكنهم لما رأوا قبيح نعته وشناعة فعلته واضطراب عقله أصابتهم الرهبة. خصوصا وأن اعتقاداتهم سخيفة وما جهلوه عزوه للسحر. فكانوا كثيرا ما يبطشون بالأبرياء ويتهمونهم بالسحر. وكان علماؤهم أول ضحاياهم. فلما رأوا ما عليه الخطيب أيقنوا بأن الرجل مس وخافوا عاقبة انقلابه عليهم فاتهموه بأشنع التهم وقتلوه. فيا لها من رزية تدمي القلوب وهنة ترمي بالعار والخذلان. فلقد تسامع بها الناس ولم تجدوا بدا من إخراج كنوز الحوقلة. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وتداركنا الأمر فكرت جيوشنا على الروم الذين عادوا للإنجحار كالثعالب في قصبتهم المنيعة. ونلنا ممن تخلف منهم ولم يستطع التسلق بالحبال، فأخذنا ثأر شهدائنا في الحين.

ثم نزل الخليفة بعدوة الوادي وأثار جرحه بادية كل بادي. ولم يشغله أمره عن الناس فأمر بتفرقة الجموع والتحاق كل واحد بقبيلته، وأمر بتخريب ما جاور شنترين وتغوير المياه وانتهاب الزروع واستئصال الأشجار وإحراق المباني وإذهاب أعيانها. والحنق ظاهر عليه متلبس به يملي عليه أفعاله وأوامره. فبعدما كان العدو فَرِقا من جحافل جيشنا وأيقن بالنهاية بدلت الأرض غير الأرض والسماوات وصرنا فَرِقين على حياة الخليفة. فقد أسلم ظهره للفراش، وهي توشية المُفارق وتحية المودع. وتمادى المشي بنا إلى حصن طرش فأغرنا عليه والخليفة في خيمته بذروة جبل مشرف على الحصن. ثم ارتحلنا عن الحصن وضعف الخليفة يتفاقم وأجله يلاحقه والأطباء من حوله ملتفون ولخيمته ملازمون. فها هو الحكيم ابن زهر والطبيب ابن مقبل وابن قاسم. وكما لو أن أسماء هؤلاء تنعي للمسلمين وفاة الخليفة. فهذا ابن قاسم قد اشتق من اسمه قسمة الموت المكتوب. وهذا ابن مقبل تخبره بإقبال الحِمام إليه، وذاك ابن زهر وأراه التراب ورش عليه من ماء زهره. ثم جزنا نهر التاجه والخليفة على سريره وقد صنع له رواق. وبعد جوازنا بأميال ونحن على طريق يابرة تفقده الخدمة فوجدوه قد أسلم الروح لمولاه، فرحمة الله عليه. فقد كان من العلماء المجاهدين، عمر البلاد وأمن العباد. وتوفي عن سبع وأربعين عاما، ثم صلينا عليه صلاة الجنازة بين العشاءين. وقد نادى المنادي: الصلاة على الجنازة، جنازة رجل. فصلى الناس وهم لا يعلمون من هو الميت إلا خواص الدولة. وأمر الناس ابنه أبو يوسف. وحين وصلنا إلى إشبيلية صبّروه هناك

ووضعوه في تابوت مع حاجبه كافور إلى تينمل فدفن بجانب أبيه عبد المومن والمهدي بن تومرت. وقد كان يوم وفاته السبت سابع رجب الفرد عام 580. ثم بويع للخليفة الجديد وقد كان أبوه قد أوصى بذلك قبل وفاته. ثم بعث السيد أبو زيد فور وفاة أبي يعقوب إلى أبناء الخليفة الأكابر ووجوه الموحدين والأشياخ المزاوير وعرض عليهم مبايعة أبي يوسف. ولما وصلوا إلى إشبيلية وعلم خبر الوفاة تقدم للمبايعة أصناف الناس من علماء وقادة وغيرهم. وأفاض الخليفة الجديد وافر فضله على من حضر وخص أبازيد ابن عمه عمر بن عبد المومن بإحسان غامر لوفائه وخدمته.

بعدما تمت مراسيم البيعة قصفت الطبول للرحيل وأمر الخليفة بمغادرة إشبيلية، وقدم المصحف العثماني الكريم أمام الموكب. وقد خرجت لوداعه مع الوالد وأعيان أهل الأندلس وولاتها وإخوته حتى ركب البحر ووصل إلى سلا حيث تسمى بأمير المؤمنين وتمت بيعته واستجاب له كل من تخلف عن ذلك من أعمامه. وكتب لبلاد الأندلس بذلك. ثم وصل إلى مراكش. كان الخليفة الجديد حاكما بسيف الشريعة دينا ورعا. فلما وصل إلى حاضرة ملكه راعه ما شاهده من استهتار وتنافس في الشهوات وتسابق للفواحش ونفاق سوق الغانيات الملهيات فغضب لذلك وأنكره وأراق دنان الخمور والمسكرات وكتب بذلك إلى ولاته في الأمصار. وكان يجلس بنفسه للأحكام ويرضي الناس في هذا الفن.

تربية القاف

رجعت صحبة الوالد إلى إشبيلية ولازمت شيخي أبا العباس العريبي فسلكت على يديه. وكان رجلا بدويا أميا إلا أنه كان تخبر عن الله. وكان ذكره الذي استهتر به الإسم المفرد لا غير، وكان مواظبا عليه مع الأنفاس. فلا تخرج منه نفس في يقظة ولا نوم إلا به. وهو أول شيخ خدمته وانتفعت به، ولم يكن يدلني إلا على الله. وكان مستهترا بذكر الإسم المفرد حتى صار هجيره. ومرة أردت أن أفهم سر اقتصاره على هذا الذكر ومعرفة نتيجته، فدبجت له سؤالي في قالب الشرع ضمانا للرد الجميل وتحصنا مما قد يقول. فسألته لماذا لا يذكر بكلمة الشهادة مع ما فيها من الترغيب الذي حض عليه الشارع فأجابني : يا ولدي ، الأنفاس بيد الله ما هي بيدي ، فأخاف أن يقبض الله روحي عندما أقول "لا إله" فأقبض في وحشة النفي لا في أنس الإيجاب. فانظر شدة حضور الشيخ. وكانت أول وصية أتحفني بها أول ما دخلت عليه قبل أن أرى وجهه وقد قلت له : أوصني قبل أن تراني فأحفظ عنك وصيتك ، فلا تنظر إلي حتى ترى خلعتك علي. فقال رضي الله عنه : هذه همة شريفة عالية، ياولدي سد الباب واقطع الأسباب وجالس الوهاب يكلمك من غير حجاب.

فعملت على هذه الوصية ورأيت لها بركة عظيمة. ودخلت بعد ذلك عليه فرأى خلعتها علي. فقال : هكذا هكذا وإلا فلا .

كان دائما تحضني على العلم الوهبي ويأمرني الإستزادة منه فلا يعبد الله إلا بعلم. وأمينه الظاهرة انطوت على علم كبير فلم يكن يتكلم إلا في الحقائق وحسبك أن تسمع إذا تكلم في التوحيد . وكان يعرف مشارب القوم ، وكنت أستشف ذلك حين يتكلم عن أكابرهم. دخلت عليه مرة مع صاحبي بدر الحبشي وجماعة فرماني بمسألة وخاطبني بأبي بكر تنبيها على أنها من مرتبة الصديقية والعبودية المحضة. قال : لم أزل أتعجب من قول أبي العباس بن العريف "حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل" ونحن نعلم أن من لم يكن فان ، ومن لم يزل باق، فأيش ؟ قال أجيبوا ، فلم تجبه أحد من الجماعة ، فعرض علي الجواب فحضرني دونهم ولكني لم أتكلم لأني كنت أجاهد نفسي وأقهرها عن الكلام. وعرف الشيخ ذلك مني فلم يعد علي. والمسألة التي ألقاها الشيخ متعلقها مقام الإحسان ومدارها على الفناء والبقاء وما ينتجه ذلك من الإلتذاذ بالمشاهدة أوعدمها . وقد عبر القوم كل بحسب مشربه . فهذا ابن العريف يقول بفناء الرسم لأنه سبحانه وتعالى تجلى له في الصور المعنوية . أما من تجلى له في الصور الطبيعية فإنه يقول باللذة كالشهاب السهروردي وأبي مدين حين يقول :

وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا كأنكم في عيون الناس أزهار

ومن القوم من قال بعدم اللذة في المشاهدة كأبي العباس السياري المعروف بالقاسم بن القاسم. وكان يقول : "ما التذ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة ، والخطاب في حال الفناء لا يصح" .

كان الشيخ العربي عيسوي المقام في نهايته وتلك كانت بدايتي في الطريق ثم انتقلت بعدها إلى الفتح الموسوي الشمسي وبعدها انتقلت إلى هود ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع الأنبياء عليهم السلام وأخيرا نقلنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام. ومعنى أن يكون الولي عيسويا أو موسويا أو محمديا أو غير ذلك من المراتب هو أن كل الشرائع متضمنة في الشريعة المحمدية. فلما قررها هذا الشرع تعبد بها الأولياء من حيث هي مقررة من داخل شرعهم لا من حيث أن شرع ذلك النبي قررها.

أسر الروم الشيخ مرة وكان قد أخبر أصحابه بذلك قبل وقوعه. فلما صار في الأسر اتفق مع آسره على تسريحه مقابل خمسمائة دينار، فجاء عندنا وكنا سنفديه مما سيتبرع به شخص أو شخصان فرفض وطلب أن تكون فديته من أشخاص كثيرين، بل إنه أردف أنه لو كان بالإمكان أخذها من كل إنسان لفعل إذ أخبره الله تعالى أن كل من أسهم في تلك الفدية أعتقه الله من النار فأراد الشيخ أن يغتنم الخير للأمة أجمعها.

هذا هو شيخي أبو العباس رجل أمي من علوم الحوادث متحقق بالعلم الرباني الحقاني. لم تكن مجالستي له تحكمها طقوس معينة بل كنت أجلس بين يديه كالميت مع مغسله. وحدث مرة أن خالفته في مسألة اعتقاده وظنه أن شخصا معينا هو المهدي، وغلط الشيخ في ذلك حيث اعتقد ذلك الأمر فأعربت له عن رأيي مما أعلمه من سيرة ذلك الشخص، فبقي في نفسه من مخالفتي له. فلما خرجت من عنده التقيت بسوق الحناء قرب المسجد الذي تحمل نفس الإسم شخصا قال لي: يا محمد،

صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان وسمى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي. فقلت له : نعم وعلمت ما أراد . ثم رجعت من ساعتي للشيخ لأعلمه بما وقع وحين أقبلت عليه قال لي : يا أبا عبد الله أأحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدق فلانا فيما ذكره لك؟ ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف ؟ فقلت : إن باب التوبة مفتوح . فقال : وقبول التوبة واقع. فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر. ثم استفهمت الشيخ عنه أهو هو ؟ فقال : نعم هو الخضر. وقد رجع الشيخ عن رأيه بعد ذلك ووافقني فيما ذهبت إليه . ولكن الأدب مقدم في مثل هذه الأمور. فالمريد وطالب الحق يتأدب مع أهل الله فلا يظهر عليهم بالخلاف وإن كان مصيبا، وللحقائق كلها وجه من الصحة.

مرت السنوات في إشبيلية وقد تجردت مما أملك ووضعته في عهدة والدي لا أعلم ما فعل به ورغم منصبي في الدولة إلا أني استبدلت مجالسة الكبراء بمجالسة الفقراء. وكنت أتعاهد القبور وأصلي فيها وأختلي هناك. وقد التزمت مجموعة من الأذكار بحسب الأزمان . وكل ذكر كان يثمر عندي علما جديدا وتقربا إلى الله. بل إنني قد عرفت ببعض الأذكار التي كنت ألازمها أصلي لها الصلوات وأخرج لها الأنفاس وأدخلها ، فعرفت في بلدي بذلك كذكر "ففروا إلى الله" . وما معنى أن يفر العبد إلى الله ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه . فالعبد يفر من الله إلى الله . وبعبارة أبين ، فإنه يفر من اسم إلهي إلى إسم إلهي آخر . فيفر من القهار إلى الرحيم

وهكذا . فهو في عهدة أمانه يتنسم عرف روائحها وطيب نشرها ، فما خرج عن حكم الله .

عمة القاف

في هذه السنوات كنت أدخل خزانة ق مرة تلو الأخرى ، أستكمل منازلها . وهذه الخزانة كما ذكرت تنطوي على خزائن صغرى داخل الخزانة الكبرى. فكنت أفتح تلك الخزائن وأتبين كنوزها . ومرة دخلت إلى خزانة جريد النخل وهي منزل ينطوي على الهلاك إلا لمن رعته عين المنة . وفي هذا المنزل خمسة أبيات. في البيت الأول أربع خزائن وعلى كل خزانة مجموعة من الأقفال . فلما أردت فتحها قيل لي في سري . سر حتى ترى ما في كل بيت من الخزائن وبعد ذلك تفتح أقفالها وتعرف ما فيها . وهكذا زرت البيت الثاني فرأيت خزائنه ومجموع أقفاله، وعرجت على البيت الثالث والرابع والخامس بمجموع خزائنه . وكنت في كل ذلك أدخل من باب وأخرج من باب آخر . ثم رجعت أطلب البيت الأول لأفتح الأقفال وأرى ما تحوي عليه تلك الخزائن من الودائع . فدخلت البيت الأول إلى الخزانة الأولى فرأيت معلقا على كل قفل مفتاحه وبعض الأقفال عليها مفتاحان وثلاثة. وبعض تلك المفاتيح بل جلها تنفتح بمجموعة من الحركات . فمددت يدي وفتحت تلك الأقفال . ومن الأقفال ما هو مطبق أي قفلان في قفل واحد . فلما فتحت الأقفال واطلعت على ما

في الخزائن بدا لي من صور العلوم على قدر حركات مفاتيح تلك الخزائن لا تزيد ولا تنقص . فرأيت علوما مهلكة ما اشتغل بها أحد إلا هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء والمتكلمين القائلين بالكسب ، وليس لنور الشرع فيها أثر البتة قد حرمت صاحبها السعادة . فيها من علوم البراهمة كثير وعلوم البددة وعلوم السحر وغير ذلك فحصلتها جميعا لنجتنبها . وهي أسرار لا يمكن إظهارها فهي من علوم السر . وفي الخزانة الثانية رأيت علوم القدرة . أما الخزانة الثالثة فرأيت فيها جهنم تحطم بعضها بعضا وفي وسطها روضة خضراء ورأيت فيها رجلا يقال له "ذو شعلة" أخرج من النار ووقف ساعة في تلك الروضة ثم رد إلى النار التي هي من جنسه وهكذا حاله . فهو يخرج إلى الروضة فيتنعم ثم يرد إلى النار فيعذب . فحصلت من تلك الخزانة ما أتقي به ذلك العذاب فشربت ماء من عين تجري في تلك الروضة وبذلك عصمت من النار . وكنت أنتقل من بيت لآخر ومن خزانة لأخرى حتى استوفيت مجموعها وما برحت من هذا المنزل حتى عرجت على دهليز في مدخل هذا المنزل لا يفتح لكل والج ، وقد فتح لي وفيه مفاتيح الخزائن التي دخلتها في جبل ق. وكان يصحبني في كثير من الأحيان صاحبي بدر الحبشي . وقد سألني عن تلك الروضة وماذا تعني فأجبته : يا صاحبي ، إن الروضة التي كان تخرج إليها ذلك الرجل هي روضة التوحيد لأنه كان في قلبه ذرة خردلة فحرمت تلك الذرة على النار . فكانت تشفع له عند مولاه ثم كان يرد إلى النار فيعذب بسنة أنواع من العذاب كلها من نار تنزل كالسياط فتحرقه . هذه

الأنواع كانت تأتيه من الجهات الست. فاشرب يا ولدي من هذا الماء المطلق تنج بإذن الله . ثم وعدته بزيارة العين التي يصدر منها ذلك الماء في رأس جبل ق . وكان يتحرق شوقا للشرب من تلك العين. دخلنا ذلك المنزل واسمه الذهب الخالص وهو على صورة بيت قائم على خمسة أعمدة عليها سقف مرفوع محيط به حيطان لا باب فيها مفتوح فليس لأحد فيه دخول بوجه من الوجوه . ويوجد خارج البيت عمود قائم ملصق إلى حائط البيت يتمسح به أهل الكشف كما يتمسحون ويقبلون الحجر الأسود الذي هو خارج البيت وجعله الله يمينا له ولهذا أضافه إليه لا للبيت . فأشبهه هذا العمود، فهو لا يضاف إلى هذا المنزل وإن كان منه إلا أنه ليس خاصا به بل هو موجود في كل منزل من هذه المنازل . ولهذا العمود لسان فصيح بين يعبر لنا عما تحتوي عليه سائر المنازل.

أحسست بصاحبي قد أعجم عليه الأمر لما ترادفت عليه هذه الألغاز وهذه الأسرار فكنيت له دون أن أعرب ما أعجم صونا لربات الخدور من الإبتذال. فلا بد للحسناء من نقاب . قلت له : يا ولدي ، إن علوم هذا المنزل هي علوم التوحيد الخالص الذي لا ذوق لأحد فيه . وفيه علوم الأحدية الحقية والأحدية الخلقية . والبيت هو هذا المنزل الخالص . أما أعمدته الخمس فهي أعلامه المنتشرة. والعمود الخامس الخارجي عليه تسعة عشر حارسا . ولا يتمسح إلا بوجهه الخارجي لما فيه من الرحمة. أما وجهه الذي في داخل البيت فهو للتعلق لا للتخلق . ولا باب **لهذا** البيت لأنه لا تحتوي إلا على التنزيه الذي لا تخلق لأحد به بل هو للتعلق فقط .

وعدد خزائن هذا المنزل ست وستون خزانة حاصلة من سريان عدد ملوك هذا المنزل وعددهم أحد عشر في أعمدة البيت الستة. ثم سكت عن الكلام، فما بعد البيان بيان، والله يؤتي فضله من يشاء. خرجنا من المنزل وأنواره ساطعة علينا كما لو أنا لم نفارقه.

القاف الحق

التفت إلي بدر بعد خروجنا وهو أكثر حيرة من ذي قبل طالبا مني تحقيق هذا التوحيد الذي صادفناه في جبل ق. فقلت له: ياولدي، إن غاية المريد هو بحر القرآن المشتمل على المعرفة الإلهية، فعلى هذا المريد أن تجد في القرآن كل ما يريد بصرف الهمة إلى تحقيق الوجود الأزلي ونتيجته حتى يشهده وذلك بالتجرد من أصباغ المدارك وألوان المعلومات حسية وعقلية وخيالية. حينها يدخل حمام الوجود الكبير فيغتسل من أدران الحس والعقل والخيال ولا تخرج منه أبدا. والوجود الحق هو الله تعالى.

فقال بدر: إذا كان الله هو الوجود والموجودات من الوجود فيمكن القول أن الموجودات هي الله. فأجبته: ليس كذلك وإنما هذه الموجودات قد قامت بالوجود أي بالله فهو الحي القيوم.

يا سيدي لقد حيرتني ، فمن جهة الوجود واحد ومن جهة ثانية الموجودات كثيرة .
فالموجودات ليست هي الوجود لأن هذه كثيرة متعددة والوجود واحد لا يتكثر ولا تختلف في ذاته فهو حقيقة واحدة لا تتعدد على أفراد الموجودات . فالوجود أصل والموجودات فرع وليس لها قيام من دونه. فإنها وإن كان لها حظ من الوجود إلا أنه مستفاد وليس هو عين الوجود الذي هو واحد لا كثرة فيه على عكس الموجودات .

لقد سلمت لك يا سيدي هذا التحرير ، ولكن من أين لك بتسمية الحق باسم لم يرد به شرع ، لا سيما وأن الأسماء توقيفية ؟

سؤالك وجيه يا بدر ، وإن لم تكن تعلم أن العلماء ، أقصد علماء الكلام ، قد اختلفوا في مسألة الأسماء بين قائل بالتوقيف وخلافه . وعليه فاعتراضك ساقط بإمكانية جواز إطلاق هذا الإسم على الحق . ومن جهة ثانية إن لفظ الوجود هو عبارة تفهيمية ، فكل واحد يفهم ما تنطلق عليه حين إيرادها . ومن هنا جاز استعماله ، ولا نعني به شيئا آخر سوى الحق أو الله سبحانه وتعالى .

إني أراك تستعمل كلمة "شيء" في الجناب الإلهي ، فما سبب ذلك ؟

سأشرح لك ذلك انطلاقا مما جرى للشيخ سهل بن عبد الله مع إبليس في المناظرة المشهورة . تحكي سهل أنه التقى إبليس فعرفه وعرف منه أنه عرفه. ثم جرت بينهما مناظرة وطال فيها الكلام حتى قال له إبليس : يا سهل ، الله عز وجل يقول: "ورحمتي وسعت كل شيء" فعمت ، ولا تخفى عليك أني شيء بلا شك ، لأن لفظة

"كل" تقتضي الإحاطة والعموم و"شيء" أنكر النكرات ، فقد وسعتني رحمته.
فحار سهل في الجواب ، ثم تلا الآية حتى وصل إلى منها "فسأكتبها" فسر بذلك وتخيل أنه قد ظفر بحجة فقال : يا ملعون إن الله قد قيدها بنعوت مخصوصة تخرجها من ذلك العموم فقال "فسأكتبها للذين يتقون" . فتبسم إبليس وقال : يا سهل، ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ. . . ألست تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته؟ ! قال سهل : فرجعت إلى نفسي وغصصت بريقي ووالله ما وجدت جوابا . وما علم سهل أنه لا يتقيد على الله شيء ، فرحمته المكتوبة للمتقين. ولغير المتقين رحمة المنة . فرحمته وسعت كل شيء .
ولنعد إلى سؤالك ، فأنت ترى أن أنكر النكرات هو كلمة "شيء" . وكل الأسماء تعطي معنى من المعاني والله بخلاف ذلك ، فما بقيت إلا هذه الكلمة لتدل عليه. والذي يؤكد هذا أن حروف هذه اللفظة كلها تدل على الواحد بالجزم الصغير. فإذا وضعت الشين والياء والألف أو الهمزة جنبا إلى جنب أعطتك 111 وهو عدد القطب المتحقق بالتوحيد ذاتا وصفاتا وأفعالا، أي في الوحدات والعشرات والمئات.فإن هذا الإسم بمثابة قطب الأسماء, ومع ذلك فإني لا أستعمل هذه الكلمة في هذا الجناب أدبا مع الحق .
وما يمنعك يا سيدي بعدما أوضحت لي ما استبهم ؟
المانع أخذناه من كتابه . ألا ترى أنه قال :"كل شيء هالك إلا وجهه" . فعم الهلاك كل شيء . فأنى لنا أن نسميه بالشيء ، ونحن نعلم أن ما من شيء شيء إلا

وسيعمه الهلاك والفناء . وهناك سبب آخر ، وهو أن ما من شيء شيء إلا وهو مخلوق ودليله قوله تعالى : "الله خالق كل شيء" . فلو كان يسمى بالشيء لزم القول بظاهر هذه الآية أي كونه خالقا لنفسه وهو ممتنع . ومع كل ذلك فقد وردت آية تفيد إطلاق هذا الإسم عليه وهي "قل أي شيء أكبر شهادة قل الله" . فالمسألة خلافية ولكن الأدب أولى . فما من اسم إلا ويشعر برائحة المماثلة إلا الإسم المفرد الجامد (الله) إذ لا اشتقاق له من غيره كما تكلف بعض الناس في ذلك . إذ لو كان مشتقا لزم افتقاره لغيره وهو محال لأنه الغني.

اسمح لي يا سيدي أن نعود إلى ما كنا بصدده . وقد فهمت التفريق الذي أتيت به بين الوجود والموجود . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو : هل هذا الوجود صفة للحق أم هو ذاته ؟

هنا زلت أقدام الكثيرين حين ظنوا أن الوجود صفة لذات القديم. والأمر بخلاف ما توهموا . بل إن الوجود هو الذات الإلهية وليس صفة لها إلا على سبيل النسبة فقط من باب أن الذوات تتصف بصفاتها . فلو جوزنا أن الوجود صفة للذات لقلنا بالتركيب وللزم أن الذات أمر آخر غير الوجود . أما الموجودات فلا تتصف بالوجود لأنه لو كان الأمر كذلك لكان متوقفا عليها تابعا لها خاضعا لسلطانها لأن الصفة تتبع موصوفها . ونحن قلنا إن الموجودات قائمة بالوجود لا العكس. فإذا تقرر هذا لديك علمت أن الوجود ليس صفة للقديم بل الوجود هو عين القديم. وعلى هذا الأساس فالوجود ليس كباقي الصفات لأنها ليست عين الذات ولا غيرها . فنحن

وإن قلنا إن ذات الإله متصفة بالوجود ، فإنما ذلك على سبيل المجاز وإلا فإن الوجود هو عين الذات . ثم إن كل الموجودات مخلوقة ، أما الوجود فغير مخلوق . ولهذا ورد أن الله خالق كل شيء . فالخلق واقع على الأشياء لا على الوجود . كما أن الوجود الذي قامت به الأشياء لا يزيد ولا ينقص ولا هو أقوى أو أضعف منه في موجود دون آخر بل إنه قائم بجميع الموجودات . فالتقدير يلحق الأشياء لا الوجود "وخلق كل شيء فقدره" أي ذلك الشيء. أما الوجود فخارج عن قبضة التقدير والتحديد والتصوير والخلق وما إلى ذلك ، إلا أنه يظهر بمظاهر تلك المقادير والحدود . فتوهم كثير من الناس في ذلك ولم يميزوا بين هذا وذاك.

ولكن ياسيدي رأينا عامة المؤمنين ينكرون على العارفين ويقولون أن معنى قولهم إن الله هو الوجود الحق أي أن الله تعالى هو الموجودات كلها . فكيف تحرر الرد عليهم وتدفع هذه الشبهة ؟

إن الوجود مستقل عن سائر الموجودات وهي قائمة به . وليس معنى قيامها به أنها متصفة به إذ لا يصح اتصاف الحادث بالقديم . بل هي مفتقرة إليه ، وإذ هي كذلك فهذا مانع لها من الإتصاف به . فالموجودات غير الوجود ولكنها قائمة به . فليس لها استقلال به .

لقد فهمت يا سيدي ما أشكل على هؤلاء العامة . ولكن هناك أمرا آخر يتعلق بمسألة الحلول حيث قالوا إن قولنا أن الوجود الذي قام به كل موجود قول بحلول الله تعالى في الأشياء . ويسفهون كبار العارفين في ذلك ، فكيف ترد ؟

إن من شرط الحلول أن يكون وجودان تحل أحدهما في الآخر . ونحن لم نقل هذا ، بل قلنا إن الموجودات مفتقرة إلى الوجود أي إلى الله . فليس لها استقلال بالوجود أصلا . وكل ما هنالك أن الوجود يقدر المخلوقات ، فكيف يتصور الحلول إذن ؟! وكونهم ظنوا أن قيام الحوادث بالوجود انصباغ لها بهذه الصفة فحكموا بذلك على أن تلك الصفة هي عين الوجود ، وبذلك توهموا أنه حادث مثلها وجعلوه وصفا لها . ولو أنهم تصوروا أن الأشياء عارية عن الوجود ثم تصوروا أنها قائمة بالوجود لفهموا كلامنا ولما ضلوا وأضلوا .

جزاك الله خير الجزاء يا سيدي ، فقد أزلت هذه الأشواك من طريقي وأوضحت لي معالم التوحيد حيث زلت أقدام الكثيرين . فما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح . ولقد صحبت الكثيرين وخصوصا حين زرت المشرق وخاصة مصر ولكني لم أفهم التوحيد إلا على يديك .

- اعلم يا ولدي أني لم أتكلم معك الساعة إلا في إطار العقل المنور بالشرع وإلا فأرض هذه المعارف وراء طور العقول والأحلام . وثمار العقول الأفكار ، ولم ألهج معك في هذه العجالة إلا أبكار الأفكار ، وهذه تبعدك عن التوحيد الصحيح لأن هذا لا يكون إلا بعد فناء الفكر . وكل فكر دليل على بقاء الرسوم ، ولا رسوم مع التوحيد أصلا . ولكن أوان هذا الحديث لم تحن بعد ، فلنخرج إلى الصلاة ونعرج على أصحابنا .

دخلنا المسجد وصلينا ثم جلسنا ساعة نتذاكر مع الأصحاب وانصرف كل واحد منا لحال سبيله. أتيت منزلنا فأقبلت علي والدتي وقبلتني ثم قالت لي :

يا ولدي ، أريد أن أفاتحك في موضوع مهم

فقلت لها : تفضلي

فقالت : إنني جد مهممة بشأنك ، فإني وإن كنت أوافقك على الطريق التي اخترتها ، طريق الله والحق والصدق . فإنني أخالفك في هجرانك للدنيا وأهلها وطيباتها . والمولى عز وجل أمرنا بالتمتع بالطيبات ورسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام كان بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وينكح النساء. وإنني جد مهممة من عزوفك عن النساء. وعدم رغبتك فيهن . فاتركني أخطب لك إحدى بنات الأعيان وكلهن يطمعن بمصاهرتنا . ولا تسأل عن حسنهن وجمالهن ودينهن. ثم إنني أريد تزوجك قبل أخيك لأرى أحفادي قبل أن أموت.

يا أمي ، إنك تعلمين أني زاهد في النساء ، وليس ذلك رغبة عن السنة النبوية، وإنما أنا رجل اخترت الآخرة على الدنيا فأخاف أن يشغلنني عما أنا فيه . ثم إنني لا زلت شابا رغم ما أنا فيه من المسؤولية، وربما سأتزوج في زمان لاحق.

بل لابد أن تتزوج قريبا ، ولقد فاتحت إحدى صديقاتي زوجة الفقيه ابن عبدون في شأن ابنتها مريم التي حدثتك عنها مرارا .

يا أمي ، لقد قلت لك إنني زاهد في النسا. وأنت تعلمين أني لا أعصي لك أمرا، فافعلي ما تريدين. رفعت أم محمد صوتها بالزغاريد ووشت هذه الصرخات الجذلة بالصلاة على النبي.

فرح علي بقرار ولده الزواج أخيرا بعدما فاتحه في الموضوع مرارا وامتنع الولد وتعلل . أما محمد فقد ذهب عند شيخه العربي يسأله رأيه في المسألة فأجابه :

يا ولدي ، تلك سنة رسول الله ، وأنت تعلم قوله "هلا جارية تلاعبها وتلاعبك" من حديث جابر . وهذا يدل على فضل نكاحهن على غيرهن كما كان من زواجه صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها .

ولكن يا سيدي ، ليست لي رغبة فيهن ، ولا أرغب في إنجاب الولد الآن ، فماذا أصنع ؟

تخطبها إذن ولا تبني بها إلا بعد مدة . وأنا أعلم ما تشعر به ، فقد قال الصادق صلى الله عليه وسلم "الولد مبخلة مجبنة" لأنه فتنة وشغل عن الله إلا لمن عصم. ومع ذلك فالسنة أولى لقوله "تناكحوا تناسلوا".

سأعمل بوصيتك وسأختار زوجة صغيرة السن حتى لا تطالبني بحقها عاجلا. ثم انصرفت من عنده ودخلت خدر والدتي وسألتها عن ابنة الفقيه التي تنوي خطبتها لي. فقالت :

إنها صبية جميلة ظريفة من أسرة عريقة تقية . أخبرت الوالدة برغبتي في خطبتها وعدم البناء بها إلى مدة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا وتحبب إلي النساء.

كانت العقود التي تبرم في بلدنا كثيرة الشروط وكانت الأسر الأندلسية تتفنن في تحرير عقود الزواج بما يضمن مصالح بناتهن . وكان المهر المدفوع مرتفعا جدا مما منع الكثيرين من الزواج وصار التسري عملة رائجة عند فقراء الطلبة. بل إن بعض الطلبة كان يتسلل خفية إلى الكنائس لرؤية ومغازلة عشيقته من بنات الروم. وكانت بعض هذه العقود يُلزم الناكح أن لا يتزوج أو يتسرى على زوجته. فإن فعل فالداخلة عليها طالق والسرية حرة . بل حتى الأبكار كن يشترطن عدم الزواج عليهن . وإذا فعل الخاطب آلت إليهن عصمتهن.

بعدما اتصلت والدتي بأم مريم جاء دور الوالد في تأكيد صفقة النساء. فخاطب والدها الفقيه لخطبة ابنته قائلا : لقد عزم ولدي محمد على طلب يد محروستك المسماة مريم، وها أنذا أطلبها منك له قصد المصاهرة .

إنه لشرف عظيم لي يا أبا محمد أن تطلب مصاهرتي، وإنني موافق على ذلك. ولقد علمت من زوجتي أن ولدك لا ينوي البناء بها قريبا ، بل إنه أرجأ ذلك إلى مدة غير معلومة . وأنت تعلم أن هذا الشرط غامض وتنبني عليه أحكام لا حاجة لذكرها في هذا الوقت.

هو كذلك يا فقيه ، وأظن أن الأمر يناسبكم كذلك لأن البنت محفوظتكم ما زالت تلعب في حجوركم ، فتأخير البناء غير مجحف بها ولا مهدر لحقوقها ، وإنما من أجل أن تصلب وتصلح للنكاح . ثم إنها فرصة لنا لتأكيد روابط أسرتينا . وستكون فترة الخطبة مرحلة يتعرف فيها ولدي لابنتك ويهيئها للزواج منه دون أعطاب.

صدقت يا أبا محمد ، ولا تظن أن طرحي لهذه المسألة عنوانا على نية مبيتة. وإنما أنا رجل فقيه ويهمني شرع الله وضمان الحقوق.

ونحن كذلك يا أبا عبد الله ، فلا نهتم بأمور الدنيا ، فعلينا مشورتها وتجهيزها ، فقد كفيناك أمرها . وفيما تخص صداقها فلنجعله مائتي دينار.

وأنا موافق يا أبا محمد ، ولنلتق يوم الجمعة لكتب الكتاب وقراءة الفاتحة بحضور الشهود والقاضي وفلذة كبدينا .

إلى الجمعة إذن.

أخبرني والدي بأمر الخطبة وما اتفق عليه مع الفقيه ابن عبدون فأقررته على صنعه . ثم إنه تكلف بجميع مصاريف الزواج وتحضير البيت واللوازم ولم يكلفني في ذلك شيئا لأنه يعلم أني تخليت له عن كل ما أملك ولم أطالبه بذلك لأني نذرت أن أسلك طريق الفقر. اجتمعنا في دار الفقيه وحضر بعض الأحباب وقاضي المدينة والعدول وبعض الأشهاد. كتب الكتاب وحددت مدة البناء في سنة ثم قرأت الفاتحة والصلاة على النبي. وبعدها أمر الفقيه ابنته بإحضار الشراب والحلوى . فجاءت تعثر في أذيالها والخفر حول ديباجالها شقائق نعمان . ناولتني الكأس أولا فنظرت إليها وهي مطرقة لا ترفع رأسها وكانت بادية الجمال عالية السمت حسنة الصفات مليحة النعوت ، يغلب عليها الحياء. كانت العادة أن تخدم المخطوبة عريسها أولا وتخاطبه بمحضر الجالسين. قدمت لي مريم كأسا من الحليب وقالت لي تفضل وصوتها فيه رعشة ورعدة إلا أن نبرتها رقيقة لطيفة. أخذت الكأس وهي

واقفة أمامي تنتظر أن أعيده إلى الصينية. ولكني تباطأت في احتسائه ، أختلس بعض النظرات إليها وقوس حاجبها يرميني بسهام من كن كنائنها . فكان الحاجب سفيرها إلى قلبي وخلت الكأس قد انصبغ بحمرة تلك الديباجتين. ثم تناولت رطبا من يدها فلامست يدي أطراف أناملها فأحسست ببردها . وأخيرا تكلمت وقلت لها : ياله من حليب لذيذ معطر بعرف الزهر ، ولا شك أنك أحسنت في تحضيره ، فهنيئا لك على هذه الحذاقة والرقة يا مريم.

هكذا خاطبتها وأطلقت اسمها فكان لذكره على لساني وقع عجيب. فكما أحسست بمتعة لذيذة لورود هذا الإسم ، كنت أرى آثار إكسيره وسريانه في مخاطبتي . خلتها تذوب كثلجة احتضنها أملد الصفا في يوم مصيف . ومع ذلك جمعت حشاشة روحها وما أبقيت لها من رمق وقالت : بالهناء والعافية يا سيدي. ثم تقدمت نحو والدي ووالدها وأكملت دورتها .

كان أول لقاء مع مريم مشجعا وصالحني مع بنات حواء ، وإن كانت رغبتي فيهن زهدا معهودا .

اتفق الوالد والفقيه ابن عبدون على إحياء حفلة بمناسبة هذا الزفاف والصداق. وجعلوا مكانها دارنا لاتساعها وكبرها وكثرة خدامها والقيمين عليها . ونظرا إلى أن الوالد كان يرغب في استدعاء رؤوس الدولة ، فكان من اللازم أن يكون مكان العرس لائقا بهؤلاء الأضياف . لم أتدخل فيما عقد عليه الوالد من العزم مع الفقيه. ثم إن الأسر الأندلسية كانت تعد هذه الحفلات من آكد المناسبات. ولم

تكن أسر البنات ترضى بأقل من هذا . فأمر بناتهن عظيم، ومن استحق الحفلة فقد حق البنت ، ومن ثم عائلتها . وكلما كان العرس ضخما وبهيجا كلما دل على مكانة البنت وعريسها . استمرت التحضيرات سنة كاملة وهي مدة الخطبة قبل البناء والتي اشترطتها . وكانت فرصة تعرفت فيها على مريم حين كنت أصاحب والدتي لمنزلها فكنا نعرض عليها أنواع الأثواب والحلي وتخيرها في ذلك فتختار منها ما تشاء. وكنا نتحدث لبعضنا من دون رقباء، فرأيت منها أدبا عاليا وحفظا للأشعار وولعا بالموسيقى إلى جانب محبتها العظيمة للمولى عز وجل ورسوله الكريم. فزاد هذا من إقبالي عليها وبدد شيئا مما كان في نفسي من النساء. وكثيرا ما كنت أتلذذ بالحديث معها عن أذواقها وأجعل ذلك مدخلا للحديث عن أمور أخرى أعرف منها شخصيتها . ولم يكن أمامي إلا أن أطرق حديث المنسوجات متعللا بتحضير ملابسها قبل موعد الزفاف . فكنت أسألها وأنا الجاهل بهذه الأمور عن أنواع تلك المنسوجات من الفاخر المطرز والموشى بخيوط الذهب، وكذا أسماء تلك المنسوجات التي اشتهرت بها ألمرية ومالقة ومرسية وغرناطة وغنيانة ودلاية . بل إن بلاد الأندلس كانت تصنع حتى المنسوجات المشهورة في الشرق مثل الجرجاني والأصبهاني . فاخترنا سويا بعض الملابس من الحرير الموشى بالذهب، وألبسة أخرى من الحرير الخفيف الرقيق والذي زين بزخارف لمختلف الأزهار والنباتات التي عرفت في بلدنا كالديدي والخيلي والسوسن والنرجس والقرنفل وشقائق النعمان وغيرها . كما اختارت مريم بعض الأقمشة من الديباج الفاخر المطرز

وأخرى من القطن والكتان زينت بأشكال هندسية كالمعينات والمربعات والمثلثات والمثمنات والمسدسات وغيرها . واختارت بعضا من الحلل الموشاة بخيوط الذهب الرفيعة . كما اخترت لها بعض الثياب المصنوعة من الملف المصبوغ لفصل الشتاء البارد ، وبعض الفراء التي حليت بها أقمشة غليظة . وكم كانت تدوم هذه اللقاءات نظرا إلى مزاج النساء المتقلب وعدم رضاهن بسهولة عن شيء . فلم تشذ مريم عن القاعدة ، فكانت لا تختار شيئا إلا بعد لأي ثم تعود لترفضه وأخيرا تقبله . وكنت أتعجب من هذا الأمر وكيف يمكن للإنسان أن ينتقل من القبول إلى الرفض فالقبول . فلم أر شيئا أقرب إلى هذه الحقيقة من كلمة الشهادة حين يعتقدها المومن لأنه ما بين نفي وإثبات ثم نفي فإثبات . وبعدما اختارت الأثواب والأقمشة والمنسوجات انتقلنا إلى ميدان الحياكة والخياطة، وكان من اللازم استحضار جيش من الخياطين حتى يفوا بالغرض في الوقت المطلوب . وكانت والدتي ووالدتها يساعدننا كثيرا في الإختيار وخصوصا أن أذواق والدتي مرسية وأذواق والدة مريم إشبيلية، فجمعنا أحسن ما في الإثنين. وهكذا تمت حياكة مجموعة من الثياب الخارجية المعروفة بالفوقية والتي توضع فوق القفطان . وأخرى من المذيل أي الطويلة وأخرى مخروطة الأكمام وبعضها من القباطي الرقيق من غير أكمام . ثم جاء دور الحلي بأنواعها المختلفة وهي ثلاثة أصناف : نوع تخص الرأس وآخر الجذع وثالث تخص الأطراف . فهناك الأقراط والخواتم والدمالج والقلائد والخلاخل وغيرها .

مرت سنة على الخطبة وحان أوان الزواج وقد تمت التحضيرات لذلك وحدد موعد وليمة النكاح وكان يوم جمعة كما هي العادة .

وجهت الدعوة إلى كل قريب وحبيب وشقيق وصديق ومن جملة هؤلاء كبار الدولة من علماء ووزراء وقواد . كما أنني دعوت بعض شيوخي الذين أعلم أنهم يحضرون مثل هذه المناسبات وإلا فالآخرون لا يحضرون الولائم إطلاقا . كما استدعيت بعض أصحابي ، وكان الولد بدر الحبشي رسولي إلى هؤلاء جميعا . جاء يوم الحفل وقد أسرجت السرج في حينا وعلقت الأعلام وبيضت الجدران. بدأ المدعوون يصلون وكان الوالد يستقبلهم كما كانت الوالدة تستقبل نساءهم فتودعهن أمكنتهن . وكانت دارنا تسمح باجتماع النساء والرجال من دون اختلاط .

الدار مربعة ، وكل ضلع مستقل عن الأضلاع الأخرى ولا يربطه بغيره إلا بابه الذي يفضي بك إلى بهو شاسع هو حظنا من السماء والماء والهواء والضوء . وفي وسطه نافورة رخامية ينسال الماء من أنبوبها بلطافة . كانت الغرف تضج بالمدعوين . وفي بُرطَال البهو نصبت منصة لجلوس أفراد الجوقة الموسيقية. كانت العادة مستحكمة

في الإشبيليين خاصة وأهل الأندلس عامة في دعوة مثل هذه الأجواق . وقد استحكم هذا اللون من الغناء منذ أن أدخله الإمام زرياب فصارت الآلات الموسيقية لا تعد ولا تحصى مثل الخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والفنار والزلامي والشقرة والنورة ، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق والدف وغيرها إلى جانب آلات بر العدوة .

استدعى الوالد أحد أئمة هذا الفن وهو الإمام أبو الحسين علي بن الحمارة تلميذ الفيلسوف ابن باجة. وكان خاتمة هذا الفن في بلدنا . فأتى الشيخ المذكور ومعه قيانه وعازفوه فجلسوا وأخذوا أمكنتهم في برطال البهو. ثم أبرزوا أدواتهم ومعازفهم من عيدان وغيرها . وأخذ أبو الحسين عوده وكان يقطع العود من شجر الشعراء المعروف أيضا بأم الشعور ثم يصنع منه عوده ويركب عليه الملاوي ويربط الأوتار . ضم العود إلى صدره وكان بديعا في إنشائه وله خمسة أوتار بألوان مختلفة . وتلك عادة استحكمت منذ أن استخرجها الإمام زرياب حين أضاف الوتر الخامس للعود . وكان زرياب عالما بالنجوم والأقاليم وأقسامها والطبائع والأمزجة إلى جانب حفظه لأكثر من عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها . كما كان زرياب جامعا لأنواع الأدب وفنون المعاشرة والمجالسة وصنوف الخدمة الملوكية مما لم يكن لأحد غيره . بل لقد سن طرقا في اللباس والمأكل لم تكن معروفة من قبل وصارت عنوان الذوق عند كل لبيب أريب. وأدخل

طريقة في تسوية شعر الرأس وفي إزالة ريح الصنان من المغابن، كما سن الأكل في آنية الزجاج الرفيع بدل آنية الذهب والفضة وغير ذلك من المستحدثات.

بدأ ابن الحمارة بنقر أوتار عوده لتسويتها، وكانت الأوتار من حرير لم يغزل في ماء ساخن حتى لا يكسبها أنوثة ورخاوة. وكان البم والمثلث من مصران شبل أسد لأن لها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها ولها قوة على تحمل وقع المضارب.

كنت جالسا مع الضيوف فسألني أحد الكتاب الذين يعملون معي في الديوان عن السبب الذي حمل زرياب على إضافة الوتر الخامس، فقلت له: نعم، لقد كان العود على أربعة أوتار وقد قابلت الطبائع الأربع. فأضاف زرياب وترا خامسا أحمر اللون. وكما ترى الآن على عود أبي الحسن، فالزير قد صبغ بالأصفر لأنه يقابل الصفراء والوتر الذي يليه أحمر اللون لأنه بمنزلة الدم من الجسد، وهو ضعف السابق في الغلظ ولهذا سمي بالمثنى. أما المثلث فقد عطل من الصباغة وبقي على بياضه لأنه يقابل البلغم من الجسد، وهو ضعف المثنى في الغلظ ولهذا سمي بالمثلث. أما الوتر الرابع فكما ترى فإن لونه أسود لأنه وضع مقابل السوداء وسمي بالبم وهو أعلى وتر في العود. فهذه الأوتار الأربعة تقابل الطبائع الأربع. فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب. أما الزير فحار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب. فقوبل كل طبع بضده حتى اعتدلا واستويا كما هو الشأن بأخلاط الجسم إلا أن هذه الأخلاط لا تقوم إلا بالنفس والعود بأوتاره الأربعة عاطل عنها كما في

الصنعة القديمة ، لذا أدخل الإمام زرياب هذا الوتر الخامس الذي يقوم مقام النفس وصبغه بالأحمر لأن النفس مقرونة بالدم ، وجعله تحت المثلث وفوق المثنى. فقوي العود ودبت فيه أنفاس الحياة بهذا الوتر الخامس.

بادرني صاحبي قائلا : ياله من إمام فذ ، ومن كان يقع بباله مثل هذا .

هو كذلك .

أكمل ابن الحمارة تسوية العود فاستهل بمعزوفته الشهيرة والتي من نظمه وتلحينه:

إذا ظن وكرا مقلتي طائر الكرى رأى هدبها فارتاع خوف الحبائل

تعالت الأصوات بالهتاف والطرب لبراعة النظم وحسن الأداء. ثم جاء دور القينات في الغناء . وكان أئمة هذا الفن يبذلون جهدا كبيرا في تربيتهن وتعليمهن أصول الأدب والغناء وحسن الحديث والمجالسة . نقرت منعة عودها وغنت بكلام سار أشرد من مثل :

يامن يغطي هواه من ذا يغطي النهارا

قد كنت أملك قلبي حتى علقتُ فطارا

يا ويلنا أتراه لي كان ، أو مستعارا

وكانت رائعة الجمال غاية في الإحسان والنبل وطيب الصوت ثم أردفت :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما أبدت من مفاتن صوتها أعشارا ولمحت لصاحبها عيانا، رفع أبو الحسين صوته وغنى فأطرب وبتنا في سهر وطيب عيش وحديث أدب أنساني ، ولو لساعات ، أيام دهر زهدت فيها في الدنيا وطيبها . لم أشعر بالعتب ولا بالذنب من مظاهر هذا الحفل البهيج لأنه يوم عيد ، وقد رخص للإنسان بالإستمتاع بالطيبات من الشرب والأكل والغناء . فكان هذا اليوم درة يتيمة في أيام دهري حيث تنسكت قبل الأوان وزهدت في الدنيا ونعيمها وعزفت عن النساء حتى رأيت مريم فصالحتني مع بنات حواء وأوقفتني على حديث " حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة" .كانت هذه الخواطر تروح وتغدو في ذهني وأنا أستمتع بهذه اللحظات المسروقة من عمري حيث كنت أعلم أنها من الإحماض الذي يملح تفاهة المذاق وحرافته في هذه الدنيا .كنت أعلم أني مختار لغير هذا فقد جذبت عني إليه، فأين لي بي عنه ؟

طرب الوالد وكبار رجال الدولة لهذه الليلة الليلاء التي قل نظيرها وعز مثيلها لما احتوت عليه من صنوف المطاعم وطيب المآكل وفاخر اللباس وجميل الصوت وحسن المكان ورفقة أمينة مأمونة . فاكتملت عناصر الفرجة والفرح والسرور والسلوان . وطربت جموع النساء التي حضرن، كما فرحت مريم فرحا كبيرا بليلتها رغم ما يصاحب هذه الليالي من مشقة وتعب، إلا أن التأففات لم يتركن لها التهمم بأمر الحفلة. فقد كان تدبيرهن عاليا .

انفض المجلس حتى ساعة متأخرة من الليل ، ودخلت الخدر خدر مريم بعد سنة من الإبطاء. فأسلكت مرودي في مكحلة الرحمة فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر.

أنوار القاف

مرت السنوات وكثرت سياحاتي في بلاد الأندلس لزيارة الشيوخ. وكنت دائما أشرئب إلى هذه السياحة . وكنت أعلم أني سأرى المشرق بل سأعيش فيه نصف حياتي في هذه الأرض . ولهذا كنت متطلعا للأخبار التي تأتينا من هناك وخصوصا استعادة صلاح الدين لبيت المقدس . ومع ذلك فقد أساء حين لج عليه الفقهاء. فأمر بقتل شيخ الإشراق شهاب الدين يحيى السهروردي صاحب الحكمة الإشراقية ومايقرب من خمسين كتابا . والسهروردي رغم حقته بقيت عليه زعانف النظر. وقد كان صديقا لابن صلاح الدين الأيوبي ، الملك الظاهر الذي كان يحكم حلب. وكانت الشيعة الإسماعيلية متهمة بتفكيك وحدة المسلمين ضد أعدائهم من النصارى وحملاتهم الصليبية . وقد فهم الفقهاء مؤلفات شيخ الإشراق في سياق مذهب الإمامية الإسماعيلية ، ولهذا اتهموه بالزندقة وأمروا بقتله. وبدل أن يغادر حلب فإنه أصر على البقاء والدفاع عن مذهبه معتقدا في صاحبه. لكن صلاح الدين تدخل ثلاث مرات ليصد ابنه عن الدفاع عن شيخ الإشراق، وهكذا مات في قلعة

حلب في عام 587 عن سن السادسة والثلاثين رحمه الله وغفر له . وقد أخبرني بخبره الفقيه الأديب محمد بن جبير الذي قام برحلات متعددة إلى المشرق . الأولى كانت بقصد الحج ، أما الثانية فكانت بذلك القصد وأيضا لما شاع الخبر عن فتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن غازي الأيوبي . فقوي عزمه على إعمال الرحلة الثانية فابتدأها عام 585 ثم آب إلى الأندلس عام 587 . وقد التقيته بغرناطة فحكى لي خبر رحلته وما جرى للسهروردي مع السلطان صلاح الدين . وقد أسر لي بأنه لم يكتب عن هذه الحادثة في رحلته ، وإن كان ذلك مما حز في خاطره ولكنه اغتفر هذه الفعلة للسلطان لما عامله به من بر وإحسان . ثم إنه رأى أن ذلك من باب دفع مضرة خير من جلب مصلحة . فالسلطان كان في حاجة إلى مناصرة الفقهاء له لما تفاقمت حملات الصليبين . وقد أدخل الأديب الفقيه ابن جبير بعض كتب الشهاب المقتول إلى بلاد الأندلس وأطلعني على بعضها وخصوصا كتابه الموسوم بالحكمة الإشراقية . ويظهر من خلال هذا الكتاب والكتب الأخرى التي طالعتها أن شهاب الدين السهروردي كان واسطة بين المذاهب الفلسفية العقلية والعقائد العرفانية . فقد ازدهرت الفلسفة المشائية مع ابن سينا ، ثم تم انتقادها في ذلك العهد وبعده من جانب بعض الفقهاء. حتى إذا كان القرن الرابع الهجري سلط عليها علم الكلام الأشعري جام غضبه منذ أبي الحسن الأشعري وبعد ذلك أبو بكر الباقلاني . ولكن الوضع السياسي لم يكن يسمح بتحطيم المشائية إطلاقا لأن الخلافة العباسية كانت مقيدة الحركة ،

إذ جل الأمراء المحليين كانوا شيعة ولهم ولع كبير بالعلوم العقلية . ولهذا ازدهرت هذه العلوم والفلسفة في هذه القرون. لكن الوضع السياسي تغير فجاء السلاجقة في القرن الخامس وكانوا أنصار المذهب السني والخلافة العباسية فأعادوا توحيد المقاطعات الإسلامية تحت نفوذ سياسي موحد وإشراف ديني عام للخليفة في بغداد . آنذاك تلقت مدرسة الكلام الأشعري دعما قويا من الساسة الجدد مما مهد الطريق لظهور أبي حامد الغزالي الذي سخر كل مواهبه وقدراته العقلية والنقلية في تقويض صرح الفلسفة لأنه لم تجد اليقين إلا في الإحسان بعد محنته الروحية فكان ذلك سببا في إنقاذه من الضلال. فقد حد الإمام الغزالي من قوة العقليين من جهة، وأدخل التصوف للأوساط الفقهية والكلامية وصار مقبولا ومكرما ، بل أصبح يدرس في كثير من المدارس على الرغم من ظهور بعض العلماء من حين لآخر ليهاجموا التصوف. إلا أنه لم يكن لأصواتهم صدى يذكر . وهكذا بدأت الفلسفة المشائية مع الغزالي تدخل طور الأفول في المشرق الإسلامي ، واتجهت نحو صقعنا المغربي وخاصة الأندلس فتعهدها فلاسفة من أمثال ابن باجة وابن طفيل وخاصة الإمام ابن رشد . لكن أثره ظل ضعيفا ، وقد سافرت كتبه إلى بلاد الروم في الشمال كباريس وغيرها وأصبحت تدرس في جامعاتهم كما أخبرني بذلك صاحبي إسحاق اليهودي نقلا عن قريبه ابن يونة الأندلسي في رحلته . ومع تلاشي الفلسفة المشائية في المشرق ظهرت العقائد الإشراقية مع شيخ الإشراق المقتول فبزغت وازدهرت هناك . ولم يبق من الفلسفة إلا المنطق الذي استمرت دراسته.

أما عند الشيعة، فقد امتزجت الحكمة عند الإشراقيين بفلسفة ابن سينا وبالعرفان واصطبغت بطابع التشيع. فكانت الواسطة بين الفلسفة والعرفان المحض.

وقد ذكر لي أبو الحسين بن جبير أن الفخر الرازي قد درس سويا مع السهروردي: وأن الحكيم الشاب كان كثير الرحلة، وقد قابل عدداً كبيرا من شيوخ الصوفية وأخذ عنهم. وكان مكثرا من الخلوة والتفكر. وقد دعاه الملك الظاهر الذي كان تحب الصوفية والعلماء إلى الإقامة ببلاطه بحلب، فقبل دعوته لمحبته في تلك الأقاليم. ولكن حدة شبابه دفعته إلى إفشاء عقائده أمام كل المجالس وكان كثير الجدال درب اللسان حاد النكتة، وقلما يسلم أحد من خصومه من انتقاده. بل إنه كان ينتصر دائما عليهم فيقارعهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل فيهزمهم. كل هذه الأسباب أدت إلى حنق الكثيرين عليه فصنعوا له عدة تهم أدانوه بها وقدموها للملك الظاهر فرفضها. فأغروا صدر السلطان صلاح الدين الذي كان قد استعاد الشام من الصليبيين. وكان تأييد العلماء له أمرا هاما فرضخ لمطالبهم، فأودع الحكيم الشاب السجن ومات دون أن يعرف السبب في قتله. الحق أن الشهاب سار على نهج الحلاج حيث سكرا فصاحا بسكرهما، فلم يصح لهما الإحتجاج لأنه لا حجة لفاقد العقل. ومع ذلك، فمصادر السهروردي تبقى الحلاج والغزالي من خلال كتابه مشكاة الأنوار. فكان النور المقصود عنده هو الإمام. لكنه كان تخلط كلامه بكلام الفلاسفة من أمثال ابن سينا وغيره، كما كان يظهر عنده أفكار ومذاهب فيثاغورية وهرمسية وديانات الفرس القديمة. بل كان يعتبر

الفلاسفة صوفية . لكن هذا البناء العام لم تخرج الرجل عن دائرة الإسلام ، فقد صاغ كل هذه المذاهب وأولها في إطار الدين القيم المهيمن على سائر الأديان والشرائع والعقائد .

كان صاحبي بدر الحبشي حاضرا معي لما أخبرني الأديب الفقيه ابن جبير عن قصة السهروردي وشوقنا برحلته تلك . فلما انفردنا سألني بدر سؤالا وجيها وعميقا عن معنى الإشراق.

فقلت : يا ولدي ، الإشراق عند هذا الشيخ قائم على الإستدلال البحثي والحدس العقلي. وبعبارة أوضح، إن فهم معنى الإشراق منوط بمعرفة طبقات الناس في الوصول إلى الغاية ، ويقسمهم إلى أربع طبقات . فهناك طبقة الطلبة الذين بدأوا تحسون بظمأ المعرفة فأقبلوا على البحث عنها . ثم هناك طبقة حازوا أشكال المعرفة والإستدلال ولكنهم لم يشموا رائحة العرفان كالفارابي وابن سينا . وثالثا هناك طبقة لم يقتنعوا بهذه المعرفة الشكلية الإستدلالية فوصلوا درجة الحدس العقلي والإشراق الباطني ويعد منهم البسطامي والحلاج والنستري. وأخيرا هناك الطبقة العليا ويدرج نفسه فيها مع الحكيم أفلاطون وفيثاغورس، ويسمي صاحبها الحكيم المتأله.

هنا قاطعني بدر قائلا : من الملاحظ يا سيدي أن كلمة "إشراق" لها علاقة بالشرق أي بالحيز الجغرافي والجهة التي تشرق منها الشمس ، أي هناك علاقة مع النور . وأنت يا أستاذي كثيرا ما تكلمني عن أهل الأسرار وأهل الأنوار, فأيهما أعلى ؟

فقلت : لقد جنحت بك الهمة إلى جوهر المسألة يا بدر . فعلا، إنني كثيرا ما كلمتك عن أهل الأسرار وكون فتحهم أعلى من فتح أهل الأنوار لأن هؤلاء لا يكتمون لحكم أن النور طافح وغالب بسلطانه عليهم . ولهذا امتحنوا وعذبوا وقتلوا وصلبوا كما جرى للحلاج رحمه الله لأن من شأن صاحب الأنوار الإيضاح والإفصاح ولهذا لا يكون منهم الختم الذي هو مخصوص بأهل الكتم من أصحاب الأسرار، أي أهل المغرب . ومع ذلك أقول، إن الشرق عند الإشراقيين تحول البعد الإسراني الأفقي إلى بعد معراجي عمودي . فالشرق عبارة عن عالم النور المحض أي عالم الملائكة المجرد عن كل كثافة . وفي اصطلاحه، الغرب هو عالم الظلام أو المادة على عكس ما نقول نحن من أنه عالم العماء الذي وجد فيه الكون ، وهو أعلى لأن الله سبحانه يقول "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا" فخصه بالليل لكرامته وعلو مرتبته . ولهذا فنحن لا نوافقه فيما ذهب إليه في قصته "الغربة الغربية" والتي يرمز فيها إلى هبوط الإنسان إلى العالم المادي الكثيف ونفيه إلى المغرب المظلم حيث سقط في بئر بمدينة القيروان. لقد فهم الحكيم السهروردي المغرب سلبا ولم يعلم أن فتح المغرب لا يدانيه فتح. فالكتمية الختمية أرفع من الإشراقية الإذاعية . ثم أنبهك يا ولدي إلى أن سيدنا داود عليه السلام بيده ميزان النطق وميزان العدل . وكما قلت لك مرارا . فبرج الميزان هو أول البروج ظهورا . وله الأولية الغيبية في مقابل برج الحمل الذي له الأولية الشهادية. فعند بداية حكم الميزان الغيبي بدأ حكم الميزان لأن شيخ الإشراق يقول في كتابه "حكمة الإشراق" بأنه هبط عليه فجأة

عن طريق روح القدس "في وقت كانت السيارات السبعة مقترنة في برج الميزان" إشارة منه إلى ما ذكرته لك عن ظهور الحقيقة الأحدية .

وماذا يقصد بنور الأنوار ؟

إنه يعني بذلك الذات الإلهية التي تبهر الأبصار بنورانيتها ، فهي مصدر الوجود. والكون كله درجات من ظلمة ونور .فبإشراق النور المطلق الأول تظهر الأشياء . وتنسم أشعة هذا النور هو مدد الحياة الساري . أما نحن ، فقد أخبرنا بأن الوجود مرده إلى تنسم عبير نفس الرحمن . فبسريان هذا النفس الرحماني وجد الوجود القائم بالوجود .

كثيرا ما كنت أتردد على خزانة جبل ق ، وبعض كتب السهروردي قد رأيتها هناك فطالعتها . ولكني كنت مهتما بورود منازل الخزانة المختلفة ، فعرجت عليها وأقمت فيها حتى استوفيتها .

مبايعة القاف

كانت زياراتي لخزانة جبل ق تعقبها مرائي ومبشرات عظيمة كتلك التي أشهدني الحق فيها أعيان رسله كلهم من آدم إلى محمد صلى الله عليهم جميعا ، في مشهد أقمت فيه في قرطبة سنة 586 . ولم يكلمني من تلك الطائفة إلا هود عليه السلام، فإنه أخبرني بسبب جمعيتهم وبشرني بأمر عظيم. لقد قضيت هذا العام في الخلوات

والأذكار وقد دامت إحدى هذه الخلوات تسعة أشهر كأشهر الحمل . فقد حملت بالحقائق التي حققتها في جبل ق . وقد بشرت على إثرها بأني ختم الولاية المحمدي. وقد كان اجتماع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجل تهنئتي بهذه المرتبة العلية السنية . لقد رأيت هذه الرؤيا في قرطبة حيث كنت مع والدي، إذ أن الخليفة المنصور تحرك إليها من طريف غرة جمادى الأولى عام 586 ووصلها آخر الشهر ثم حاصر شلب وذهب للزهراء بقصد الإعتبار . وكنت مع الوالد في ركب الأمير. وفي هذا اليوم أمر المنصور بقلع صورة الزهراء التي كانت على بابها واتفق أن جاءت ريح قوية قطعت طنب ساقة الركب . فأرجف الجهال من عوام قرطبة أن ذلك بسبب صنم الزهراء وأنها كانت طلسما عليها . فلم يأبه المنصور لجهالة العامة واستمر في جهاده . ولقد جمعت وقتها بين الشيخ القبائلي والوالد فدعا له . ثم عدنا إلى إشبيلية مع ركب الخليفة في الحادي عشر من جمادى الثانية.

تتالت علي المبشرات ، وفي عام 589 توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله. وقد كانت سيرته حميدة وأخلاقه عالية وهمته إحسانية. ولقد طلب عون الخليفة المنصور ليمده بالأسطول الموحدي ، لكن المنصور لم يفعل لأن الموحدين كانوا في الواجهة مع الصليبيين . فلم يكن بالإمكان إضعاف القوة البحرية، وجل القوات الصليبية كانت تعتمد على البحر . كما أنه كانت للأيوبيين أطماع في المغرب. فقبل معركة حطين الحاسمة أمضى صلاح الدين بعض الترتيبات الإدارية والإستعدادات العسكرية في مصر وبلاد الشام . وكان من نتيجة ذلك أن قام تقي الدين عمر

بن شقيق صلاح الدين وقرر التوجه إلى المغرب والسيطرة عليه وإقامة ملك فيه .
وكان تقي الدين من أبرز رجال دولة صلاح الدين وقادة عسكره ومشورته
وقد خاطبه السلطان قائلا :"لعمري إن فتح المغرب مهم ، لكن فتح بيت المقدس
أهم . والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم . وإذا توجه تقي الدين
واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في اقتناء الرجال ، وإذا فتحنا القدس
الساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل " . وقد وقع هذا الكتاب بيد الأمير يعقوب
المنصور فكان على حذر من الأيوبيين . وبعدما كاد يمدهم بقطع من الأسطول
البحري لكسر شوكة الصليبيين ، تراجع عن ذلك لما رأى أن السلطان صلاح الدين
يتحدث عن فتح المغرب الذي هو بيد هذه الفئة المسلمة، ولم تخلص لهم إلا بعدما
قهروا الفرنجة في عقر دارهم ويقارنه بفتح بيت المقدس الذي هو بيد النصارى .
ومسألة فتح المغرب في نظره منوطة بالوقت ، وهذا مما غاض الموحدين ، وهم من
هم في نصرة الإسلام والتوحيد.

على كل ، فالسياسة لها منطق تمليه الأحداث وتغير الأحلاف والمصالح ، فلا يقر
الإنسان على رأي واحد . فالمحافظة على المصالح تؤدي إلى بعض المطامح التي لا
ينجو منها إلا فاضل أو صالح .

ومع ذلك فالرجل كريم وأخلاقه عالية وصفاته محمودة مرغوبة ، وقد بلغني من
الفقيه ابن جبير عن خصاله الشيء الكثير وكيف أنه رفع المكوس التي كانت على
الحجاج المغاربة وبر بهم بالغ البر . وقد وصلت سيرته إلى صقع نصارى الشمال

فحاكوا حوله الأخبار والحكايات والأسمار . فقد حدثني أحد الأعلاج وكان من شعراء الفرنجة المنجولين فأسلم، قال : لقد وضع أخباريوا النصارى الحكايات عن السلطان صلاح الدين ، ويزعمون أنه قد تواعد مع ريتشارد قلب الأسد لتزويج أخته بشقيقه الملك العادل . والأغرب من هذا ما يروجون له من أخبار من أن صلاح الدين من طائفة مسيحية سرية . وأن إحدى ملكات فرنسا كانت تحبه . وأن هذا منتهى الشرف عندهم لأن الدم الملكي عندهم من أصل إلهي. ولم يسبق أن أحبت ملكة كاثوليكية مسلما يدين بالملة الحنيفية. وهذا دليل على رفعة الرجل حتى في عيون الخصوم ، والحق ما شهدت به الأعداء . وقد ذكر لي ابن جبير أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة في مصر خبزتين لكل واحد في كل يوم ، وقد ينتهي في اليوم إلى تفريق ألفي خبزة أو أزيد. فمناقبه رحمه الله كثيرة ومفاخره لا تعد ولا تحصى من عدل ورفق وكرم وسماحة ودفاع عن بيضة المسلمين.

وفي هذه السنة أمر المنصور باختطاط حصن الفرج خارج إشبيلية لينزل فيه المجاهدون رهبة لقلوب الروم ، فكان كالشوكة في حلقهم حيث كان بتاج الشرف يتحكم في نهرها وجبلها

خضرة القاف

توالت زياراتي للشيوخ والعلماء. فقصدت الجزيرة الخضراء وحين وقفت صوب بحر الزقاق عزمت ألا أعبر حتى أرى أحوالي الباطنية والخارجية التي وهبني الحق

سبحانه. فرددت همتي لداخلي وركزت فكرتي وراقبت حركاتي كلها فأراني الحق كل أحوالي القادمة حتى آخر رمق من حياتي . ورأيت أصحابي وأحوالهم وعلومهم وأذواقهم ومقاماتهم ومكاشفاتهم وتجلياتهم . فقطعت البحر بالتمييز واليقين . فتحقق هذا المشهد كما رأيته . وقد وقع لي هذا في الجزيرة الخضراء. ويذكر أن في هذه الجزيرة كان الخضر مع موسى وفيها بنى جدار اليتيمين. وقد رافقني في رحلتي هذه صاحبي بدر الحبشي فالتقينا بابن طريف تلميذ أبي الربيع المالقي من مدرسة ألمرية، وابن المجاهد . وقد كانا تلميذين للشيخ ابن العريف. وحين وصلت إلى سبتة أخذت صحيح البخاري عن الشيخ عبد الله الحجاري في شهر رمضان كما أخذت عن غيره هناك . وكان تحضر الدروس قاضي المدينة الذي ربطتني به صداقة قوية وكان رجلا فاضلا عادلا . من سبتة يممت صوب تلمسان ثم تونس لزيارة الشيخ عبد العزيز المهدوي خليفة الشيخ أبي مدين . وقد جاءني أحد الأبدال وأخبرني بهذه السياحة ودقائقها المختلفة فتحققت كما هي. لم أتمكن من رؤية الشيخ أبي مدين الذي درج في آخر هذه السنة فزرت قبره في تلمسان بداية عام 590 وهناك التقيت بالشاعر الصوفي أبي يزيد الفزازي والولي الصالح أبي عبد الله الطرطوسي الذي كان ينكر على الشيخ أبي مدين فتغيرت عليه من أجل ذلك ثم رأيت رسول الله مناما فعاتبني على تغيري على أبي عبد الله ونبهني إلى أنه يحب الله ويحب رسوله، فعلي أن أحبه لحبه لله ورسوله . فأوقفني صلى الله عليه وسلم على هذه المسألة . فلما كان الغد أتيت الرجل وأهديته بعض الهدايا

الفاخرة وشيئا من الذهب وأخبرته بما جرى فبكى من أجل ذلك ثم زال عنه إنكاره للشيخ أبي مدين .

وصلنا إلى تونس التي تحيط بها السهول من كل جانب وقد زرعت جنباتها بالقمح والشعير . مليئة بسكان القرى المجاورة كما يرتادها الغرباء من البلدان القاصية ولها ثلاثة أبواب . أما البساتين والحدائق فتوجد داخل المدينة . طال بنا المقام في تونس قريبا من عام حيث كنا صحبة الشيخ عبد العزيز المهدوي وشيخه ابن خميس وهو من أصحاب الشيخ أبي مدين . وقد زرت أبا محمد عبد الله بن خميس الكناني حافيا على القدمين على الرغم من شدة الحر تأسيا بشيخي أبي يعقوب الكومي وأبي محمد المورروري اللذان زاراه على تلك الحال . وكان جرائحيا يسكن في مرسى عيدون . ولم يكن صاحبي عبد العزيز المهدوي يعلم مقام شيخه ابن خميس الذي طلب مني أن أكتم عنه ذلك . وقد جهل المهدوي أحوالي حين وصلت تونس كما جهل أحوال شيخه حيث كنا نستتر عن ذلك وخصوصا لما أنشدت أمامه :

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني

ولم تكن تلك الأبيات من بنات الشطح كما حصل للحلاج الذي قال أنا الحق حيث قلت :

فمن فهم الإشارة فليصنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان

كحلاج المحبة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتداني

فقال أنا هو الحق الذي لا　　　　يغير ذاته مر الزمـان

فلما فهت بالأبيات أنكر من في المجلس ذلك وخاصة المهدوي . أما الشيخ ابن خميس فقد تكاشفت معه علانية في حضرة عالية.

ولقد تعرفت على الخضر في تونس ذات مسا. وأنا في مركب على البحر قد أصابني وجع في بطني فرأيت عن بعد رجلا يمشي فوق الما. حتى وصل إلي ثم خاطبني بكلام خاص ولم تكن قدماه مبللتان ثم انصرف صوب المرسى حيث يسكن الشيخ ابن خميس الذي كنت عنده ذلك المسا. . وعلى الرغم من موقف المهدوي نحوي ، فإني كنت أحبه محبة خاصة حيث كتبت بعد ذلك كتابي روح القدس والفتوحات المكية من أجله . وكتبت في مناقبه كتابا خاصا .

صاد القاف

في سن الثلاثين دخلت أرض الله الواسعة التي كنت أتردد عليها في جبل ق وأدخل منازلها الواحد تلو الاخر وخاصة منزل الرموز الذي تحتوي على منازل كثيرة . وقد حصل لي هذا في تونس فصحت صيحة صعق منها كل من سمعها من رجال ونسا. وأطفال ، بل إن بعض من كانوا في أسطح الدور سقطوا إلى صحن دورهم من هول ما سمعوا ، ولم تحصل لهم ضرر بسبب ذلك . وكنا في الصلاة خلف إمام فكنت

أول من أفاق وسألت الناس عن شأنهم فقالوا : أنت ما شأنك، وأخبروني بالصيحة . فقلت : والله ما عندي خبر أني صحت . ففي الأرض الواسعة تجلى علينا الحق سبحانه وتعالى بالآية الأربعين من سورة العنكبوت "فأخذتهم الصيحة" وتحققنا بالعبودية المحضة وحصلنا وراثة العلوم المحمدية في هذه المدينة بعد ساعة من الذكر فنطقنا بتلك الأبيات التي أنكرها صاحبنا المهدوي رغم رسوخه في الولاية .

أرضُ الله الواسعة التي دخلنها في تونس هي الأرض التي خلقت من بقية خيرة آدم عليه السلام ، فهي أرض الحقيقة . لما خلق الله آدم فضل من خيرة طينته فضلة خلق منها النخلة التي هي أخت لآدم وهي لنا عمة ، وقد سماها الشرع بذلك وشبهها بالمؤمن . ثم فضل من الطينة بعد خلق النخلة مقدار السمسمة في الخفاء. فمد الله في تلك الفضلة هذه الأرض الواسعة التي تجمع العرش والكرسي والسماوات والأرضين والجنة والنار . وأمر هذه الأرض غريب عجيب . ولما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر ، أنفاسها رحمانية إلهية . كما دخلت أرضا من الذهب الأحمر اللين علومها من المعرفة الذاتية ، وأخرى من الفضة البيضاء مخصوصة بتجلي الصفات . وفيها أراض من كافور وزعفران ، وفيها مدن غاية في الشكل والصورة تسمى مدائن النور وعددها ثلاث عشرة مدينة فيها التراب والماء والهواء والنار . كما تعلوها أفلاك السماوات السبع وفلك النجوم الثابتة وفلك البروج . وعلى هذه المدن ملوك كالمنافذ تجلبون المصالح والمعارف. دخلت أرضا فيها نهر من تراب له جريان كالماء وفيه حجارة صغيرة وكبيرة تجري

لبعضها وحين تجتمع وتتألف فيما بينها تكون سفينة تجري في ذلك البحر. وهذه السفينة غالبا ما تكون رائعة الحسن والجمال وهيئها سماوية وقائد السفينة اسمه يوسف.

لقد كان تحققنا بالوراثة للعلوم المحمدية نتيجة دخولنا لهذه الأرض الواسعة . ولما استكملت هذه الوراثة عدت قافلا صوب بلدي حتى وصلت برا إلى قصر مصمودة إلى الغرب من سبتة ومنه أبحرت صوب طريف ثم إشبيلية حيث وقعت لي حكاية غريبة. حينما كنت في تونس نظمت بعض الأبيات أمام مقصورة ابن المثنى في الجامع الأعظم بتونس ، ولم يعلم أحد بتلك الأبيات ، فلما وصلت إلى إشبيلية أنشدنيها شاب هناك. فسألته كيف تلقاها ؟ فأخبرني بأن رجلا جاءه وهو مع أصحابه وأنشدهم تلك الأبيات وقال لهم: إن محمد بن العربي ينشدها الآن في تونس . فلما أعجبتني حفظتها . فعلمت أن ذلك الرجل كان من الأولياء العشرة المسمون برجال الغيب حيث يسمعون دبيب الفكرة في قلب صاحبها ، فإذا وقفوا على ذلك أذاعوه كما حصل لي .

بكاء القاف

وقد لحق بي الوالد في تونس حين ظهر أمر الأشل في بلاد الزاب حيث دعا لنفسه وبايعه كثير من أهل تلك الجهات من السفلة والغوغاء والغرباء . وكثر في البلاد ضرره ، فاحتال السيد أبو زكريا والي بجاية في الإمساك به وتسخير قبائل الأعراب

لذلك فأتوا به وكان معتما بعمامة خضراء ويتكلم بلسان حضري فضرب عنقه وعنق وزيره وعلق رأسه على باب بجاية مع ذراعه وعضده . ثم إن الخليفة المنصور قرر غزو إفريقية لما استفحل أمر الأعراب بها بعدما أخبره بذلك واليها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ، فأرسل الخليفة إلى ولاة الأندلس يطلب المدد والعدد ، فكان الوالد في زمرة من حضر . وكانت فرصة التقينا فيها وعرفته بالشيخ عبد العزيز المهدوي . ثم عاد سريعا بعدما غدر ملك قشتالة اللعين بالمسلمين لما علم بخروجهم إلى إفريقية فأعجله المنصور بالرجال من بلاد المغرب وصرف وجهه إلى الأندلس لمحاربته . ومباشرة بعد وصول الوالد ورجوعي من رحلتي عاجلته المنية وكان حادثا مؤلما . فقد أحسست بفراغ كبير لأن الوالد رحمه الله كان يكفيني أمور دنياي . فلما غاب أحسست بما كان له علي من الأيادي البيضاء وعلى والدتي وأختي . ومع ذلك فقد أحسست بسعادة كبيرة لأني تمكنت بعون الله من ترقيته وإلحاقه بدوائر الصالحين بعدما كان يصدني في بداية أمري عن هذا الأمر. وهكذا ترقى إلى أن أصبح من رجال نفس الرحمن . ومن خصائصهم أنهم وهم أموات ترى عليهم معالم الحياة ، فتبقى في وجوههم صورة الأحياء ، وقد حصل ذلك للوالد حتى شككنا ونحن نواريه التراب في ذلك لولا أن مجس عروقه غير نابض ولكن وجهه مملوء بالحياة . وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته يوم الأربعاء. وكذلك كان ، فلما جاء الموعد وقد كان مريضا قبل ذلك ملازما للفراش ، استوى قاعدا في اليوم الموعود وقال لي : يا ولدي ، اليوم

يكون الرحيل واللقاء. فقلت له: كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقائك، فسر بذلك كثيرا، وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيرا. كل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه، وربما كنت أنكر بعضه، هو ذا أنا أشهده. ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، لها نور يتلألأ. فشعرنا الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه فتبلته وعادعنه وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك. فقال لي: رح ولا تترك أحدا يدخل علي. وجمع أهله وبناته، فلما جاء الظهر جاءني نعيه. فجئت إليه، فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت. وعلى تلك الحالة دفناه. وكان له مشهد عظيم. فسبحان من تخص برحمته من يشاء.

ولم تلبث الوالدة أن لحقت به بعد أشهر قليلة. وكانت امرأة صالحة كنت أصطحبها معي لزيارة كثير من العارفات الصالحات خاصة نونة فاطمة بنت بن المثنى المفتوح عليها بفاتحة الكتاب. وكذلك ياسمينة شمس أم الفقراء وزينب القلعية. بعد رحيل الوالد والوالدة تبين لي عظم مسؤوليتهما، فسقط في يدي خصوصا لما أراد أقاربي صرفي عما أنا فيه من الخمول والزهد في دار الفناء. وذكروني بمسؤوليتي إزاء الأختين أم العلاء وأم السعد. وكان الوالد قد وعد أبا العلاء بن السائب بن عزون شيخ القواد والرؤساء بالأندلس والمستشار الناصح للدولة المهدية، بالمصاهرة لما خطب شقيقتي الكبرى أم السعد. لكن أبا العلاء توفي هو الآخر في نفس العام.

في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة كانت إجازة أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور البحر إلى الأندلس ووصل إلى إشبيلية . وقد طلب مني بعد هذا التاريخ حين عدت من فاس إلى الأندلس أن أصبح كاتبا له في ديوانه فامتنعت وتلطفت في ذلك . ثم اقترح علي أن يزوج الأختين فرفضت . وقد كان أحد الشيوخ وهو صالح العدوي البربري من رجال الإشتياق الخمسة قد أخبرني بهذا الأمر قبل وقوعه فوقع تماما كما ذكر من وفاة الخاطب والوالد وعدم حصول الزواج . وقد فعلت ذلك لأصرف نفسي وأسرتي عن أوساط الملوك والسلاطين إلى دائرة الصالحين. وهكذا تكفلت بهما ولم أذق الخل بعد العسل كما نصحني الشيخ العدوي . وما أعلمه عنهن يثلج الصدر فهما على جانب كبير من التقوى والعلم والأدب ، وبيني وبينهما حب كبير .

وتتابعت سياحاتي في بلاد الأندلس . ومرة وأنا على الساحل التقيت الخضر وأحد الأوتاد وهو أعلى منزلة منه . كانت سياحاتي حبلى بالمعارف والمشاهد والأنوار والأسرار ، فكان علي أن أضع محمول هذه المعارف عني وأخرجها إلى الناس. هكذا بدأت قصتي مع الكتابة أو لنقل مع الوجود المكتوب. فكان من أول ما كتبت كتاب مشاهد الأسرار القدسية وأرسلت بمقدمته إلى مريدي الشيخ عبد العزيز المهدوي وخصوصا ابن عمي أبا الحسين علي بن العربي لما رأيت من الإنكار والحيرة عليهم حين كنت أقول : قال لي الحق وقلت له وأشهدني الحق إلى غير ذلك من العبارات التي قد يشكل ظاهرها على عوام الصوفية بله الفقهاء.

وقد نحا هذا النحو قبلي أبو يزيد البسطامي والنفري . وهذا الكتاب العجيب في نظمه يتكون من أربعة عشر مشهدا زيادة على المقدمة التي بينت فيها وراثة الأولياء لعلوم الأنبياء وأحوالهم . وأكدت على أن الإنكار على إلهامات وأسرار الأولياء ليس له سند شرعي . والكتاب معراج روحي عبر منازل فواتح السور الأربع عشرة النورانية . والمدار في الكتاب على سورة يس التي هي قلب هذه المشاهد والتي رمزت لها بالفتى الياسيني أو الإمام المبين الذي أعطاني مفاتيح تلك الأسرار . وقد تبت على يدي عيسى عليه السلام لأن قلبه يس كما كانت قلب القرآن . كل مشهد تختص بفاتحة من فواتح السور الأربع عشرة حسب ظهورها في القرآن ابتداء من ن وانتهاء ب. ألمص . وعنوان الكتاب بالكامل هو مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية . وأعني بالمطالع هنا نجوم الآيات القرآنية من السور المفتتحة بالحروف النورانية المقطعة . فإذا طلع نجم الآية في قلب العارف يطفح بالنور الذي أتاه من تلك الآية القرآنية فتظهر له المشاهد المقدسة . وقد خصصت للمشهد الأول السورة ن والثاني لسورة ق والثالث لسورة حم عسق ، وهكذا . . .

كما كتبت كتبا أخرى في هذه المرحلة ككتاب تهذيب الأخلاق والتدبيرات الإلهية . وقد كتبت هذا الكتاب الأخير بمورور أثناء زيارتي لصاحبي أبي محمد الموروري، وألهمته في أربعة أيام . كما كتبت كتاب الإسراء . فقد انفجر ينبوع

الكتابة من السماء الثانية العيسوية والسماء الرابعة الإدريسية ، فجرى القلم بما خطه .

غادرت الأندلس مرة ثانية نحو المغرب الأقصى بعدما أرجف الناس من تحرشات رجال الأدفنش الثامن ، بعد انتهاء الهدنة التي عقدها الموحدون معه منذ 586 .

القاف الختم

فاس أذهب الله عنها كل باس مدينة عجيبة ، بدأ بناؤها في عهد إدريس الأول ثم أكمل بناءها ابنه إدريس الثاني . جامع القرويين هو أعظم جامع في هذه المدينة. بنته امرأة صالحة كما بنت أخت هذه المرأة جامع أهل الأندلس في نفس المدينة. فاس مدينة عامرة بالصلاح والعلم والولاية . تعلم فيها أبو مدين والتقى هناك بعدد من الشيوخ . إنها مدينة الختم، وقد أنشدنا في ذلك :

نفس الأكوان من نفسه | وهو وحي الحق في جرسه
وكلام الحق شاهده | أثر في الكون من نفسه
إن موسى قبل أبصره | في اشتعال النار في نفسه

معدن الراحات فيه فمن　　　ناظر فيه وفي حرسه

فاس مدينة الماء العذب والهواء المعتدل والتربة الطيبة والثمار الحسنة والمحرث الواسع والبركة العظيمة والشجر الكثير والحطب القريب . ولها بساتين ورياض رائقة وعيون سيالة وأنهار جوالة وجنات ملتفة وأسواقها منظمة مرتبة وتحيط بها الأسوار . فهي مدينة جمعت كل عناصر العمران من أمن ورخاء وماء وحطب . ونهر فاس عظيم البركة فهو ينبع من ثلاث وستين عنصرا مائيا جلها من جهة القبلة . وله فضائل يدق المقام عن تعدادها وتخرج منه الجوهر والصدف حتى سمي بوادي الجواهر . وهذه المدينة فيها الخير الكثير والبركة الواسعة. وتحكى أن بانيها المولى إدريس لما شرع في بنائها رفع يده وقال : اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها مستمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها . ثم أخذ المعول بيده وابتدأ حفر الأساس ولم تزل هكذا منذ بنيت .

فاس مدينة الولاية في المغرب يتصدها العلماء والصلحاء من كل مكان ، وبها تعلم شيخنا أبو مدين على أستاذيه الشيخ أبو عبد الله الدقاق والشيخ ابن حرزهم. وهي مدينة عظيمة يفوق عدد مساجدها السبعمائة بكثير ، ودور الوضوء تعد بالعشرات . أما عدد الحمامات فقد بلغ ثلاثة وخمسين . وفيها عشرات الأرحاء ومئات الأفران وكذا الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء . كما أن بها قيساريتين ، الأولى بعدوة القرويين والثانية بعدوة الأندلس . وفي هذه المدينة العديد من الحرف وخاصة تلك التي تحتاج إلى الماء . فكان بضفتي الوادي الكبير

الذي يشقها دور الصباغين ودور الدباغة ودور الصابنين وحوانيت الخياطين والقصابين والكوش والأفران المعدة لطبخ الغزل . إلى جانب الحرف الأخرى من حدادة ونجارة وغير ذلك . وقد أخبرني بهذه الأخبار المشرف القويقتي مشرف المدينة . أما جامع القرويين فهو من أعظم المساجد التي رأيتها ,وقد بنته المرأة الصالحة فاطمة أم البنين بنت محمد الفهري القيرواني . أتت من إفريقية مع أختها . وقد ورثت مالا كثيرا فصرفته في هذا الوجه الشريف . ولم تزل هذه المرأة صائمة من يوم الشروع في بنائه إلى أن تم. كما بنت أختها جامع الأندلس .

صليت ذات يوم في جامع القرويين خلف إمامه الخطيب الفقيه الصالح الورع موسى المعلم، كان يقرىء الصبيان في قنطرة أبي رؤوس وكان له صوت شجي حسن يبكي كل من يسمعه . وكان سريع الدمعة كثير الخشوع والغالب على أحواله الخوف . وقد سألت هذا الفقيه عن الدفف الحمر التي على باب القبلة حيث تخرج إلى باب الجنائز ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، يا سيدي لقد كانت هذه الدفف لأبي القاسم بن الملجوم المعروف بابن رقية ، صنعها للعلية التي كانت بداره من حارة لواتة . وقد صرف مالا كثيرا في بنائها ، ثم اشتكى الناس إلى الخليفة بشأنه لأنه يكشف ويطل من تلك العلية على الديار وعلى مسلخ الحمام المذكور . وقد أمر القاضي بهدم تلك العلية وإذهاب أثرها من عام 588 .

فقلت له : يا سيدي الفقيه ، تحدث للناس قضايا بقدر ما أحدثوا من الفجور

وهو كذلك يا شيخنا !

كان مقامي في فاس موزعا بين محل سكناي والجامع وكنت أتستر على حالي وألبس الثياب الرفيعة . ولكن أخباري سبقتني إلى هذه المدينة . فكان تجتمع حولي بعض سادات القوم فيها ولا حديث لنا إلا في السلوك والحقائق . وقد رأيت في واقعة أن أغتسل في الحمة التي بظاهر فاس مدينة الأنفاس ، والتي بدأت تعرف عند العامة بحمة مولاي يعقوب المنصور المعروف بالسلطان الأكحل . وكانت إلى الغرب من المدينة على بضعة أميال ، وعرفت باسم الخليفة لأنه بعد أوبته مريضا من تلمسان إلى فاس عام 588 بقي في هذه المدينة سبعة أشهر حتى استراح. وكان يقصد هذه الحمة للإستشفاء من علته. خرجت إليها مع بعض الأحباب يوم السبت وكانت تلك عادة الفاسيين في زيارتها . خرجنا بعد صلاة الصبح فوصلنا إليها في وقت الضحى . وكانت روائح الكبريت تنبعث منها وأشجار الزيتون ملتفة بهذه المزارة . وتزعم العامة أن السلطان المذكور قد رصد لهذه الحمة عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد وأن حرارة مائها بسبب ذلك الإيقاد . كما جعلوا له زوجة اسمها شافية اشتقاقا من الشفاء الحاصل بتلك العين . وأمثال هذه الأسمار والتخريفات كثيرة . والحق أن السلطان قد ظهرت به بعض القروح فنصحه طبيبه بالإستحمام بماء الكبريت . فجعلها خلوة له وشفي مما أصابه ، فحاك الناس حول ذلك القصص والأساطير . لما وصلت دخلت الحمة وكان ماؤها حارا فتضلعت منه. وقد غبت لحظات ورأيت أني أصبحت كبريتا أحمرا خالصا . ثم عدت لحسي وكانت رائحة الكبريت تملأ المكان فاستنشقت من هذا الماء ما شاء الله وغرغرت منه وأمررته

على مفاصلي . وكانت رائحته تشبه رائحة البيض الفاسد. فكان يوما مباركا نعمنا فيه بين الماء والشجر . وكنت أحس بوجع في مفاصلي فلما أمضيت هذا اليوم في الحمة شفيت بإذن الله وحصل البرء بعد سقوط كاف الكبرياء الزائدة فبرئت .

عدنا إلى فاس على بغال وبراذين فارهة فدخلنا المدينة في آخر العصر فصليت في المسجد الأزهر وكانوا يؤخرون الصلاة فيه . والعجيب في هذه المدينة أن صلاة الجمعة كانت تبدأ من بعد الزوال بقليل حتى يقرب وقت صلاة العصر فتتناوب المساجد على ذلك وتحصل الفضل للجميع . فلا أحد من الفاسيين تفوته الصلاة. وهذا لعلمهم وورعهم وفقههم. بارك الله لهم في ذلك وجزاهم خير الجزاء.

فتوح القاف

كانت أخبار أبي يوسف يعقوب تأتينا باستمرار . ومرة جاءني أحد أكابر الأولياء من أصحاب العلم العيسوي وكان من أخص أودائي فسألني ماذا أقول في الجيش الموحدي ، هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا ؟ فقلت له : ما عندك في ذلك؟ فقال : إن الله قد ذكر ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح في هذه السنة وبشره بذلك في كتابه الذي أنزله عليه وهو قوله تعالى "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" . فموضع البشرى "فتحا مبينا" من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر أعدادها بحساب الجمل . فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة .

وكان الفونسو لما رأى من غيبة المنصور عن الأندلس وما اعتراه من المرض اغتنم الفرصة فعاث في البلاد فسادا واجترأ على المسلمين حتى نزل بالجزيرة الخضراء. وكتب منها كتابا للأمير يستدعيه للقتال ، يقول فيه :"باسمك اللهم فاطر السماوات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، السيد الفصيح .

أما بعد ، فإنه لا تخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنفية ,كما أنني أمير الملة النصرانية " . وبعد كلام عن تخاذل أمراء الأندلس يقول :"وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا فلا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا " . ثم أورد كلاما أكثر فيه التبجح والفخر والخيلاء والتقعر . فلما قرأ المنصور الكتاب أخذته غيرة الإسلام فقرأه على أشياخ الموحدين والعرب وسائر الأجناد فقوي عزمهم على الجهاد ، ثم دفع الكتاب إلى ولده ليرد على اللعين فكتب على ظهره :

قال الله العظيم "ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون" ، وأردف : الجواب ماترى لا ما تسمع , واستشهد ببيت المتنبي :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسل إلا الخميس العرمرم

ثم صرف الكتاب مع الرسول وخرج في جيشه كما سبق وجاز العدوة وأمامه المصحف الإمام حتى وصل على بعد مرحلتين من مدينة الأرك حيث قعد الفونسو الثامن بجموعه . واستشار المنصور مع رجاله وخاصة أهل الأندلس لأنهم أعرف

بالنصارى من غيرهم وخاصة منهم القائد الصالح أبو عبد الله بن صناديد . فقر الأمير على رأيه من تقدمة أبي يحيى بن أبي حفص مع الرايات والأعلام ليوهم العدو بشأنه وقعد هو في مكان آمن مع بقية جيش الموحدين ينتظر الدوائر بجيش الأدفنش . عبأ أبو يحيى عساكره وعقد الرايات لأمراء القبائل، وجعل عسكر الأندلس في ميمنته ، وجعل العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل المغرب في ميسرته . وجعل المتطوعة والأغزاز والرماة في مقدمته ، وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة . وكان ذلك ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان المكرم من سنة 591 . وكان القادة يقوون حماس الرجال بتلاوة آيات الحض على الجهاد "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" . "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" . فلما أيقن العدو بغرته تقدم نحو جيش المسلمين كتيبة كبيرة من الفرسان يربون على سبعة آلاف قد احتجبوا بالحديد والخوذ . فنادى منادي الشيخ أبي يحيى : معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم ولا تزالوا من مواضعكم وأخلصوا لله تعالى نياتكم وأعمالكم، واذكروا الله عز وجل كثيرا في قلوبكم ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما الشهادة والجنة ، وإما الأجر والغنيمة" .

دفعت تلك الكتيبة نحو جيش المسلمين فدافعوها بأطراف رماحهم وغرزوها في صدور خيولهم حتى تقهقروا ثم أعادوا الكرة حملة ثانية وثالثة . والمسلمون صامدون محتسبون ثابتون . ثم دفع النصارى على القلب قاصدين الشيخ أبا يحيى

ظنا منهم أنه أمير المؤمنين فقاتل قتال الشهداء حتى استشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المسلمين . ثم دفع القائد بن صناديد لجيوش الأندلس وحشودها وزحفت معه قبائل المغرب نحو الربوة التي اعتصم بها ملك الروم مع جيوشه بين راجل وفارس وعددهم لا تحصى . أخذ المسلمون في قتاله فكثر القتل واشتد الهول وسالت الدماء وسمع صوت الحديد والنار . فقتل من جموع النصارى الكثير . وكان القساوسة قد صلوا عليهم صلاة النصر ورشوا عليهم ماء العمودية وأقسموا بالصلبان أن لا يفروا يوم الزحف حتى يقطعوا شأفة المسلمين . وأنى لهم ذلك ووعد الله في كتابه مبين وفتحه لائح قريب . فلما كثر القتل في النصارى فرت منهم تلك الشرذمة التي ألقاها ملكهم في وجه جيش المسلمين ، وأرادوا الربوة التي فيها زعيمهم فحال بينهم وبين ذلك جيش المسلمين فولوا الأدبار نحو السهل فأعملت فيهم السيوف والرماح وطحنوا عن آخرهم . ثم انطلقت جماعة من المسلمين بخيولهم تبشر المنصور بالنصر . فضربت الطبول ونشرت الرايات وأهلت الأصوات بالشهادة وخفقت البنود وتسابقت الرجال للقتال . وبينما قد هم الفونسو أن تحمل على المسلمين بجميع جيوشه إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض والأبواق قد طبقت السهل والحزن فرأى رايات الموحدين قد أقبلت نحوه واللواء الأبيض المنصور في المقدمة كتب عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله . فذهل وأصابه الرعب ، وكان قد ظن أن الأمير قد قتل فانطلت عليه الحيلة. وقال له رجاله : ما قاتلك منهم إلا طلائع جيشه . فاشتد الأمر عليه . فلما كان هو الرامي أصبح مرميا . فنكص مع

رجاله هاربا وولى الدبر منهزما فلحق بهم الفرسان يضربونهم بالسيوف والرماح ويزرعون الأرض بدمائهم. وأحاط المسلمون بحصن الأرك يظنون أن ملك الروم قد تحصن داخله، إلا أنه دخل من باب وخرج من آخر لا يلوي على شيء سوى النجاة من حتف لازم. فدخل المسلمون الحصن عنوة وأضرموا أبوابه بالنار وغنموا جميع ما فيه من أموال وذخائر وأسلحة وأمتعة ودواب ونساء. واعتقل من فرسان الروم في الحصن الآلاف. وكانت الرحمة غالبة على الأمير في آخر أيامه فزهد في الدنيا، فامتن على هؤلاء بالسراح. وحسبها له رجاله سقطة من أبشع السقطات وأشنع الهفوات. فقد عاد هؤلاء الفرسان لما كانوا عليه بعد ذلك وقتلوا المسلمين، وقد ندم المنصور على فعلته تلك. وكان الذي أملى عليه هذا العمل هو النخوة والإباية والكرم والفتوة والحلم. كانت هذه المعركة من المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون أخذت أطماع الروم لسنين ولكنها كانت "كثرنيمة النحام". وقد نكبوا قبلها في معركة حطين على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وقد كان أبو الحكم بن برجان الذي توفي عام 536 قد ذكر وقطع بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، إلا أنه مزج علم الفتح بعلم آخر فغلط في ذلك. أما نحن فقد استخرجنا ذلك من "البضع" الذي في سورة الروم ونعطي له ثمانية لأن البضع من واحد إلى تسعة وهو منتهاه. فخذ عدد حروف (ألم) بالجزم الصغير فتكون ثمانية تجمعها إلى ثمانية البضع فيكون الحاصل ستة عشر. فتزيل الواحد الذي للألف للأس فيبقى خمسة عشر، تحتفظ بها. ثم ترجع إلى العمل في ذلك بحساب

الجمل الكبير فنضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين (ألم) ، تخرج لك خمسمائة وثمانية وستون ، فنضيف إليها الخمسة عشر التي مسكنها آنفا . فيكون المجموع ثلاثة وثمانين وخمسمائة ، وهو زمان فتح بيت المقدس على قراءة من قرأ "غَلَبَت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيُغلبون في بضع سنين" . ومعرفة هذه الحقائق تأخذ من طريق الكشف وصاحبها يدخل حضرة الفتح فيفتح عليه فيها ، ويكون له علم العدد وماله من الحقائق الإلهية .

فقلت راجعا إلى الأندلس وأخبار المنصور تأتينا عن انتصاراته في معركة الأرك وغزواته وملاحقته لملك الروم وهروب هذا الأخير من مكان لآخر . فجاءت هذه الأخبار مصدقة لما قاله ذلك الولي الأود ، وكان مقامه أحد وزيري القطب.

بعد وصولي إلى إشبيلية والفرح بنصرة المسلمين على الروم ، لبست الخرقة الخضرية من يد صاحبنا تقي الدين عبد الرحمن التوزري وهو أخذها عن الشيخ صدر الدين بن حمويه الذي أخذها عن أبيه عن جده الذي أخذها عن الخضر. ولم أكن أقول بلبس الخرقة قبل هذا لأن لباسها غير متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن كانت توجد صحبة وأدبا وهو المعبر عنه بلباس التقوى . وهي عندنا عبارة عن الصحبة والعلم والأدب والتخلق . ولكن لما رأيت الخضر اعتبرها بدأت أقول بها . وحقيقتها أن أصحابنا إذا أرادوا أن يكملوا أحدا يقع اتحاد الأحوال بين الأستاذ والطالب فيأخذ الأول الثوب الذي عليه في ذلك الحال ويلبسه الطالب فيسري فيه ذلك الحال . وهذا هو المقصود عندنا لا ما أحدثه البعض من

أدعياء التصوف حيث صار الأمر عندهم طقوسا ومراسيم ولا تربية عندهم ولا ذوق لهم. كما أني لبست الخرقة بعد هذا من أبي القاسم التميمي الفاسي ومن الخضر نفسه .

بعدما حاصر المنصور طليطلة وضيق على الفونسو رجع إلى إشبيلية وأعاد ترتيب الإدارة بها وعزل المفسدين والظلمة والبغاة وعين بدلهم آخرين ، ثم عقد الهدنة التي ألح في طلبها الفونسو مع الموحدين لمدة عشر سنوات . فرح الناس بهذه الهدنة المؤذنة باستقرار الأمور وازدهار الرواج وعموم الأمن .

أرسل إلي المنصور القاضي ابن بقي الذي كان من أخص رجاله وخاصة لما انتقل من المذهب المالكي إلى الظاهري ، فقربه المنصور إليه لأنه كان يتعبد الله بذلك المذهب.. أتاني ابن بقي وبلغني سلام أمير المؤمنين وطلب مني أن أدخل في خدمة الخليفة ولكني رفضت بلطف . فلا يمكن أن أذوق الخل بعدما ذقت العسل كما قال لي الشيخ صالح البربري . لقد لقيني القاضي منفردا كما أوصاه بذلك الأمير وألح عليه أن لا يرغمني على قبول ذلك المنصب . وبعد هذا اللقاء طلبني الأمير فذهبت إليه وسلمت عليه وهنأته بالنصر الجديد والهدنة التي عقدها مع ملك الروم .

شكرني الأمير على ذلك ، ولكنه أردف قائلا : كنا نتمنى أن نراك مع خاصة جندنا حتى تفوز بهذا الفضل العظيم ، خصوصا لما نعلمه عنك من الشجاعة والنجدة والقوة على حمل السلاح . ولكني أعلم أيضا أنك غير مراد لما نحن فيه ، فقد جاءتني الأخبار عن زهدك وسلوكك طريق الآخرة . وإنني أفهم هذا الإختيار لأني

اخترته كذلك. ولولا ما في الخلافة من جهاد وقيام بأمر المسلمين لزهدت فيها . ولكني ما كنت لأدبر عن أمانة وضعها الله ورسوله وعامة المؤمنين في يدي . ثم سألني عن أخباري والأختين فأخبرته بحالهما ومسؤوليتي اتجاههما . فاقترح علي تزوجهما . فقلت له : إني أسعى لذلك بنفسي، فأردف قائلا : لا تتعجل ، فأنت تعلم أن من واجبنا أن نقوم بأمرهن . فأبوك رحمه الله كان من خدامنا وقوادنا وله كبير الفضل علينا . شكرت الأمير على اعتنائه وهممه بي وبهما ، وأكدت له عزمي على تزوجهن قريبا . ثم استأذنت في الإنصراف ، فأذن لي .

بعد هذا اللقاء أرسل لي الأمير يؤكد مجددا دعوته في تزوجهن، لكني شكرت الرسول ثم رحلت سريعا للمرة الثانية إلى فاس برفقتهن بعدما وظبت لنا دارا هناك. وفور وصولي إلى فاس من جديد زوجتهما برجلين صالحين كنت كلمتهما في الموضوع سابقا ورغبا في ذلك تقربا إلي . وهكذا قرت عيني من هذا الحمل .

دوائر أولياء القاف

مدينة فاس مدينة مقام الختم، استوقفتني كثيرا ، فتح علي فيها بأمور كثيرة وجالست والتقيت أصلح رجال على وجه الأرض . تعرفت فيها على رجال وصلوا الغاية في درجات الولاية كالقطب والأوتاد الذين تحفظ الله بهم العالم . عرفني الله على هؤلاء الرجال ليعرفني بنفسي حتى أعرفه . كان هؤلاء الرجال من الأتقياء الأخفياء من طبقة الملامية لا يعرفهم أحد . وتحريا في البطون والخفاء فقد أصيبا بعلتين

ظاهرتين . أما أحدهما فكان أشل اليد ؛ وأما الثاني فقد كان معقود اللسان لا يتكلم إلا بمشقة . كان هؤلاء الرجال تحبونني وتجتمعون بي مع غيرهم من رجال الطريق وكبرائها . وكانوا لا يتكلمون أمامي ، بل ينتظرون أن أبدأ فنتذاكر بعد ذلك . كانت سمعتي قد عمت البلاد وأصحاب الفضل والصلاح يأتون ليسمعوا مني . وكنت كثير التستر على ذلك حيث ألبس أرفع الثياب وأنشد الشعر الغزلي ، ثم كنت قليل الإختلاط بالناس . فلا أخرج من داري إلا إلى المسجد . وحينما يأتيني الناس يسألون عني أقول لهم إختوا عنه تجدوه . فكانوا يطلبونني في الدار وأنا أفر إلى الجامع . وفي الجامع أتستر بثيابي في إحدى الزوايا . ومرة جاءني أحد الأوتاد فكوشفت بسره ومن تخلفه ، ولم أكن أعرفه من قبل . كان رجلا بسيطا تشم منه رائحة الحناء . وكانت أسماله مخضرة داكنة من أثر غبار الحناء الذي يعلوها . كان كثير الترميش بأجفانه من أثر عمله في نخل الحناء للناس بالأجرة . فأثر ذلك في عينيه فلا يديم النظر إليك إلا وقد طرفت عيناه عشرات المرات . ثم إنه كان يكتحل من أجل ذلك الغبار . سلم علي ذلك الرجل فرددت عليه وفتح كتاب المعرفة للمحاسبي، فقرأ منه كلمات بصعوبة وقال لي : اشرح وبين ما قال . فخوطبت بأحواله ومقامه وأنه من الأوتاد . ولهؤلاء روحانية اسم من الأسماء الإلهية، وروحانية إلية أي لملك من الملائكة الأربعة . وكانت الروحانية التي تمده هي رقيقة روحانية جبرئيلية . وإنما سموا بالأوتاد لأنهم كالجبال "ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا" . ثم إن إبليس يأتي الإنسان من الجهات الأربع من الأمام

والخلف واليمين والشمال ، فوظيفتهم هي حفظ هذه الجهات وليس للشيطان عليهم سلطان . ومجموع علومهم ثمانية وسبعون علما بعدد شعب الإيمان . فلما سألني قلت له : لقد عرفتك فأنت ابن جعدون وأخبرته بمقامه . فلما سمع الجواب أغلق الكتاب وقام واقفا ثم طلب مني أن أستره . فأخبرني أنه أراد أن يتعرف إلي وأنه يحبني. ثم كنت أجالسه بعد ذلك على انفراد ، والناس لا يأبهون به ولا يسألون عنه ولا يرحبون به . فهو من الذين تحققوا بالعبودية الخالصة ، أهل الملام لا يأبه لهم إذا حضروا ولا يفتقدون إذا غابوا . أما الرجل الآخر ، فهو الأشل القبائلي قطب الزمان مستور عن الناس لا يعلمه أحد إلا من أطلعه الله عليه . وكان من الغربا. في المدينة إذ هو من بجاية حيث كان في مقام القطبانية العظمى. كان هذا الرجل لا يتكلم إلا في القرآن . وقد كنت أجتمع لهذا الرجل كثيرا ونتذاكر في رقائق ومعاني القرآن . ولم أكن أعلم مرتبته حتى أطلعني الله على ذلك في واقعة. لما ترسخت سمعتي لدى أهل الولاية وعلموا من أمري ما علموا بدأنا نلتقي في بستان ابن حيون بالمدينة فنتذاكر في الطريق والرفيق . وكانوا لا يتكلمون إلا إذا أذنت لهم بل لم تكن هذه المجالس تعقد إلا من أجلي ولا يتكلم في أمور الطريق أحد سواي . وكان هذا الرجل ممن يحضر تلك المجالس ولكن أصحابي لم يكونوا يعلمون من أمره شيئا بل لا يأبهون به لأنه من الغربا. ولا يسألون عنه.

وفي إحدى المرات أفضى بنا بساط الكلام إلى ذكر القطب وهو حاضر معنا ولا يعلمه أحد سواي . فقلت لهم : يا إخواني ، أنا أذكر لكم في قطب زمانكم عجبا .

وحين قلت هذا التفت إلي ذلك الرجل وقال لي: قل ما أطلعك الله عليه ولا تسم الشخص الذي عين لك في الواقعة ثم تبسم وحمد الله. ثم أخذت أذكر للجماعة ما رأيت من أمر ذلك الرجل وهم يتعجبون. ومع أنهم ألحوا في معرفته إلا أنني لم أعينه لهم ولم أسمه. وبقينا في مجلسنا ذلك نتلاقح بالأسرار والمعارف ونستطيب الهواء العليل والظل الظليل وروائح المسك والغالية والورود تنبعث من كل جانب. فلما انفض مجلسنا ورحل أصحابي جاءني ذلك القطب وقال: جزاك الله خيرا ما أحسن ما فعلت حيث لم تسم الشخص الذي أطلعك الله عليه، ثم سلم علي وانصرف. ولم أره منذ ذلك الوقت لأن الغاية كانت هي الإجتماع والتعرف بعضنا بالآخر. فلما حصل المقصود زال اللقاء.

لو لم يطلعني الله على وظيفتي في العالم وأمره لي بالسياحة في أرضه الواسعة لاخترت المقام بهذه المدينة فإنها ترشح بنفس الرحمن وفيها اجتمعت بصفوة العالم وقدموني عليهم لما يعلمونه من أمري. كنت غالبا ما أصلي بالناس في الجامع الأزهر وهو الجامع الذي كان الشيخ أبو القاسم التميمي يلازمه. وقد أخذت عنه كتابه المستفاد الذي وضعه في الأولياء والصالحين من أهل الله. فتعرفت عليهم وعلى مراتبهم واستكملت تخطيط رقعة البلاد، أقصد البلاد الإلهية ووضعت معالم الطريق فيها وعلمت أين يبتدئ كل بلد وأين ينتهي وما هي حدوده، وهل فيه ماء أم هو صحراء قاحلة، وما هي أشجاره وكيف هي ثماره وأزهاره، ومتى يكون الحصاد والجني. فلما استكملت هذه العلوم حق لي أن أسافر إليه روحا كما سافر

المصطفى عليه الصلاة والسلام جسما وروحا . في فاس كان الفتح الفاسي ، وقد استوفى الألوهية . والقاف فاسي معرف ، فافهم مقالتي يا لبيب . في فاس دخلت خزانة قاف اللفظية فسافرت عبر منازل التوحيد التي وردت في القرآن .

قاف بلا قفا

ولقد ورثت من المصطفى في هذه المدينة مقام النور حيث صرت نورا من جميع الجهات لا فرق عندي بين أمام وخلف ، بل كنت أرى من خلفي كما أرى من أمامي . وقد حدث لي هذا مع العصر وأنا أؤم الناس في المسجد الأزهر الكائن بحارة عين الخيل . وقد رأيت نورا عظيما وعلى إثر ذلك توحدت الجهة لدي فصرت وجها بلا قفا ، أي أرى من أمامي كما أرى من خلفي . فصاحب الوجه والقفا لا يرى إلا من حيث وجهه ، أما صاحب الوجه بدون قفا فهو وجه لكل وجهة. ولهذا كانت صلاته أينما تولى لأن الله في قبلة أحدكم كما ورد . وقبلة صاحب هذا المقام كل جهة "فأينما تولوا فثم وجه الله" . ولهذا كان السيد الكامل يصلي النافلة حيثما سارت راحلته ولم يكن يفعل ذلك في الفرض لأنه كان يشرع والمشرع متبوع. وإلا فإن قبلته حيث وجه الحق ، وأين وجهه ؟ إنه حيثما توجهت وتوليت ولهذا جاء " فلنولينك قبلة ترضاها " . وقبلته التي يرضاها هي وجه الحق تعالى لا كما يتوهم أصحاب الرسوم . فما البيت الحرام إلا كناية عن الذات فافهم يرحمك الله. والمتحقق بهذا المقام النوراني يصبح كالكرة والدائرة ، فأبعاده لكل

جهة بنفس النسبة . ولهذا كنت أرى الداخل إلى المسجد ، وكم أدرك معنا من الركعات. فالذي تحق له أن يصلي النافلة حيثما ولت راحلته هو هذا المتحقق بهذا المقام لا غيره لأن له وراثة من الشرب المحمدي .

لقد قطعت الفيافي والقفار وجلت في الأرض وسحت في البلاد والتقيت بأشخاص كثيرين في العدوتين، وقطعت بحر الزقاق مرات متعددة ذهابا وإيابا في مغرب الأرض بلاد الأسرار الإلهية . وفي فاس رست راحلتي لفترة فربطتها إلى خوخة هناك وبدأت سياحة أخرى وسفرا آخر صوب الواحد الأحد ، إنه معراج الولاية. في فاس وضعت الأساس لسفر الأرواح بعدما خلعت قشرة الأشباح . أما معراج النبوة فإنه بالأشباح والأرواح معا . وعلى الوارث بالتبعية أن يقطع مراحل هذا المعراج وأن يسنو في علوم جميع الرسل بعددهم تماما أي ثلاثمائة وأربعة عشر. فالعلماء ورثة الأنبياء. ولا عروج ولا معراج بدون هذا الإرث . ولهذا المعراج كما قلنا مراحل وأقسام . في القسم الأول يسافر السالك بعدما طلب هذا المعراج فيقوم بالتحضير لهذا السفر القلبي ويتخلى عن عناصر الطبيعة . فكما كان الرسول أحديا قبل الإرسال كذلك يكون الولي السالك أحديا قبل الإسراء . ثم يأتي القسم الثاني من السفر والمرحلة الثانية فيعرج عبر السماوات ويلتقي بروحانية الأنبياء. ولكن من داخل الشرع المحمدي لا من خارجه . ولكل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام حظ في الإرث القرآني . فلآدم تسع سور وللمسيح تسع عشرة وليوسف إحدى وعشرون ولإدريس أربع عشرة ولهارون تسع عشرة ولموسى سبع عشرة

ولإبراهيم خمس عشرة . فمجموع هذه السور مائة وأربعة عشر . فها قد نبهتك
على سر عظيم وقد نفحتك بعطره وطيبه فافهم فهو وردة تشم ولا تفرك . ثم تأتي
المرحلة الثالثة حيث سدرة المنتهى والكرسي والرفارف العلى فيشرب شراب
التسنيم . ثم تأتي المرحلة الرابعة وتبتدئ مما انتهى إليه القسم الثالث فيصل إلى مناجاة
قاب قوسين فينعم هناك بالتوحيد . وأخيرا يصل إلى المرحلة الخامسة وهي مرحلة
الإمتحان والسؤال بعدما عب من هذه المعارف والعلوم وانصبغ بهذه الأنوار
والأسرار . ولكنه لا يقف هناك بل يرجع إلى الخلائق .

وقد وقفت هناك على حقيقة وراثتي فعلمت ختميتي المحمدية حين أشهدت ختمية
عيسى للولاية العامة . رجعت من هذا السفر وأنا لم أبرح مكاني في فاس مدينة
نفس الرحمن . والمسافر بالأنفاس يقطع المراحل في طرفة عين لأن من كان نفسه به
كيف تحكمه المسافات والأكوان . أعلمت صاحبي بدر بهذه المنة العظيمة وكان
معنا شاب دون الخامسة عشرة ، وهو إسماعيل بن سودكين النوري ، أتى من بلاد
النيل في تجارة مع أبيه . واجتمع الفتى بنا وأبدى من مخايل النباهة ما جعلني أسر له
بهذا الأمر فتعلق بي أشد التعلق . وكنت قد رأيته فيمن رأيت من أصحابي قبل
هذا الزمان حين كنت بالجزيرة الخضراء أستعد لعبور بحر الزقاق . وكان من ضمنهم
بل كان من خاصتهم . ثم افترقنا بعد ذلك ووعدته أن نلتقي في القاهرة وطلبت منه
أن يشتغل بالعلم حتى تحين اللقاء . وقد عرفني بهذا الفتى صاحبي بدر الحبشي الذي
كان يعرف والده وأسرته حينما كان يطلب العلم بالشرق وفي القاهرة خصوصا .

وقد قضيا بعض الوقت معنا في فاس حيث كنا نشتغل بالعلم وقراءة القرآن ليلا ونهارا فكانت من أحلى الأيام وأبهجها مع رفقة صالحة مأمونة . ثم غادر الفتى جمعنا عائدا مع والده إلى بلاده .

تحرك المنصور من الأندلس صوب بر العدوة بعد انتصار المسلمين الساحق في موقعة الأرك ، فوصل إلى فاس وبقي بها نحوا من عشرين يوما ، ثم استمرت حركته إلى مراكش فوصلها وأقيمت فيها الأفراح بالنصر المجيد وقد أمر المنصور في ذكرى المولد النبوي لعام 595 بإعذار الأطفال بمراكش وجعل في يد كل واحد منهم دينارا من الذهب ودرهما من الفضة وحبة من الفاكهة الخضراء ليشتغل الطفل عن ألمه ويصرف أبواه الدينار في مداواته . وفي هذه السنة توفي المنصور بدار مخومة الصالحة من مراكش . وقبل موته لزمته العلة وأصابته الوعكة فجمع وجوه دولته وأهله وخطبهم خطبة بليغة وأوصاهم بتقوى الله في السر والعلن ، كما أوصاهم بالأيتام واليتيمة ، (وكان يشير إلى خطبة طارق بن زياد زمن فتح الأندلس "وأنتم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام") فسألوه عنهما فقال : اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون وإياكم والغفلة فيما يصلح لها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوقير رعيتها ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى وحُسنَ نظركم فيها فانظروا أمن المسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها .

ثم ذكر في أهل بيته ما فرط منه بقتله عمه وأخويه بسلا لما طمعا في الملك دونه فبكى لذلك بكاءا شديدا . وقد زهد في الدنيا في آخر أيامه وانقطع للعبادة ، بل لقد صرف جزءا من أمور السياسة والدولة لولده الناصر حتى توفي ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول عام خمس وتسعين وخمسمائة ودفن بمجلس سكناه ثم نقل إلى تينمل . وبويع بعد ذلك لولده أبي عبد الله محمد الناصر . ولقد كان المنصور رحمه الله على علم بتحرشات الفرنجة لاستعادة جزيرة الأندلس من المسلمين. وكان يعلم أنه لن يهدأ للنصارى بال حتى تخرجوا المسلمين منها . فعددهم أكبر من عدد المسلمين ، كما أنهم يستعينون بممالك الشمال في الهجوم . ورقعة الدولة كبيرة ولا يمكن استنفار الجيش الموحدي بصفة دائمة لرد الإعتداءات .

ما أن استقر الأمر بالبيعة للخليفة الجديد حتى قصد إيالة فاس فأقام بها وبنى قصبتها وأسوارها ولبث فيها ما يقرب من أربع سنوات ليخمد نار الفتنة التي اشتعلت في إفريقية . لم يكن الناصر كأبيه المنصور عالما وزاهدا وعابدا بل كان يحب الملذات .كما أنه كان غرا حيث أخر أغلب الأشراف الذين قام بهم أمر هذه الدولة بمشورة وزيره ابن غانية الذي استبد بالأمر دون غيره . ولم يكن الناصر يطلع على جلائل الأمور حتى كانت الدائرة على المسلمين من جراء حماقات هذا الوزير .

بعد حادث المعراج كتبت كتابا من أغمض كتبي سميته عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب وافتتحته بقصيدة من ثمانية وعشرين بيتا جمعت فيها أسرار الكتاب . والعنقاء طائر عجيب فعند المصريين القدماء هذا الطائر يأتي كل مائة

عام إلى مدينة الشمس أي طيبة حيث يصنع قبرا هرميا طيب الرائحة ثم يضرم فيه النار فيولد من جديد. كما يزعم اليهود أنه هو الوحيد الذي لم يذق من الشجرة التي حرمها الله على آدم وحواء على عكس سائر الحيوانات، وقد جازاه الحق بعدم صعقه بالموت. وأطوار حياته ألفية حيث يموت على رأس كل ألف عام ثم تحيى من جديد. وعند آباء الكنيسة، فطائر العنقاء يرمز لخلود الروح. أما عند المسلمين فهو يسمى بالسيمورغ أيضا. فبعدما تسافر أرواح الأولياء إلى شرق الظهور يطلع في سماء جبل قاف حيث مسكنه في قطب دائرة الولاية المسمى عندنا بعالم الخيال. وعموما فالعنقاء هو الكبريت الأحمر الذي يسعى إليه الأولياء والصالحون. وقد تكلمت في هذا الكتاب عن المهدي والختم العام عيسى بن مريم والختم المحمدي. ورمزت للأمر باستعمال أحد الأقلام القديمة وأقلام أخرى غيرت دلالتها الرقمية. وتلك الجمل كلها آيات قرآنية وأحاديث نبوية متعلقة بالختم العام عيسى بن مريم عليه السلام. وقد ذكرت ملغزا: وأما اسمه الذي تختص به فلا يظهر فيه إعراب، أوله عين اليقين (أي عي) وآخره قيومية التمكين ونصف دائرة الفلك

(أي سى) ... إلى آخره. وهناك أسرار طويناها عن العوام ولا تنال إلا لأهل الكشف ذوقا.

بعد هذه المبشرات والمكاشفات العظيمة التي ترادفت في مدينة النور أو مدينة نفس الرحمن حان الرحيل إلى شرق البلاد الإسلامية لأداء الفريضة وتبليغ جل هذه المعارف والعلوم . فالشرق أرض الظهور والبروز والإبدار عكس المغرب الذي هو أرض الكنز والختم والإسرار . وهكذا قمت برحلة كنت أعلم أنها الأخيرة إلى جزيرة الأندلس اليتيمة ، وكنت أعلم أيضا أنها آيلة للسقوط . ولهذا لا يمكن للختم أن يرقد في تربة سندوسها أقدام الضلالة والكفر . كما أن الله هيأ الأسباب لكثير من الصالحين والعلماء حتى لا يرقدوا في تربة بلاد الأندلس ويكون مثواهم أرض الإسلام . فهذا أبو مدين وابن العريف وأبو الحكم بن برجان وغيرهم كثير قد انتشلوا من تلك البلاد ، ولو في صورة الإبتلاء ليعم خيرهم في حياتهم ومماتهم . فحرمة الأولياء في حياتهم كحرمتهم في مماتهم . على كل حال يممت صوب بلاد نشأت فيها وتعلمت فيها وفتح الله علي فيها لأودع الأحباب والأصحاب والشيوخ . قطعنا نحو الزقاق وكان يصحبني في هذه الرحلة ولدي وصاحبي عبد الله بدر الحبشي . وصلنا إلى الجزيرة الخضراء حيث التقيت بالشيخ ابن طريف ثم بعد ذلك توجهنا إلى رندة وزرت أحد رجال الفتوة وزرت أيضا الشيخ محمد بن الأشرف الذي كنت أحب أن أعرفه لبدر فشاهد بعضا من كراماته . من رندة قصدنا إشبيلية حيث زرنا الشيخ ابن قسوم والموروري وأبو عمران المرتلي ، ثم أنبأتهم بالرحيل نهائيا

إلى المشرق . من إشبيلية صوبنا نحو قرطبة فوصلنا خبر وفاة الإمام المجتهد ابن رشد . وقد نقل جثمانه من مراكش إلى موطنه . والحقيقة أن موطن الرجل قد يكون واحدا وقد يكون اثنين وهو الأكمل وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن الإمام ابن رشد كان له موطن واحد ، فقد مات في مراكش ثم نقل إلى قرطبة حيث نشأ . وهذا إرهاص بأن الرجل سيكون له شأن عند هؤلاء الفرنجة . وقد ذكرنا ما أخبرنا به صديقنا إسحاق اليهودي عن رحلة ابن يونة النطيلي ، والتي ذكر فيها إقبال علماء فرنسة في باريس على كتب ابن رشد المتعلقة بشروحه على أرسطو . قال لي بدر متسائلا : كيف يكون للمرء وطن أو وطنان أو أكثر كما ذكرت يا سيدي ؟

فأجبته قائلا : يا ولدي ، اعلم أن الله خلق الإنسان ذكرا وأنثى . فوطن المرأة الرجل وأرض الرجل المرأة . فصار الأمر وطنان ، كما أن النور له مشرق وله مغرب ، وإن تعددت المشارق والمغارب . وعلى هذا الأساس ، فالكمال هو في شفعية الأوطان . هناك وطن الولادة ووطن الوفاة . فانظر إليه صلى الله عليه وسلم قد ولد في مكة ودفن بالمدينة وعرج به في بيت المقدس . وحقيقة الأمر أني ذكرت لك أن الكمال في الشفعية . وكل شفع له وتر ، ولهذا ذكرنا في حقه عليه السلام هذا التثليث . والأصل في ذلك كله المستند الإلهي الذي قامت عليه هذه الحقيقة . فهناك ذات وصفات وأفعال . فالذات مكية والصفات مدنية والأفعال مقدسية . ولكل نصيب من دائرة المعارف . والحقيقة أن لا أحد يقدر على تجليات الذات ،

ولهذا نقص الوطن بدرجة واحدة عنها . وهنا أسرار لا نبوح بها . والمرء تحتاج إلى زمن ظهور وهو طلوع، وزمن أفول وهو غروب كالشمس تماما . أما نحن، فبزغ نجمنا في بلاد الأسرار وسيظهر في بلاد الأنوار. فاستعد يا بدر لرحلة الأنوار ورحلة الظهور، فقد انتهى الخمول والبطون. فيجب أن تحلق العنقاء فوق جبل قاف في مشرق الأرواح.

في قرطبة التقيت مع الفقيه الأديب أبي الحسين محمد بن جبير وصاحبي أبي الحكم بن السراج الناسخ، وحضرنا جميعا دفن الإمام ابن رشد رحمه الله. فقد كان عالما مجتهدا وحكيما من أصحاب النظر ولكنه لم يصل إلى درجة الكشف وإن أقر بوجود مرتبتها ورآها منا فسجلها وحمد الله على أن عاينها ولو في غيره . وقد جعل في تابوت ووضع على جانب ووضعت تواليفه في الجانب الآخر من ظهر الدابة التي تحمله . فقال أبو الحكم: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه:

هذا الإمام وهذه أعماله

فقال ابن جبير: نعم ما نظرت، لا فض فوك .

فقيدت هذا الشطر عندي موعظة وتذكرة، ثم أكملته قائلا:

هذا الإمام وهذه أعماله   ياليت شعري هل أتت آماله

لقد حل الإمام وحلت تواليفه ورجعت إلى موطنه بقرطبة لأنها ستزدهر هناك، فإن دورة النظر قادمة لأن الحكمة ستدخل في طور البطون والخفاء . وسيصول العقل ويجول، وهل يمكنه أن يفعل غير هذا . فمن عقل فلا بد له أن يفك العقال

، ولا فكاك إلا بالحركة والشدة والدعوى . وسيأتي قوم تحكمون عقولهم بدون نور الشرع لا كما يفعل أصحابنا من طينة الإمام ابن رشد ، وسينسبون لهم مالم يقولوه . وسيظنون أن العقل يمكن أن يستقل لوحده بالمعارف ، وكيف له ذلك؟ ونحن نعلم أن من عُقل بعقال فهو مركوب ومستعبد ويلزمه فارس يكبح جماحه . إلا أنهم سيطلقون عقاله ولا يركبون ظهره فاستقل كالدابة الجموح لا تعلم لها وجهة ولا رشدا .

من قرطبة رحلنا إلى غرناطة فنزلنا عند الشيخ أبي محمد الشكاز فلحق بنا الموروري الذي أخبرنا عن بعض كراماته في هذه المدينة . ومن هناك صوبنا نحو مرسية المدينة المرسى ، أقصد مرسى وراثة علوم الرسل ، فالتقينا ببعض الأقارب والأصحاب مثل ابن سيدبون أحد تلامذة الشيخ أبي مدين شعيب . وكان ابن سيدبون يمر بفترة أحزنته كثيرا حيث لم يعد له تصريف كما كان له من قبل . وقد وادعني ومشى معي بعض الطريق حيث علم أنها آخر مرة نرى بعضنا .

بعد هذا اللقاء ، انقطعت عن الزيارة ولكني داومت على السياحة في الجزيرة اليتيمة . فمن مرسية سرنا نحو ألمرية حيث وصلناها في فاتح رمضان من عام 595 . وفي هذه المدينة كتبت كتاب مواقع النجوم في أحد عشر يوما . ذكرت في هذا الكتاب أعضاء التكليف الثمانية وما تحصل لها من مكاشفات . وفي أول تحرير له لم أذكر فلك القلب الثامن بل أضفته بعد ذلك . وقد رأى ولدي بدر رؤيا تخص هذا الكتاب ، فوافق المنام الإلهام الحاصل بتدوينه .

بعد هذا التاريخ دخلت خلوة انقطعت فيها عن الناس وخرجت بعد ذلك لترتيب مغادرة جزيرة الأندلس التي ستصبح قريبا يتيمة . وقد حزنت لذلك حزنا شديدا إلا أنني كنت أعلم أيضا أن الله اختارني لوظيفة أسمى مما رتبه لي والدي رحمه الله أو الخليفة المنصور . فمن كاتب في ديوان الموحدين إلى كاتب لعلوم النبوة وخاتم للولاية المحمدية ورأس الأفراد في ديوان الأوليا . تلك هي مهمتي إذن ، ويالها من مهمة ، وقليلون هم الذين يعلمون ذلك .

قرية القاف بين الكاف والألف

قطعت نهر الزقاق لآخر مرة متجها نحو بلاد المغرب ووصلت إلى مدينة سلا . وهذه المدينة ينبسط فيها الإنسان على العكس من رباطها الذي تحس فيه بشيء من القبض والربط . وما ذلك إلا لحكم أسمائها عليها . سلا مدينة الكمال المحمدي كما كانت فاس مدينة النفس الرحماني وكما أن مراكش مدينة الألوهية والتوحيد وكما كانت مرسية مرسى علوم الرسل . وهكذا هي المدائن ، فلكل واحدة تجل خاص كما كان للأشخاص تجليات خاصة بحيث أن الحق ما تجلى لعبد بمثل ما تجلى به لآخر . وكذلك الزمان والمكان لأنهما أمتان كسائر الأمم مخاطبون كما نحن لمن كان يفهم عن الله . ولهذا فالكامل المحقق يسمع من كل شيء وفي كل شيء حتى من الجماد ، فما بالك بالنبات أو الحيوان أو الإنسان أو الملك .

سلا إذن مدينة الكمال والإنسان الكامل في عالم الحقائق . وهي مدينة تعرف المطر الوابل ونهرها مكنوف بالعنب والمدارج ، واديها الرقراق ملح المذاق وبه سمك الشابل وهي كلمة قشتالية ، وطعمه لذيذ . وهي مدينة صغيرة الحجم كبيرة الشأن معروفة بالولاية والعلم ، يقصدها الزهاد والصالحون . وفيها بعض الأسر الأندلسية التي استقدمت في زمن ولى ، ونها بيت بني العشرة ، وفيهم الولاية والقضاء والعلم . كما أن جامعها الأعظم يعتبر من المفاخر الكبرى وهو من أكبر المساجد التي رأيتها . هواؤها معتدل وقد أمنت من الفتن والأهوال . وبضواحيها العرصات والجنان وتعرف هنا بالسانية أو السنية وهو أفصح . كما أن لها عدة عيون وغابتها من أكبر غابات الدنيا ونها بعض الوحوش كالفيل والأسد . وإلى جانب جامعها الأعظم هناك جامع آخر يعتبره أهلها من أقدم مساجد المغرب ويعرف بجامع الشهباء . ولربما كان اسم امرأة صالحة بنته .

أقمت بعض الوقت متحققا بهذا الكمال المحمدي الناجم من هذه المدينة الصالحة والتقيت هناك ببعض المشايخ كصاحبي أبي يعقوب يوسف الكومي . كما التقيت برجل من الصالحين الأكابر من عامة الناس هو أبو محمد عبد الحليم الغماد .

ولما استكملت ما أردته في مدينة سلا وودعت علماءها وصلحاءها قصدت إلى مراكش حضرة الخلافة الموحدية ، وكانت على بعد تسعة أيام مشيا ، فيممت صوبها وقطعت نهر أم الربيع في منتصف المسافة الفاصلة . وحصل لي هناك في إحدى القرى أمر عظيم حيث تحققت بمقام القربة وهو أعلى المقامات بين الصديقية والنبوة ، على

خلاف ما قاله الإمام أبو حامد الغزالي الذي لم ير مقاما آخر بينهما . وكان يقول "لا تتخطوا رقاب الصديقين لأنه من تخطى رقابهم وقع في النبوة وهو باب مغلق" . فلما لم ير رجلا بين أبي بكر الصديق والنبي عليه السلام التبس عليه الأمر . والحقيقة أن مقام القربة أسمى من الصديقية ومن رجالها الخضر وهي له بالتعمل . أما للقائم في آخر الزمان وأمثاله فهي له من باب الإختصاص من غير تعمل . ورجال هذا المنزل لا يدركهم الصعق بل هم ممن استثنى الله في قوله "ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله" . فحياتهم متصلة بالدار الأخرى . والحق أنه ليس هناك رجل بين أبي بكر والنبي عليه السلام ، ولكن هناك مقام بين الصديقية والنبوة . والصديق تابع بطريق الإيمان ينكر ما أنكره متبوعه ويقر ما أقره لأن حاله ذوقي . أما المقرب فله ذلك وله أيضا العلم بذلك . ألا ترى قول النبي عليه الصلاة والسلام "وقل رب زدني علما" ولم يقل حالا لأنه لو طلب الحال لأنكر كما فعل موسى عليه السلام مع الخضر . أما وقد طلب الزيادة في العلم فإن ذلك علامة على الكشف والإيضاح والوسع والإنشراح وتنزها في الوجوه التي سفرت عن براقعها ورفع الضيق والحرج . ولقد استوحشت في هذا المنزل لأني لم أر فيه أحدا غيري حتى رأيت أبا عبد الرحمن السلمي يؤانسني ويخبرني باسمه لما كنت أجهله ، وقد مات عليه رحمه الله .

رحلت من هذه القرية إلى مراكش فوصلتها بعد أربعة أيام ، مراكش التي بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي ، والتي تم هدم جزء منها وإعادة بنائها في عهد

عبد المومن الموحدي الذي بنى جامعها وصومعتها الكتبية التي تشبه ألف التوحيد في وسط المدينة كما هي في واسطة اسمها . وكيف لا تكون مدينة التوحيد بألفها الذي يتوعد كل مشرك . فاقلب حروفها تجد فيها المشراك والمشارك . مدينة تتبرأ عن الشرك وإن ضمت حروفه لأن لكل حقيقة نورانية وجهها الظلماني . ولكي تكفر أي تستر هذا الشرك الخفي الذي هو من أوحال التوحيد فإنها أصبحت مدينة الشكر أو على الأصح إن نعتها في العالم السعيد " أمر شكر ". وكذلك هي مدينة المشاركة في العلم، وما أكثر العلماء المشاركين بها . لونها الزنجفوري له علاقة بالنكاح لأنه لون النحاس المناسب لكوكب الزهرة سيدة الحب والنكاح في السماء الثالثة حيث سيدنا يوسف عليه السلام الذي حاز شطر الحسن، وعلاقته بالنسوة التي قطعن أيديهن معلومة . ونهار روحانية هذه السماء هو نهار الجمعة أجل الأيام والمسمى عند العرب بالعروبة وهي المرأة الجميلة. وقد استقرت العادة في النكاح بذلك اليوم لما له من النسبة بما ذكرنا . وللزنجفر علاقة بالنكاح كما قلنا ، فلتوليد الحجر المكرم يتم النكاح بين الكبريت الذهبي الحار كالملك لحلته الحمراء الذي هو بمثابة الأب الفاعل ، والزئبق الفضي البارد كالملكة لحلتها البيضاء والذي هو بمثابة الأم المنفعلة .

تلك إذن هي مراكش مدينة التوحيد التي تقف بالمرصاد للشرك . ولم يكن من العبث أن صارت حاضرة الدولتين المرابطية والموحدية وهما من هما في الذود عن بيضة الإسلام والتوحيد ، حتى لقد سميت الثانية بذلك .

خرجت من سلا مدينة الكمال المحمدي ووصلت إلى مراكش مدينة التوحيد الإلهي ، وبينهما في منتصف الطريق تحققت بمقام القربة أعلى مقامات الولاية ، فافهم. فلا وصول إلا بالحضرتين المحمدية والإلهية وموصلك هو الإنسان الكامل عليه أزكى الصلاة وأنمى التسليم.

ضاد القاف

صاحب المدينة هو الولي الصالح أبو العباس السبتي ، وقد ذهبت فور وصولي لها لزيارته . فرأيت رجلا كريما جوادا يرسل كالريح المرسلة ما يقع بيده ، وقد لاذ به الغرباء والفقراء . ولقد صدق الإمام ابن رشد رحمه الله حين قال في نعته ووصف قاعدته بأن الوجود ينفعل بالجود . وحقا قال ، فما الوجود بأسره إلا نفحة من جوده . وانظر إلى كلامه فقد سماه القرآن الكريم ، فلا يصدر عن الكريم إلا الكريم . وكان يعمل لحقوق الوقت وحقوق في الوقت . بقيت بعض الوقت في هذه المدينة فرأيت جامعها وصومعتها وكذا المقصورة والمنبر التي صنعهما علماء الحيل والمهندسون في عهد الخليفة عبد المومن لما وفد عليه المصحف العثماني الإمام من قرطبة ، فبنى له الجامع وهذه المقصورة المدبرة على صنعة الحركات الهندسية . والماء بهذه المدينة كثير وأشجار الزيتون والنخيل أكثر من أن تحصى ، وعلى مرمى النظر جبال درن المكسوة بالثلوج . غادرتها صوب فاس والشوق يقطعني . وكنت قد رأيت رؤيا في مراكش حيث أمرني الحق أن آخذ معي في رحلتي إلى الشرق رجلا

اسمه محمد الحصار بفاس . وكان قد طلب من الحق أن يرحل إلى الشرق. وقد رأيت هذا الشخص في صورة طائر . حين وصلت إلى فاس بحثت عن ذلك الشخص فوجدته ثم سألته هل طلب شيئا من الحق، فأجابني بالإيجاب وأخبرني أنه ينتظرني منذ ذلك الوقت . لم أمكث في فاس طويلا وودعت شيوخي وأصحابي هناك وقصدت تلمسان حيث زرت قبر الشيخ أبي مدين بالعباد وبعدها يممت صوب الساحل باتجاه بجاية . وحدث لي في هذه المدينة أمر عجيب حيث أريت أني نكحت نجوم السماء كلها بلذة عظيمة ثم لما أكملت ذلك النكاح أعطيت الحروف فنكحتها كلها إفرادا وتركيبا . ثم عرضت رؤياي على رجل وبدوره عرضها على رجل بصير بعبارتها، وطلبت من الأول أن لا يذكر اسمي، فأخبره بأن صاحب الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب والحروف ما لا يكون بيد أحد من أهل زمانه . ثم سماني بالإسم فبهت صاحبي وتعجب . ثم طلب منه أن تحمله إلي ليسلم علي إلا أنه طلب منه أن يستأذنني . فلما فعل أمرته أن لا يعود إليه وسافرت للتو فلم أجتمع به . وكنت قد اجتمعت في هذه المدينة بأحد شيوخ الملامية الذي كان يتستر على حاله بالبهللة . كان هذا الملامي وهو أبو عبد الله العربي يغادر بجاية في شهر ذي الحجة قصد أداء فريضة الحج ويعود بدون أن يشعر أحد بغيابه سوى من كان على علم بأسرار الحق في خلقه . بجاية تلك مدينة الشباب الذين يدخلون الجنة في عمر عيسى عليه السلام، أي في الثالثة والثلاثين. ولهذا سيحكي البعض عن رجل سيأتي بعد هذا الزمان يدعى ابن

دائرة كما رأيناه كشفا قوله في تلميذه المشهور " إن كنت تريد الجنة فعليك بأبي مدين ، وإن كنت تريد رب الجنة فاتبعني " . ومن أين له أن يقول هذا الكلام في أبي مدين وهما لم يلتقيا لأن أبا مدين قد توفي منذ مدة كما أخبرتك . ولما رأوا أن المومن يدخل الجنة في تلك السن ورأوا أن ضعف ذلك العدد متعلق بالألوهية، ثم رأوا أن مدينة أبي مدين هي بجاية ربطوا بين تلك الأمور . والحق أن أبا مدين قد تقطب قبل موته بساعتين كما أخبرني بذلك أبو يزيد البسطامي . وهو إمام اليسار قبل ذلك ، أبو النجا وأبو النجا وبه وعبد الملك . وهو رجل القرآن ، وليس هنا موضع بسط هذه الأسرار .

خرجت من بجاية مع الصحبة والأهل على طريق الساحل حتى مدينة تونس المؤنسة ، ولها نفس خصائص بجاية من حيث الشباب وأعمار العباد في الجنة ولها نصف التجلي الأعظم. بقيت في تونس تسعة أشهر بصحبة صاحبنا عبد العزيز المهدوي وخادمه ابن المرابط وكذا صاحبي وولدي عبد الله بدر الحبشي . فكنا نحن الأربعة كأركان البيت للعالم. كنا أوتاد العالم . تلك كانت من أحلى الأيام مع هذه الرفقة المأمونة العديمة النظير . ولكن الأمر كان قد صدر بالرحيل منذ رؤياي قبل أن أعبر نحر الزقاق عام 589 ، ثم تأكد الأمر في فاس حين قلدت ختم الولاية المحمدي .

تونس المؤنسة في إفريقية المفرقة التي استعصت على الفتح ، ولما فتحت كانت شؤما على المسلمين حتى رغب عمر بن الخطاب عن فتحها وهو الذي فتح الشام والعراق

وفارس . وكان ينعتها بالمفرقة ، ولم تفتح إلا زمن عثمان ، وافترقت الأمة وحصل ما السكوت عنه من الإيمان .

خار القاف

خرجت من تونس أنوي أداء الفريضة والعمرة فسلكت طريق البحر هذه المرة . وكان الإقلاع من مرسى تونس في أحد هذه المراكب التي تجوب البحر بين إفريقية والإسكندرية لما كانت الريح موافقة . وقبل الإقلاع انتظرنا أياما حتى تأتي الريح المناسبة . وكنا نبيت قرب المرسى غير بعيد عن المركب لأن وقت الرحلة لم يكن معلوما ، فكنا دائما على أهبة السفر ولما حان الوقت كان الزاد والماء قد قل لدينا ، لأن كل مسافر يلزمه أخذ زاده ومائه معه . اتصل جرينا ، والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الرابع هبت علينا ريح شرقية معاكسة دافعة في وجه المركب . أخذ رئيس المركب والقيم عليه يراوغ تلك الريح يمينا ويسارا ، وكان على دراية بصنعته ، وهمه أن لا ينكص بنا وأن لا نرجع على أعقابنا . والبحر في أثناء كل ذلك رهو ساكن . تمكن الرئيس من مدافعة الريح بالحيلة يوما أو بعض يوم لكن الريح ترددت علينا مضاعفة من هبوبها فكسرت الصاري ومزقت الأشرعة . وقد أنجانا الله من وقوع الصاري بالمركب حيث سقط في البحر . أسرع البحارة لإنقاذ ما تبقى من الأشرعة وإزالة قطعة الصاري . وكان لهذا الحادث

أثره في تعطيل المركب من الجريان . ونودي على باقي البحارة الملازمين للعشاري المرتبط بالمركب فجذفوا صوب الخشبة الملقاة في البحر وانتشلوها مع بقية الأشرعة ثم فتحوا شراعا آخر والبحر في كل ذلك يرغي ويزبد وقد طما بمن فيه. وقد أعيت الحيلة والجهد الرئيس والربابنة والبحريين من هول الأمواج التي كانت كالجبال . والناس على المركب ضارعون مبتهلون إلى رب العباد يسألونه النجاة والسلامة . والأطفال يصرخون والأمهات ينتحبن . أمام هذا المنظر المريع رفعت أكف الضراعة إلى المولى أسأله اللطف في القضاء لا رد القضاء ، لأنني كنت أعلم أن أمر الله لا يتخلف "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " . ولكني كنت أعلم أيضا أن الدعاء قد يرد القضاء . وبينما كنت في المناجاة غائبا عن أيني وعيني صحت مخاطبا البحر : اسكن يا بحر فإن عليك بحرا من ولاية وعلم . فطلعت لي هائشة من البحر وقالت لي : قد سمعنا قولك ، فما تقول فيما إذا مسخ زوج المرأة ، هل تعتد عدة الأحياء أو الأموات . فما دريت جوابا لهذا السؤال . وعلمت أن الحق أراد أن يعلمني بأحقر عباده لما ادعيت العلم فأرسل لي من يعلمني بجهلي ودعواي . فلما رأت الهائشة حيرتي وتوقفي قالت لي : أتجعلني شيخك في ذلك . فقلت: نعم . فقالت : إن مسخ حيوانا اعتدت عدة الأحياء ، وإن مسخ جمادا اعتدت عدة الأموات . فأوقفتني على حكمة ذلك ، فحمدت الله على ذلك . ولم تمض مدة حتى سكنت الريح وأقلعت السحب وانقطع المطر فكبر الناس وهللوا واستبشروا بالنجاة بعدما كانوا على مشارف الهلاك ، وقلوبهم وجلة بين الخوف والرجاء . وتحركت الريح نسيما عليلا فاترا ، وشرع

البحارة في إصلاح ما فسد وتكسر أو مزق . وغشي البحر ضباب رقيق كأنه القطن المندوف ، وهدأت الأمواج فعادت صفحة البحر كأنها صرح من مرمر . تمادينا في الإبحار بعد ذلك وقد نضب ما كان معي من ماء وزاد فاشترينا من القيم على الزاد والماء بُلغتنا منهما بثمن زائد . وقد مات في المركب رجل فقذف في البحر . وقد أخبرني الأديب الفقيه ابن جبير أنه توفي في المركب الذي أقله من عكا خلق كثير من المسلمين والنصارى فورث الجميع رئيس المركب لأن ذلك كان سنة معهودة عندهم ، فتعجبت من ذلك حيث تحرم وارث الميت من ميراثه . ثم اشتدت الريح مرة ثانية وكانت تتقلب بين القبول والدبور فألجأتنا إلى بعض الجزائر حيث جاءنا أهلها يعرضون علينا بعض المشتريات فاقتنينا بعضها من خبز وزيتون وبيض . أما اللحم فلم نأخذه منهم لأن كيفية ذبحه كانت ظنية عندنا . ثم عاودنا الإقلاع حتى بدا لنا الساحل وجرت بنا ريح طيبة حتى وصلنا إلى الإسكندرية فحمدنا الله على السلامة وعلمت لماذا بدأ الحق في كتابه بالبر قبل البحر ، فعزمت أن لا أبدأ إلا بما بدأ به الحق " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " .

لم ألبث في الإسكندرية إلا يوما أو يومين حيث هالني منارها العجيب ، ثم يممت صوب الفسطاط أبغي الصلاة فيه لأنه أول مسجد بني على هذه الأرض زمن الفتح. أمضينا أربعة أيام بين الإسكندرية والقاهرة . ولما وصلنا إلى مدينة النجم القاهر كانت المجاعة تضرب أطنابها وتنهش بأنيابها المرضى والضعفة والصغار والأيتام والأرامل والشيوخ حتى هلك أغلب سكانها . ومع المجاعة أصاب البلاد الداء العضال الطاعون . أثناء دخولي للبلد رأيت الكثير من سكانه تخرجون طالبين بلدانا أخرى ، وكانت المراكب في الإسكندرية تقلع محملة بالهاربين إلى المغرب أو الشام أو الحجاز أو اليمن . وكانوا يستغربون ورودي على مكمن الداء والعلة وهم يفرون منه فرارهم من الزحف الأكبر . ولكن القلب واثق من ربه متيقن من أمره عالم بما سخر له فلم يعبأ لحرص الناس على الدنيا ولم يداخله شك ولا ريبة . وكيف يتأتى له ذلك وقد صدر الأمر بالرحيل إلى الشرق. أمر الله لا يتخلف وإرادته نافذة وحكمه ماض . لم أكن أعرف أحدا في القاهرة، ولكني قصدت مع الرفقة تلك الخوانق التي بناها الأيوبيون للعباد والنساك والغرباء علني أجد بعض ما أخفف به من الوحشة .

القاهرة ومصر الفسطاط مدينتان تجمعهما السور الذي بناه السلطان صلاح الدين الأيوبي لاتقاء هجمات الفرنجة الصليبيين . وقد استعمل السلطان في بنائه الأسرى

المسيحيين . والفسطاط أولى المدينتين حيث بنيت فور وصول جيوش المسلمين في عام 20 للهجرة . أما القاهرة فقد بنيت بأمر الخليفة الفاطمي المعز .

قصدت الخانقاة الذي كان يعرف في العهد الفاطمي بدار سعيد السعداء. ويعرف الآن بالخانقاة الصالحية أو الناصرية . وقد بناها السلطان برسم الفقراء الصوفية وأوقف عليها أوقافا كثيرة . وهي أول خانقاة عملت بديار مصر . وكانت تعرف أيضا بدويرة الصوفية . توجد هذه الخانقاة بخط رحبة باب العيد من القاهرة . وهي من أعظم المدارس وقد شرفت بمجاورتها لمشهد الإمام الشافعي . ولم يكن مر على بنائها وقت وفادتي على هذا البلد سوى قريبا من ثلاثة عقود . دخلت مع صاحبي الحبشي والحصار من مدخل بسيط للخانقاة مستطيل الشكل. صنع بابه من خشب الخرط وسمر بصفائح النحاس . وقد علا المدخل طاقية على هيئة عقد مدبب . وعلى الباب حارس انتصب واقفا من دكنه بعدما رآنا نبغي الولوج فاستفهمنا عن حالنا وغرضنا . فلما أعلمناه بأمرنا طلب منا مرافقته إلى شيخ الخانقاة .

أفضى بنا المدخل إلى درعاة مستطيلة ، ونحن نتعقب الحارس فوصلنا إلى ممر مستطيل وقد زين الكل بعروق الخشب . وعلى جانب الممر باب على شكل عقد نصف دائري ومنه وصلنا إلى حجرة مستطيلة . وفي طرف الحجرة باب آخر على نفس الهيئة ثم حجرة ثانية على نفس الشكل ونفس الأبواب . وأخيرا وصلنا إلى صحن الخانقاة وفي وسطه سقيفة محمولة على أربعة أعمدة حجرية ، وهي فسقية أعدت للوضوء . من الصحن دخلنا إلى الإيوان الشرقي للخانقاة وفي وسطه محراب

يكتنفه عمودان خشبيان بأضلاع مثمنة وقاعدتهما وتاجهما متشابهان . وتعلو المحراب قمرية دائرية ، وعن يمين المحراب منبر خشبي . وعن يمين المحراب بابان ، وعن يساره باب ثالث . طرق الحارس أحد الأبواب ثم مكث قدر ما سمع صوتا يستفهم عن الطارق ، فلما أجاب هذا الأخير أذن له في الدخول فدخل ولبثنا ننتظر حتى عاد فدخلنا وراءه ورأينا شيخا بلحية مصففة أجمل تصفيف وعمامة بذؤابة جميلة وعلى الشيخ عباءة خضراء تحت قفطان أبيض ، وبيده سبحة من العقيق اليمني . هلل الرجل في وجهنا ورحب بنا ثم أمرنا بالجلوس بعدما أمر الخادم بإحضار بعض الطعام ثم سألنا قائلا :

ما الذي أتى بكم إلى أرض مصر مع أن بها المجاعة والداء ؟

فقلت : لقد أتينا لبلدكم لأننا عزمنا على أداء الفريضة بإذن الله . فأردف قائلا : تقبل الله منكم وأعانكم على الطاعات ، فهل استوفيتم شروط الرحلة من زاد وراحلة ورفقة مأمونة ؟

فقلت : أما الزاد فتقوى الله عز وجل ، وأما الراحلة فذكر الله الذي هو براق كل طالب . وأما الرفقة المأمونة فإخوان على سرر متقابلين تحابوا في الله .

أحسنت أيها الشاب العالم ، فقد صححت الظاهر بالباطن ولم تقنع بالقشور بل غصت تطلب اللباب . فيالها من همة عالية . فمن أين أتيتم ؟

من بلاد المغرب كما يظهر من ثيابنا يا شيخ .

مرحبا بكم بيننا وستنزلون عندنا مكرمين . وهناك آداب مرعية داخل الخانقاة تجب الإلتزام بها . وسأترك الخادم تخبركم بها بعد حين ، فأنتم الآن في حاجة إلى الراحة . ثم أمر الخادم بأن يدلنا على مكان السكنى .

استأذنا الشيخ وتبعنا الخادم الذي قادنا إلى الإيوان المقابل في الجهة الغربية حيث توجد مجموعة من الخلوات . دخلت إحداها وكذلك فعل أصحابي . طول الخلوة خمسة أذرع وعرضها ذراعان ، مرتفعة شيئا ما عن أرضية الصحن . فرشت أرضها بحصير ووضع في جانب زق من الماء ، ومصباح وضع في مشكاة هو كل أثاث الخلوة . أسرعت إلى فسقية الوضوء فتوضأت ثم صليت ركعتين داخل الخلوة فوجدت عند عودتي رغيفين وشيئا من اللحم والحلوى فأكلت وحمدت الله ثم صليت الفرض ونمت نوما عميقا رغم وخز حبال الحصير التي كانت تؤذي جنبي .

في يوم الغد طلبت من الخادم أن يدلنا على مرافق الخانقاة فامتثل بكل فرح وسرور إذ الخص نشاطه المعتاد في السخرة والخدمة . فلما رأى بارقة الإحتياج إليه عظم قدره لديه. بدأنا الزيارة ونحن في صحن هذه المنشأة . والصحن يتوسطها وله أربعة أواوين ، الإيوان الغربي الذي نقيم فيه ويقابله الإيوان الشرقي حيث يقيم شيخ الخانقاة وبعض كبار الشيوخ ، والإيوان الشمالي والإيوان الجنوبي . وبالإضافة إلى هذه الأواوين هناك الحمام ، وهو يختلف عن شكل الحمامات الموجودة في مغربنا وإن كان تدريج الحرارة بين المغاطس تختلف حسب القاعات الثلاث . وقد وقف على الخدمة بالحمام حلاق لتدليك الأبدان وحلق الرؤوس .

زرنا بعد ذلك خزانة الأشربة والأدوية والمستحضرات والأعشاب. وكان بعض رواد الخانقاة يتداوون بهذه الخزانة لما بدأت أعراض الحمى تظهر بينهم، وإن كان الأمر على غير ما كان مشاهدا خارج أسوار الخانقاة . وما ذلك إلا بسبب أن القطان بها لم يكونوا يبرحوها إلا لماما . وللخانقاة أيضا سقاية تعرف هنا بالسبيل لسقاية المارة والنزلاء عامة . وهي تتكون من طابقين أولهما صهريج لتخزين الماء في باطن الأرض وفوقه مزملة أو حجرة سبيل بصدرها سلسبيل في شكل لوحة رخامية ينساب عليها الماء فيبرد ثم يوزع على أحواض الشبابيك. وهذا السبيل مبني بجوار المدخل . كما أن للخانقاة مطبخ وبجانبه ميضة . وقد أخبرنا الحارس أن للخانقاة وظائف دينية وخدمية . أما الأولى فيأتي في مقدمتها شيخ الخانقاة والمدرسون والإمام وناظر الوقف والصوفية وأخيرا نزلاء الخانقاة . أما الثانية فتضم كاتب الغيبة وشاهد الشونة وشاهد المخبز والمزملاتي والطباخ ومقدم النعال . ومن شروط وقفها أنها للواردين من خارج مصر والقاطنين بالقاهرة ومصر . فإن لم يوجدوا كانت للفقراء من فقهاء الشافعية والمالكية الأشعرية الإعتقاد . ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره إعانة له على السفر . ولهم ثلاثة أرغفة وقطعة لحم في مرق في كل يوم . كما تعمل لهم الحلوى في كل شهر ويفرق عليهم الصابون وتصنع لهم كسوة كل سنة . وكان من شروط الإقامة في هذه الخانقاة عدم التغيب لأكثر من ثلاثة أيام في الشهر ، فإن حصل ذلك انقطع معلومه ووفر لجهة الوقف . وقد رأيت النزلاء من الصوفية في هذه الخانقاة قد اعتنوا كثيرا بظواهرهم وإسبال لحاهم

وتسرّحها وحمل المصابيح الرفيعة واللهو بها بين الأصابع بترديد بعض همهمات بين الحين والآخر .

في الأيام الأولى لمقامنا في هذه الخانقاة تعرفت على الكثير من نزلائها وكلهم يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذلك . ومرة جرت لي محادثة مع رجل يكاد يكون رأس الصوفية في هذا النزل ويدعى شيخ شيوخ أربيل ، وهكذا يتحدث عن نفسه . ومن خصاله أنه يتكلم ثم يدع لك الفرصة للكلام على قدر ما أخذ ، وهذه محمدة قل نظيرها . ثم لما علم بأني من بلاد المغرب زعم على حد قوله أنه ليس في تلك البلاد أي بلادنا من يعرف الطريق إلى الله ويتعرفه . وكدت أن لا أجيبه ثم بدا لي أن أنافح عن الحق الذي لا مراء فيه وأن لا أدعه في هذا الضلال فأبديت له يسيرا مما لدى بعض أشياخنا من الأسرار وما تعلمناه في بلدنا ومما فتح الله به علينا . ثم أخبرته بأبي النجا سيدي أبي مدين وأحواله فصعق الرجل وبقي مبهوتا مما سمع . ولكنه معذور فيما قال . فلم يكن في المغرب تصوف منظم في خانقات ، بل كان أهل الله منقطعين في أرض الله إما في الأربطة والثغور أو في المساجد أو في دورهم ينشرون كلمة الله . وإن كان لهم أتباع وأصحاب فلم يكن ذلك كما شاهدناه في هذه الدار من مراسيم وطقوس وملابس معينة . فلم يكن التصوف عندنا كذلك ، وإنما كان بعض الفقهاء يفعلون ذلك ويتميزون عن غيرهم بثياب رفيعة وعمائم مكورة . ثم إن بعض أصحابنا سأله مسائل في الحقائق لم تجد لها

جوابا فأقر بنقصه وبقي مبهوتا . ثم قلت له : إن كنت قد استعظمت حالنا وما قلناه لك فاعلم بأننا آخر من يعلم هذا في بلدنا ، ثم تركته حائرا وانصرفت .

بعد هذه الحادثة لم يبق لي المقام داخل هذه الدار التي تشبه أديرة القسوس وتنظيماتهم . فالطريق إلى الله غير هذا لأن الله ما تجلى لعبد بمثل ما تجلى به لآخر . وليس المقصود هذه الطوائف التي يتزعمها شيخ لا يرى معه لغيره قدرا . ثم إن الحال اشتد علينا حيث قلت النفقة على الدار وكثر المرضى ومات منهم خلق كثير ، حتى صاحبي الحصار الذي رافقني من فاس برسم الفريضة قضى نحبه هنا في هذا الجو الموبوء . ولقد التقيت بالقاهرة الأخوين الشقيقين أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الإشبيليان . وقد كنت صحبتهما زمانا في إشبيلية إلى عام تسعين وخمسمائة . ثم التقيتهما هنا في شهر رمضان من عام 598 حيث أمضينا شهر الصيام جميعا . وكان اجتماعنا من أحسن أيام حياتي ، واتفقنا على الذهاب إلى مكة فرارا من المسغبة والوباء ، أي فرارا من قدر الله إلى قدر الله ، لأنه كل يوم هو في شأن وشؤونه أفعاله وهي شؤون يبديها ولا يبتديها . هذا هو الفرار أي من الله إلى الله "ففروا إلى الله" . وكان هذا أحد الأذكار التي عرفت لها في زمن مضى ووجدنا له طعما في هذه الأيام . لكن الوباء عاجل صاحبنا أبا عبد الله الخياط فمرض مرضا شديدا وبقي أخوه في خدمته .

رحلت أنا والولد الحبشي صوب بيت المقدس أولى القبلتين . وكان خروجنا في شهر شوال من نفس العام . لم أتمكن من زيارة كثير من الأماكن والمشاهد إلا ما كان قريبا . وكنت آمل في العودة إلى القاهرة في ظروف أحسن من هذه حيث لا وباء ولا مسغبة . وأغرب ما استوقفني في هذه البلاد الأهرامات وكتابة المصريين باللسان القديم . ولا شك عندي أنها تنطوي على جملة العلوم الإدريسية كما رأيت بعضه مكتوبا في خزانة قاف بقلم هرمس .

خرجت من القاهرة أبغي الحج ولكن لا من طريق الحجاج المعتاد بل عبر بيت المقدس . فالوارث المحمدي يجب أن يكون تابعا لقدم من ورث ، لا يضع نعاله إلا حيث وضعها قدوته . فأول قبلة بيت المقدس ، فكان علي أن أيمم شطره قبل أن أرحل إلى بيت الله الحرام . مررنا في طريقنا ببلباس والصالحية والعريش وغزة والخليل . وفي مسجد الخليل قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقبور أزواجهم . فصلينا ركعتين هناك كما في حديث الإسراء . وعند الخليل في الطريق إلى لوط عليه السلام وقفت بمسجد اليقين وهو موضع سجود إبراهيم عليه السلام . وهو قريب من تربة لوط على تل مرتفع وله نور وإشراق وعزة وثبات من أجل قاف اليقين ، جبل الرسو والثبات . ولا تجاوره إلا دار واحدة يسكنها القيم على المسجد . وفي

المسجد قريبا من بابه موضع منخفض في حجر صلد ، قد نحت فيه صورة محراب لا يسع إلا مصليا واحدا . وقد سجد إبراهيم في هذا الموضع شكرا لله على هلاك قوم لوط . وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهم السلام ، تابعية روت الحديث مرسلا عن جدها فاطمة وعن أبيها وغيرهما . وقد صليت في مسجد اليقين ركعتين وأكملت الطريق إلي بيت المقدس فوصلناه ودخلنا من باب العمود . والمدينة محصنة بأسوار مليحة . فكان أول ما بدأنا به أن توجهنا إلى المسجد الأقصى فدخلنا أولا إلى قبة الصخرة المباركة . وهي مثمنة الدائرة ولها أربعة أبواب عظام . وأعمدة القبة أربعون من المرمر الفائق . وقد كتب في دائرة قبة الصخرة من خارج سوره بدائرة السطح المحيط بها سورة يس إلى "وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون" .

وأما جامع المسجد الأقصى فهو أيضا في غاية الصنعة ومحرابه في غاية الحسن وهو الذي سيصلي فيه المهدي ويقتدي به عيسى عليه السلام حين نزوله . وقد كسي بأنواع الرخام وعدد ألواحه سبعة عشر لوحا على عدد الركعات المفروضة في اليوم والليلة . ثمانية منها بيض وأربعة حمر وثلاثة إلى السواد أميل واثنان إلى الخضرة أميل . فالألواح الثمانية البيض إشارة إلى ركعات الظهر والعصر ، والحمر تشير إلى ركعات العشاء بعد حمرة الشفق ، والثلاثة التي تنحو إلى السواد تشير إلى ركعات المغرب حيث يقبل الليل . أما الإثنان الخضراوان فإشارة إلى صلاة الصبح . فما أبدع صانع هذه الألواح ، ولا غرو فقد أم النبي عليه السلام سائر الرسل والأنبياء في هذا

المسجد ثم عرج إلى ما فوق سدرة المنتهى وفرض عليه الحق وعلى أمته الصلاة ، فكانت المناسبة لائقة . والمشاهد والقبور والمآثر كثيرة بهذه المدينة وفيها كذلك العديد من المدارس . وبالقرب من مربط البراق زاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومسجد يقال له البقعة البيضا. يصلي فيه إمام المالكية وقربه حارة المغاربة وهي وقف عليهم . وحدود هذه الحارة من الجنوب سور المدينة ، ومن الشرق حائط الحرم الشريف ، ومن الشمال طريق باب السلسلة المؤدي إلى الحرم ، ومن الغرب حارة الشرف حيث يسكن الحكام والقضاة . وللمغاربة ذكر جميل في هذه المدينة لما أبلوه من البلاء الحسن في الدفاع عن بيضة المسلمين . ودنانيرهم موجودة ويتعامل بها الناس كثيرا . كما أن الحصير المغربي الذي يفوق الديباج حسنا معروف عند الخاص والعام . أما اللبود المغربية الحمرا. فيتهافت العلماء والفضلاء والأعيان على اقتنائها ، وقد ذكرها الجاحظ في كتابه التبصر بالتجارة .

وللنصارى مآثر مشهورة ومنها ما يسمونه كنيسة القيامة . أما اليهود فعددهم قليل جدا لأن نصارى البلاد لا يرغبون في مجاورتهم ، وهي عادة قديمة . فإن بيت المقدس كانت محرمة على اليهود منذ زمن لما خربها تيتوس ابن الإمبراطور الروماني في بدايات التاريخ المسيحي ، وظلت محرمة عليهم حتى ظهر الإسلام . ودخل عمر بن الخطاب المدينة عام خمسة عشر للهجرة ، فجاءه البطريق صفرونيوس ومعه معاهدة أصر فيها على عدم السماح لليهود بالعودة إلى القدس على نحو ما استقر عليه الأمر منذ إجلاء الرومان لهم . ولكن المسلمين تسامحوا مع كل أهل الكتاب فسمحوا للجميع بالإستقرار في المدينة وأداء الشعائر الخاصة بهم .

وفي ناحية الجنوب من بيت المقدس كنيسة صهيون التي كانت لجماعة فرسان الداوية، وفيها المائدة وهي باقية إلى الآن . نزلنا من باب صهيون في خندق يعرف بوادي جهنم أعاذنا الله وإياكم منها . وفي الخندق عين السلوان التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى . فوصلنا إليها وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو شبر . وقد أكلنا عليها وخلونا فيها للدراسة وسألني الولد عبد الله بدر عن شأنها .

قلت له : يا ولدي ، تلك مائدة أمرها غريب وأغرب منه أن الله قد ذكر ثلاثة موائد في القرآن كما ذكرنا ذلك بالإشارة في كتابنا الإسرا إلى المقام الأسرى "كن في المحاق ثلاث ، تفز عند المقابلة بثلاث ، إن وقفت على الموائد الثلاث ، جزت مقام الضحك والإكترات" . فأول الموائد مائدة موسى عليه السلام " وظللنا عليكم

الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى" . والثانية مائدة مريم عليها السلام "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا" . والثالثة مائدة عيسى عليه السلام "قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء" .

وهنا بادرني بدر قائلا : يظهر من هذا أن للنصارى حظ ولليهود حظ آخر ولمريم حظ ثالث من المائدة . فأين حظ المسلمين من تلك المائدة مع أنها ذكرت كسورة من القرآن ؟

فأجبته قائلا : حين ذكرت هذا الأمر كنت بمعرض الحديث عن الفردانية فخصصت بالذكر ما ورد فيها ومن جملتها الموائد الثلاث وهو عين ما جاء في القرآن . إلا أن المرء لا يمكن أن ينكر أن المسلمين لا حظ لهم من تلك الموائد بحسب الظاهر . ومع التبصر يزول هذا الإستنتاج الأولي . فأصغ إلي جيدا وأصخ بأذنك وجنانك تظفر بالفرائد والدرر .

كلي أذن واعية يا سيدي .

من الملاحظ إذن أنه كان للنصارى الثلثين في الموائد المنزلة باعتبار أن مريم وعيسى عليهما السلام لهما مائدتان . وبقيت المائدة الثالثة لموسى واليهود . وحظ المرأة كحظ الرجل . كما أن حظها لم يكن عن سؤال كما كان الشأن بالنسبة لعيسى . وقد ظهرت فتوة المائدة عند النصارى من أجل هذا الأمر ، ولهذا تحدثوا عن المائدة المستديرة . فأين مائدتنا ومائدة نبينا إذن ؟ لقد ورد في سنن الدارمي " إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه ما استطعتم" أو " إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من

مأدبته ما استطعتم" . وكذلك "إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن" .
قد تقول لي إن الحديث لم يذكر المائدة وإنما تحدث عن المأدبة . فأقول لك صحيح ، ولكن المأدبة لا تكون إلا على المائدة . ولا فائدة من المائدة إذا لم تكن مأدبة . فثبت لنا لازم المائدة وهو المأدبة . أما غيرنا فلم يثبت في حقهم سوى ذكر المائدة ، وشتان بين من ظفر بالمأدبة والمائدة تابعة لها ومن ظفر بالمائدة دون تأكد حصوله على المأدبة . ثم إن للأمة المحمدية حظا في موائد الأمم الأخرى . ودليل ذلك يا ولدي من باب العدد هو أن المائدة التي طلبها سيدنا عيسى لم تكن سوى مأدبة الله على مائدة القرآن . والآية التي ورد فيها ذلك الطلب هي الآية 114 من سورة المائدة ، وهو عدد سور القرآن كما تعلم . كما أن مائدة موسى وقومه وردت في الآية 57 من سورة البقرة ، وذلك العدد هو نصف العدد السابق . فهم لم تحصلوا على تمام القرآن لأن قوم موسى كانوا أكثر الناس تمردا على الأنبياء . ومشاكستهم وعدم الرضا بما قسم الله لهم من من وسلوى . أما عيسى فقد طلب تلك المائدة لتكون عيدا للأول والآخر . فالأول أمته والآخر أمة محمد عليه السلام ، وهي التي نالت التمام من مأدبة القرآن . كما أن عيسى هو من جملة أمة محمد حيث ينزل آخر الزمان بالشرع المحمدي . فلهذا نال من تلك المائدة القرآنية . ومن هنا يظهر أن الأمم الأخرى لم تطلب في حقيقة الأمر سوى مائدة القرآن التي هي العيد السرمدي "تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا" . وقد ظهر هذا العيد متجليا في العبد الكامل محمد عليه السلام . فعدد عيد 84 ومرآته 48 ومجموعهما 132

وهو عدد محمد الفهواني . فهو الأول والآخر "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين" . ثم إن سورة المائدة , حسب أحد الأقوال ,هي آخر سورة نزلت في الوحي فختمت حلقة القرآن. وكان النبي عليه السلام على راحلته ، فلما نزلت عليه لم تستطع أن تحمله فنزل عنها . وكانت المايدة من ثقلها تدق عضد الناقة لأنها محملة بالقول الثقيل " إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا" .

هنا قاطعني بدر متسائلا : إذن ، فالموائد أربع حسب هذا الإعتبار ؟

فقلت : كذلك يا ولدي ، ألا ترى أن سورة المائدة هي الرابعة في الترتيب من غير الفاتحة التي هي أم الكتاب . فهناك سورة البقرة التي هي السنام الأعظم والمأدبة الكبرى التي توضع على مائدة القرآن فنعمرها (آل عمران) بالمعارف والأسرار . وقتها تقوم المائدة على القائم الثالث للنساء (وهو حظ مريم) وتصبح مائدة مكتملة الثبات بالقائم الرابع . والسبب في هذا أن الموائد قائمة على التربيع لأنها محكومة بالميد ، ولإمساك ذلك الميد جعلت لها قوائم أربع ، ثلاث قوائم للرجل ورابع للمرأة لأن للرجال حق القوامة والقيومية على النساء . وقوائم المايدة التي هي الأرض هم الجبال الأوتاد التي تمسك ذلك الميد ، ولهذا كان عدد الأوتاد أربعة "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم" . فالمائدة كعبة وأركانها أربعة ، ثلاثة آدمية والرابع حوائي . ويمكن أن نقول إن المائدة بقوائمها الأربع هي التي تمسك ميد النوع الإنساني في صورة الإنسان الكامل من خلال توزيع حقيقة الرجل الآدمي وعدده 45 (آدم) وحقيقة المرأة الحوائية وعددها 15 (حوا) . ولا يتم الإستلام إلا

للركنين اليماني والحجر الأسود . أما الركنان الاخران أي العراقي والشامي فلا يقع استلامهما لأن السيدة مريم بتول منقطعة عن الرجال فلا تلمس ولا تمس إلا بالنفخ الروحي ؛ وكذلك عيسى كلمة الله وروحه "قل الروح من أمر ربي" . أما إذا اعتبرنا مائدة عيسى وأمه ركنا واحدا ، فإننا نسوق المائدة التي لم تمتد إليها أيدي ضيوف سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قدم العجل الحنيذ . فتكون هي المائدة الرابعة باعتباره أب الأنبياء . وهو الذي سمانا بالمسلمين . فلما لم تمتد إلى تلك المائدة أيدي ضيوفها أشبهت أحد الركنين اللذين لا يستلمان .

هنا قاطعني بدر مرة أخرى : لقد جعلت للمرأة سهما واحدا وللرجل ثلاثة أسهم في هذا التوزيع مع أن الله يقول " وللرجل حظ الأنثيين " .

فقلت : أصبت يا بدر . ولكن هذا في الحقوق ، ودليله من العدد أن عدد آدم 45 فلما انفصلت عنه حوا 15 صار عدده 30 وهو ضعف عددها فكان للرجل حظ الأنثيين . أما هنا فأنا أتكلم عن الإنسان الكامل الجامع لحقيقة المرأة والرجل معا ، ولهذا أحل لنا نكاح أربع نساء لإكمال ميد النوع الإنساني بحقيقة الأنوثة التي هي الركن الشديد .

ثم تدخل بدر قائلا : وكيف ربطت يا أستاذي بين حقيقة الإنسان الكامل الجامع لحقائق آدم وحوا وبين المائدة ؟

قلت : اعلم يا ولدي أن عدد "مايده" بتخفيف الهمز 60 ، وهو مجموع عدد آدم 45 وحوا 15 . وهكذا قابلت المايدة حقيقة الإنسان الكامل الجامع لحقيقة الرجل

والمرأة معا . والحروف التي تقابل حوا، من "مايده" الها، واليا، إشارة إلى الضمير الغائب (هي) في ظاهر الرجل الادمي . وعدد ذلك الضمير هو 15 أي نفس عدد حوا . وباقي الحروف هي الميم والألف والدال فإذا جمعت أجزاء الرجل المتفرقة في القبضة الجامعة لحقيقة الرجل والمرأة أعطتك (آدم) وعدده 45 . فحظ المرأة الربع من الدائرة أي دائرة الإنسان الكامل لأن حوا خرجت من ضلع آدم ، والضلع في العربية هو الربع . فثلاثة أرباع للرجل وربع للمرأة . فلا يقف أمام المرأة الواحدة أقل من ثلاثة رجال ولهذا قال الله تعالى" وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المومنين والملائكة بعد ذلك ظهير" . فانظر إلى هذا الركن الشديد التي استندت إليه المرأة حتى قال الله فيها ذلك القول . فالمايدة صورة أخرى لحقيقة الإنسان الكامل مؤلفة من مجموع آدم + هي (حوا) . وقد جاء التعبير عن المرأة بضمير الغائب لأن المشهود والمعروف هو الرجل على الرغم من أن أعرف المعارف في النحو هو ضمير الغيبة . فالظاهر في الرجل هو الذكورية الادمية والغائب فيه هو الأنوثة الحوائية ، فافهم ينقدح في قلبك كل طارف وتالد من الحكم. أما إذا أضفنا التعريف إلى المايدة ، فإن العدد يصير 91 أي عدد الإسم (كامل) ، لأن الكمال لا تحصل إلا في جمعية الرجل مع المرأة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة " . فالطيب للجمال والصلاة للجلال والنساء للكمال . فالذي تحدث الميد هو الهاء والياء (هي) فتحتاج حواء إلى ربط حبالها بالألف والدال والميم أي إلى آدم ، وحبالها أداة التعريف . أما صورة عدد 91

فهي 19 وهو عدد (رحمن) بالصغير لأن الله شق الرحم من اسمه الرحمن . ومن رحم المرأة تتولد الرحمة والحياة . وعلى صعيد آخر، فإن عدد مريم بالصغير هو 11 وهو عدد القطبانية الصغير، ولهذا كانت مريم من الكاملات "كمل من النساء آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران" . أما موسى فعدده بالصغير 17 أي عدد الركعات المفروضة في اليوم . وبين موسى والحق تعالى كان يتردد نبينا حين فرضت الصلاة حتى تخفف عنا ، إلى أن صارت خمسا بعدما كانت خمسين . وبقي الثواب بعشر . أما عيسى فعدده 12 وعدد محمد 20 . ومجموع هذه الأعداد بالجزم الصغير 11+17+12+20= 60 ، وهو عدد مايده . وقد رأينا أن الموائد المذكورة تخص هؤلاء الكمل عليهم الصلاة والسلام . ولكي تقع الجمعية بين آدم من جهة وبين حوا من جهة ثانية لا بد من رابط بينهما وهو الواو حرف الإنسان الكامل أي آدم و حوا فيكون المجموع 66 وهو عدد الله . فالإنسان الكامل خلق على الصورة الحقية . ولهذا جاء في الحديث " إن الله خلق آدم على صورته" . أي آدم الإنسان الكامل الجامع لحقيقة الرجل والمرأة معا . وهنا تتحقق مايدة الجماع الكمالي فنصير (مايوده) أي آدم + و + حوا ، وتتحقق المأدوبة . وانظر إلى موقع الواو في قلب مايدة الجماع ، واختلاط حروفهما في (مايده) إشارة إلى اللقاء والمساكنة والمودة والرحمة بحيث يصير كل منهما مشربا لحقيقة الآخر فتمتزج أشباحهما وأرواحهما معا .

وفي القرآن سورة ق صورة لآدم ، كما أن سورة الشمس صورة لحواء . فعدد آيات منزل ق 45 وهو عدد آدم كما أسلفنا ، وهي السورة الوحيدة التي عدد آياتها كذلك

. ومرآة ذلك العدد هو 54 ومجموعهما 99 أي عدد الأسماء الحسنى . ولهذا جاء في حق آدم " وعلم آدم الأسماء كلها " . وعدد ق هو 100 أي عدد الأسماء الحسنى مع الإسم الجامع . وسورة الشمس تناسب حواء لأنها المنزل الوحيد الذي عدد آياته 15 وكلماتها 54 لأنها مرآة آدم . وقد تحدثت هذه السورة عن نعوت الأنثى وختمت آياتها ب (ها) التي تشير إليها . وذكرت فيها النفس وهي رمز المرأة . وترتيب سورة ق 50 نزولا من الفاتحة إلى الناس . والخمسون هو عدد النون الذي هو نصف القاف . والقاف حرف عجيب جمع بين دوائر التقدير في رأسه وبين دوائر السعة فيما تبقى منه . وفي رأسه دائرة كاملة لكنها ضيقة لأن دائرة جبل قاف إنما كانت على الأرض وهي أول الدوائر . وبقيت النعريقة التي في القاف ترمز لباقي الدوائر . ونقطه أهل المشرق نقطتين رعيا منهم لمناسبته مع الياء في يقين الإعتقاد . أما أهل المغرب وهم أرفع حكمة فنقطوه نقطة واحدة لشبهه بالنون. أما السورة التي تلي سورة الشمس فهي سورة الليل " والليل إذا يغشى " أو " والليل إذا يغشاها " أي يغشى الشمس . وترتيب هذه السورة 92 وهو عدد محمد. فهو ليل المرأة الشمسية "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" فخصص زمانه بالليل . فحين يغشى الإنسان الكامل تلك النفس تطلع شمسها بالحقائق في ليل الوجود وتتجلى بين حاجبين فيقع الكشف .

وأخيرا اعلم أني ما تكلمت في كتابي الإسرا عن الموائد الثلاث إلا لأن الأصل في المائدة راجع إلى الأدب (أدب) ، وحروفه الأصلية ثلاثة . فكانت الموائد كذلك

بذلك الإعتبار، وإلا فهي أربعة كما ذكرت . ولكل حرف مائدته من حقيقة الإنسان الكامل آدم الذي ما هو إلا حسنة من حسنات أكمل الكمل سيدنا أحمد عليه الصلاة والسلام . إن آدم لما تجلى عليه نفس الرحمن وسمع الخطاب الإلهي أراد الكلام فنطق بالألف من إسمه آآآآآ فكاد أن ينقطع نفسه من شدة وهج أنوار الذات المرموزة في الألف . وقتها أسعفته حاء الرحمة والحياة فقال أح تنفيسا مما لحقه . ومخرج الهمزة والحاء واحد وهو الحلق . ثم استطاب تلك الرحمة فشفعها بماء الميم طلبا لبرد الماء . فلما سرى الماء فيه قام إلى الوجود فطلب الدفء من الدال . حينها رأى باطن حقيقته الأحدية فعطس وحمد الله وبشر برسول ياتي من بعده اسمه أحمد . فلكل حرف من حروف أحمد مائدته وشراب تلك الموائد في الدنيا ثلاث وفي الاخرة أربع ، وهي أنهار الجنة الأربعة : نهر من ماء ونهر من لبن ونهر من خمر ونهر من عسل . ألا ترى أنك تحمد الله بعد كل مأدبة تنبيها على هذه الحقيقة .

ويكفيك هذا القدر يا بدر في إيراد هذه الرقائق ، فهي ريحانة تشم ولا تفرك ، وإياك وكثرة التلبيس والإنكار . وهذا الفتح هو من بركات بيت المقدس الذي بارك الحق من حوله ، وإليه أسرى نبينا ليلا ومنه عرج إلى ما فوق سدرة المنتهى .

أيام معارف القاف

أمضينا بعض الوقت في القدس وهي تنتص بدرجة واحدة عن مرتبة الألوهية. كما أن بيت المقدس تنتص بدرجة واحدة عن المرتبة الوسطى للإسم الأعظم. وتلك الدرجة التي تنتص هي السبب في تحويل القبلة منها إلى الكعبة في مكة التي هي حرم الذات. تحققت براتب وتجليات هذه المدينة ووقفنا على أسرارها، وأكملت رحلة الإسراء التي بدأتها من مرسية إلى بيت المقدس. ثم ها أنا مقبل على الطور الثاني المعراجي من الرحلة. فإذا كنت قد دخلت خزانة جبل ق ورأيت ما فيها من العجائب والغرائب والنفائس، فها قد بدأت رحلة أخرى. طلعت علينا شموس المعارف في الآفاق وها هي الآن تطلع منا تلك الشموس "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم". لقد دخلت خزانة ق وعلمت ما فيها وما بقي من عمري سيكون في بناء هذه الخزانة في نفسي أي في هذا الوجود الصغير الذي حوى الوجود الكبير. سيصبح القرآن متلوا بنا وفينا ومنا ولنا. سيبدأ الفتح الذاتي المكي من قاف القدس إلى هاء مكة.

كانت قافلة الحجاج تتأهب للرحيل لأن الموسم قد أقبل، وكانت المدينة في حركة دائبة، وقد كثر الحجاج والكل تحضر مستلزماته لرحلة الحج نحو بيت الله. وقد كثر الحمل والوضع وروث الدواب منتشر حول المرابض والأنعام تنوء بأحمالها وقد أشعر بعضها وقلد هديا مسوقا ليوم الحج الأكبر. ذهبت رفقة بدر إلى سوق الدواب لكي أقتني دابة لي ولصاحبي. طفنا بجنبات السوق بحثا عن ضالتنا، فلم نجد سوى

بعض الرواحل الهزال وبعض الخيول والبغال والحمير . اشتريت راحلة لبدر ثم لمحت في جانب السوق رجلا له فرس دون البرذون وفوق الحمار علوا ، ناصع اللون ، دقيق الأرجل . أتيته وسألته عن فرسه فأخبرني أنه ليس للبيع . فلما ألححت عليه أخبرني بحكايته فقال : يا سيدي قصة هذا الفرس غريبة ، فما رأيت أسرع منه رغم أني صاحب خيول وعندي منها الكرائم . ثم إني رأيت البارحة فيما يرى الرائي رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا فرسي هذه آتيا من البيت الحرام ، ثم ترجل أمام بيتي في حارة المغاربة وقال لي : اذهب من الغد إلى السوق وسيأتي إليك رجل من أهل المغرب يسألك أن تبيع له هذه الفرس . فإذا فعل فاسأله هذا السؤال ، فإن أجابك بالجواب الذي سأعطيك فادفع له الفرس وأخبره أن لقبه هو (محيي الدين) ، وإلا فلا .

فقلت له : وما هذا السؤال يا سيدي ، فإني رجل من المغرب ، وقد نويت الحج على هذه الدابة ، فلعلي أكون ذلك الرجل إن شاء الله تعالى .

فقال : لا بأس عليك ، واعلم أني لا أعلم فحوى الإجابة وإن كنت حاملا للرسالة . وإنما أنا رسول بلغت بأمر فأنا قائم على تأديته . والسؤال المطلوب هو : لماذا كانت أسئلة الإمام الشيخ الحكيم الترمذي في كتابه ختم الأولياء سبعا وخمسين ومائة سؤال ؟

فقلت : لقد أخبرك عليه الصلاة والسلام عن الكبريت الأحمر والفرد الذي لا ثاني له خليفة الله في أرضه منفذ أحكامه بين الخلق بصدقه . والجواب عن هذا الأمر

عزيز . ألا ترى أنه لم ينصد للإجابة عن هذه الأسئلة أحد منذ حررها صاحبها عن نفث روحي وإلقاء رباني . وها قد مرت على وفاته قريبا من ثلاثة قرون ولم يظهر رجل يرفع هذا الأمر وهذا التحدي .

فأقول وعلى الله أتوكل ، لقد كان عدد هذه الأسئلة 157 لأن الذي سيجيب عنها هو خاتم الأولياء الذي هو على قدم خاتم الأنبياء والذي ينقص بدرجة واحدة عن الكمال الذي حازه خاتم الأنبياء . فله من الدرجات 157 باعتباره وارثا تابعا لمتبوعه . وذلك الكمال يتمثل في التحقق بأشرف كلمتين في الوجود (الله - محمد) اللذين مجموع عدديهما 66 + 92 = 158 . وما فاز بهذه الدرجات كلها على الكمال إلا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام حيث برزت منه تلك الدرجات . فلم يكن للوارث الكامل أن يرث الميراث بأكمله بل نقص بدرجة واحدة عن ذلك الكمال ، ويا لها من درجة . ومن جهة أخرى فإن عدد أسئلة الترمذي 157 ولكل سؤال جواب ، فمجموع الأسئلة 157 ومجموع الأجوبة 157 ومجموعهما 314 الذي هو عدد الرسل عليهم الصلاة والسلام . فالمجيب عن تلك الأسئلة هو المتحقق بعلومهم لأن العلماء ورثة الأنبياء . وصورة هذا العدد في الزمان له علاقة بالصلاة لأن عدد الرسل من دون سيدنا محمد 313 . فإذا أضفت لها عدد الأحدية (أحد = 53) صار المجموع 366 وهو غاية الكمال في أيام السنة الشمسية . وعدد الجمع في السنة هو 52 ، والجمعة مخصوصة بالعبد الجامع خاتم

الرسل ومرتبتها سماوية علوية . فإذا أضيفت 52 + 313 = 365 كان هو عدد أيام السنة الشمسية المعتادة . فلكل رسول يوم من السنة وهي الأيام المحمدية (محمد = 314) ولسيدنا أحمد صلى الله عليه وسلم باقي الأيام وهي أحمدية لأن الصلاة كتبت في السماء . فهو محمد في الأرض أحمد في السماء . ولا تجيب عن هذه الأسئلة إلا من كان لقبه محيي الدين لأن عدد ذلك الإسم هو 157 ، والله يبعث على رأس كل مائة عام من تجدد وتحيي للأمة دينها .

وسأكف زمام القول عند هذا الحد ، فها هنا بحار زخارة لا يغطس فيها إلا من كان ذا نفس . وكم هو عزيز ذلك النفس لأنه فتح فاء نفسه حسا ومعنى فلم تعد هوائية فارغة بل عمرت بطرائف المعارف والأسرار وأنوار الأذكار .

فلما أنهيت وجدت الرجل فاغرا فاه كأنما يريد أن يتلقف شيئا من تلك الأنفاس المحملة بالطرائف واللطائف . فلما نبهته أمضى بعض الوقت حتى أفاق من غيبته وقبلني وقال : يا سيدي ، كل ما قلت لم أدرك أبعاده ولكني متيقن برسوخك وبأنك صاحب الأمانة التي أؤتمنت عليها . ولقد صدق من سماك محيي الدين . ثم سلم إلي الفرس وأخبرني بأن اسمها قربى وأضاف : أما ثمنها فكتاب تكتبه في مكة تجيب به عن هذه الأسئلة وغيرها . إنه براقك إلى بلاد الذات لتفتح لك ، فهي لم تفتح لأحد سوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار . فطر ببراق القربى إلى حيث القرية وادخل في جزء من أجزاء تلك الساعة ليحفظك حاجب الرحمة وتظفر بالمطلوب . ثم

أخذ قدحا من لبن وقدمه لي وقال : هديت للفطرة ، خذ هذا القدح زادك الله علما وفتحا وذوقا .

فقلت له : جزاك الله خيرا يا بشير الخير ، واعلم بأن اسم فرسك هو مقلوب اسم دابة البراق التي عرج عليها صاحب هذا الأمر كله . وأرجو الله أن تكون هذه الفرس وسيلتي في الوصول إلى مقام القربة حيث لا مقام ، حيث سجود القلب الذي إن سجد لا يقوم من سجوده .

ثم أخذت الفرس ووجدت فيه الأصول الأربعة التي لا يستغنى عنها ولا عن واحد منها . وهي أنه كان واسع الأنف لأنه مخرج نفسه من جوفه . وما أحوجنا إلى نفائس الأنفاس المسافرة عبر الحضرات . والوصف الثاني أن يكون منسع الجوف لأنه محل النفس . والوصف الثالث صلابة الحافر لأنها تحمله وبها يكون جريه ، فإذا لم تكن لم يتم له جري . وأما الوصف الرابع فهو أن يكون قوي القلب شديد النَفَس لأن للقلب تقلبا ، فما أحوجه للثبات والقوة والرسوخ واليقين . والفرس الجواد يستغني بهذه الأوصاف ولا يستغني بغيرها عنها . ويستتبع هذه الأوصاف اللازمة أوصاف أخرى يستحب طلبها وقد حصلها هذا الفرس .

امتطيت فرسي وهمزته بلطف فانطلق كالريح المرسلة وكانت ذراعته ، أي ما بين آثار حوافره في الأرض وقت إحضاره ، أربعة عشر قدما . وغاية الذريع عند أصحاب هذا الفن ثنتي عشرة قدما ، فإن وجد كذلك فليس في الخيل أذرع منه . **أما** فرسي فقد جاوزت الغاية وأربت على النهاية حتى لكأنها البرق تخطف الأبصار

عدوا . وما ذلك إلا لأنه يمشي بأحرف النور الأربعة عشر . ثم أقعدته حتى أنظر إلى وضعه وهو قاعد لأن المثل عند دهاة النخاسين يقول " سومان للفرس ، إذا جرى وإذا جلس " . فالفرس بالنظر إلى الفرس يكون بجميع الأوضاع من قيام وقعود . فوجدته أهلا لكل خير ، وكريما من أجود الخيول بل إني لم أر مثله في حياتي . وكيف لا وهو هدية من سيد الوجود إلي في بيت المقدس والقدس حيث القاف تنادي قاف القربة والقربى للسفر إلى حضرة الملك العلام . فإذا كان إسراؤه على دابة البراق جسما وروحا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فإن إسراء الوارث روحا بفرس القربى من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام حيث بلاد الذات .

ما برحت القاف منذ دخلت خزانة قاف في المغرب ثم وصلت دائرة القاف في القاهرة حيث الحفظ المقرون بمصر المذكورة خمس مرات في الكتاب . ثم الآن في القدس حيث السفر إلى مقام القربة ببراق القربى ، ويتحصل ذلك بإهداء قربان النوافل بالتحقق بالعبودة المحضة التي لا مرمى وراءها . كانت المسافة التي تفصل بين بيت المقدس عن البيت الحرام واحدا وثلاثين يوما هي أيام المعرفة التي تجمع بين الأقصى والأدنى والحرام . فلا وصول إلى المعرفة الحقة إلا بالصلاة في حضرة الأدنى التي تزج بصاحبها في مقام القربة حيث بيت الله الحرام . قطعنا تلك الأيام في عز وشان وشاهدنا من غرائب الأمور . وانتقلنا من النكرة إلى المعرفة ومن المعرفة إلى النكرة حتى فنت عنا النكرة والمعرفة ثم وصلنا مدينة الرسول التي هي حرمه .

ترجلت عن دابتي وعقلتها في خوخة هناك ثم وطئت طيبة حافيا إعظاما وإجلالا لساكنها . وكم تحس المرء في المدينة بالرحمة التي انعكست على جميع ساكنيها . فأهلها أهل خير ورأفة وكرم وعلم ونجادة ، ولهم من كل خلق أكمله . وما ذلك إلا لأن الرسول بين أظهرهم . وهم أشد خلق الله أدبا مع خلق الله حرمة لساكنها الذي أدبه ربه فأحسن أدبه . دخلت المسجد النبوي فصليت ركعتين في الروضة الشريفة التي هي روضة من رياض الجنة . وقد وقفت أصلي إلى الأسطوانة المخلقة المعطرة . وقد كانت مصلى النبي عن يمين محرابه في مواجهة القبلة . ثم توجهت بعد ذلك نحو الواجهة الشريفة فوقفت ما شاء الله بين يديه مطرقا رأسي غائبا عن حسي ، مهشم الشخص ، منكسر الشبح ، غاضا الطرف من وهج الأنوار . وكل جوارحي بل ومسام جلدي آذان وعيون تتلقف كل ما فترت به الشفتان الكريمتان الطاهرتان . ثم أوصاني بما حفظ في قلبي ، وبشرني بالخلافة العظمى والوراثة الكبرى وأعلمني بوجود شعرة منه في لا صبر لها عليه . ثم أردف بأن كلامي الذي هو منه سيصل إلى الأحمر والأبيض . ثم بقيت ما شاء الله أغترف مما نفحني به حتى أذن لي بالإنصراف فاستأذنت كما يليق به دون أن أدبر لأنه عين القبلة . ثم سلمت على صاحبيه رضي الله عنهما . سكنت بجوار المسجد وزرت البقيع وغيره من

المعالم . ولم أكن أخرج من المسجد والروضة وكنت أصلي إلى جميع أسطواناتها المعروفة كأسطوانة السرير التي كان يوضع عندها سرير النبي ليلا لينام عليه ؛ وأسطوانة الحرس التي كان يقف عندها حراسه قبل أن تنزل آية " والله يعصمك من الناس " ؛ وأسطوانة الوفود التي كان تخرج منها لمقابلة وفوده وزواره ؛ وأسطوانة أم المومنين عائشة التي كانت تتهجد عندها ليلا . كما صليت إلى محراب التهجد الذي كانت تصلي عنده بَضعة رسول الله فاطمة الزهراء . وخلفه مقر أهل الصفة الذين أنزل الله في حقهم " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم . . . " . وهذا الوصف لأحوالهم منقبة عظيمة ومفخرة جليلة لأنها شهادة لهم من الحق . وكان أبو هريرة هو الذي يرأسهم وعددهم سبعمائة صحابي يصلون وينتظرون الصلاة الأخرى لا تخرجون إلى تجارة ولا زراعة ولا إلى خطة من خطط الدنيا . فلما نزلت تلك الآية قال النبي " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم " .

وقد توطدت العلاقة بيني وبين أهل المدينة وخاصة رواد المسجد النبوي وخادم الحجرة الشريفة الذي أخبرني بحادثة وقعت قبل ولادتي بثلاث سنوات في عهد السلطان نور الدين زنكي ، وهي من أبشع وأشنع ما تناهى إلى سمعي من قبيح الفعل . وذلك أن بعض النصارى خذلهم الله دعتهم أنفسهم في مدة حكم الملك نور الدين إلى أمر عظيم ظنوا أنه يتم لهم ، وهو نقل الرفات الطاهر للنبي من مكانه . فكان للسلطان المذكور تهجد يأتي به في الليل فرأى في إحدى الليالي النبي في نومه

وهو يشير إلى رجلين أشقرين ويقول أنجدني أنقذني من هذين، فهب من نومه مذعورا ثم توضأ وصلى ونام فرأى المنام بعينه ففعل نفس فعله السابق. ثم عاد إلى النوم فرأى نفس المنام ثلاث مرات. فلما تكرر عليه قام من نومه وأرسل في طلب وزيره الصالح جمال الدين الموصلي وحكى له ما اتفق له في نومه، فنصحه الوزير بالخروج من ساعته إلى المدينة المنورة والتكتم في أمره فتجهز في بقية ليله برواحل خفيفة وعشرين من أصحابه مع الوزير المذكور وكثير من المال. فوصل بعد أسبوعين من خروجه. فلما سلم على صاحب الروضة أمر كل صاحب مسألة وحاجة أن يأتيه حتى يعطيه من مال الله. فلما حضروا كان يتفرس في كل واحد أخذ أعطيته، فلم ير فيهم صفات وسمات الرجلين الأشقرين. ثم سألهم هل تغيب أحد عن الأعطية فأخبروه بأنه لم يبق سوى رجلين مغربيين لا يتناولان من أحد شيئا وهما صالحان يكثران من الصدقة على المحتاجين، فأمر بإحضارهما فرأى عليهما سمات الرجلين المعلومين. ثم سألهما من أين أتيا فقالا من بلاد المغرب، جئنا لأداء فريضة الحج فاخترنا جوار المقام الشريف. ثم ألح عليهما في أن يصدقاه القول فأصرا على ما قالا ثم سأل عن منزلهما فأخبر بأنهما في رباط قرب الحجرة الشريفة. فقام للتو إلى ذلك المنزل فوجد فيه مالا كثيرا وكتبا في الرقائق. وأثنى عليهما أهل المدينة بخير وقالوا إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة وزيارة النبي. ثم إنهما لا يردان سائلا وخاصة في هذه السنة المجدبة. فتعجب السلطان من أمرهما وأخذ يطوف بجنبات البيت حتى رأى حصيرا باليا فرفعه فرأى

سر دابا محفورا ينتهي إلى الحجرة النبوية فارتاع الناس لذلك الأمر . وعندها أمر السلطان بضربهما وجلدهما فأقرا بأنهما نصرانيان بعثهما النصارى في زي الحجاج المغاربة وأوفدوهما بمال كثير وأمروهما بالتحيل في أمر سولته لهم أنفسهم السقيمة وظنوا أنهم بالغوه ، وهيهات لهم ذلك . فقد نزلا في رباط المراغة قرب الحجرة الشريفة وصارا تحفران ليلا ولكل واحد منهما شكارة جلد مغربية فيخرجان بها إلى البقيع تلبيسا على الناس بأنهم في زيارة قبور بقيع الغرقد ثم يلقون حولتهم بالمقبرة وأقاما على ذلك مدة حتى كادا يصلان إلى الحجرة فوصل السلطان في صبيحة الليلة التي كادا يصلان فيها إلى الحجرة . فبكى السلطان بكاء شديدا وقطع رقابهما وحمد الله على أن جعله سببا في الذود عن الجناب الطاهر الشريف . ثم أمر الصناع والمهرة بصب رصاص مذاب في خندق عظيم حفره حول الحجرة ، فصار ذلك الرصاص سورا رصاصيا حول الحجرة الشريفة ثم عاد إلى الشام . وأمر أن لا يستعمل ذمي في عمل من الأعمال .

ثم أخبرني خادم الحجرة النبوية بحادثة مماثلة وقعت في عهد الحاكم العبيدي الذي أشار عليه بعض الزنادقة بنقل النبي وصاحبيه من المدينة المنورة إلى مصر . وزين له ذلك الفعل الشنيع وقال له إن الناس ستشد الرحال من أقطار الأرض إلى مصر فبنى الحاكم حائزا أنفق عليه مالا كثيرا حتى يستقبل الرفات الطاهر . ثم أرسل أبا الفتوح لنبش الموضع الشريف . فلما وصل إلى المدينة علم المدنيون بما جاء له وكان فيهم قارئ فقرأ في ذلك المجلس قول الله تعالى " وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم

وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " . فثارت ثائرة الناس وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومن معه من الرجال والجند لولا أنه قال لهم إن الله أحق بالخشية من الحاكم وضاق صدره مما أمر به من هذه الفعلة المخزية فلما انصرف النهار أرسل الله ريحا أتت على الأخضر واليابس فدحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها كما لو أنها كرات على وجه الأرض وهلك خلق كثير فانشرح صدر أبي الفتوح وذهب جزعه من الحاكم لقيام عذره . فلما أنهى الخادم كلامه قلت له : ذلك من كثرة جهلهم وجرأتهم على المحارم ، وأي حرمة أعظم من حرمة رسول الله حيا وميتا . ولقد ذهل هؤلاء عن قول الله تعالى " والله يعصمك من الناس " .

مكثت حتى العشر الأواخر من ذي القعدة في المدينة المنورة التي قال فيها ساكنها عليه السلام " المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " . نعم، هي خير لأنها موضع رحمة ورأفة وعلم . ثم انزعجت إلى مكة قصد الحج فاغتسلت في الميقات أي في آبار علي وصليت الركعتين وأحرمت بالإفراد ثم بدأت في التلبية وأنا على فرسي قربى . فما أن كانت ليلة الفاتح من ذي الحجة حتى وصلنا إلى مكة بيت الله الحرام . وقد وجدت من قربى كل خير فيالها من جلسة وثيرة وهيئة كريمة ، وما أحسست بالتعب بل كانت تطوي المراحل طيا والناس تجهدون في اللحاق بي وهيهات لهم

ذلك . والفتى بدر قد علق بأذيال فرسي على راحلته التي نفحت بنفحة القرب فصارت تركض ووجيب صدرها كأنه قصف الرعد من شدة ما عراها .

روح القاف

نزلنا بالقرب من البيت فأتيته من غير توان قصد الطواف والسعي . وما أن وقفت أمامه حتى أخذت عني فقبلت الحجر وخضت في الرحمة حتى غمرتني فكنت كالحاف حول العرش أسبح بحمد ربي . وبينما أنا أطوف مسبحا وممجدا ومكبرا ومهللا . تارة ألثم وأستلم وتارة للملتزم ألتزم إذ لقيت عند الحجر الأسود الفتى الفائت المتكلم الصامت الذي ليس بحي ولا مائت المركب البسيط المحيط المحاط . فعندما أبصرته يطوف بالبيت طواف الحي بالميت عرفت حقيقته ومجازه وعلمت أن الطواف بالبيت كالصلاة على الجنازة . ثم أطلعني على حقيقته وتنزهه عن المكان والزمان فعرفت منزلته وإنزاله ووقفت على مكانته من الوجود وأحواله . فقبلت يمينه ومسحت من عرق الوحي جبينه . ثم أعلمني أنه لا يكلم أحدا إلا رمزا ، وأن هذا الرمز فوق كل فصاحة وبلاغة . وأوقفني على اصطلاحه وفتح لي كيفية حركات مفتاحه فظهرت لي بالإشارة حقيقة جماله فغشيتني حتى غبت ثم أفقت وقد حصل العلم به . وأمرني بالطواف خلفه فوقفت على أسراره ونظرت إليه بنور قمره فأراني الحق من اللطائف مما لا يراه الطائفون فعلم الفتى همتي ومعناي . فقلت له :

اعلم يا فصيحا لا يتكلم وسائلا عما يعلم أنه لما وصلت إليه من الإيمان ونزلت عليه في حضرة الإحسان أنزلني في حَرمه وأطلعني على حُرمه، وقال إنما أكثرت المناسك رغبة في الناسك، فإن لم تجدني هنا وجدتني هنا . فلما سمعت كلامه وفهمت إشاراته وأعلامه جذبني جذبة غيور إليه وأوقفني بين يديه ومد اليمين فقبلتها ووصلتني الصورة التي تعشقتها ثم صارت الصورة تابع الصورة وترادفت عليها التحولات وأنا أقطع الأشواط . فتحول أولا في صورة الحياة ثم البصر والعلم والسمع والخطاب والإرادة والقدرة . وكنت أقبل الحجر في كل شوط وما أقبل إلا يمينه . فالبيت بمنزلة الذات والأشواط بمنزلة السبع الصفات . ثم صرفت عن البيت وجه قلبي وأقبلت به على ربي . فما وسع الحق غير هذا القلب الذي هو الكعبة التي تطوف حولها الأسرار . ثم أمرني أن أثبت في المقام الأوحد وحذرني من العدد لأن فيه هلاك الأبد، ثم اتفقت مخاطبات وأخبار .

فلما وقفت عند الحد قال لي الفتى : يا أكرم ولي وصفي ما ذكرت لي أمرا إلا أنا به عالم وهو بذاتي مسطر قائم . ثم دخلنا كعبة الحجر وألقى يده على صدري وقال : أنا السابع في مرتبة الإحاطة بالكون وبأسرار وجود العين والأين . أنا العرش المحيط وحر وفي القاف وسورتي الفجر . فدون بالقلم الأعلى الذي نزل بذاتك في رق النسطير ما رأيته بخزانة قاف . واجعل الإسرار معراجا والزم سبعة فهي الأبواب وأدر كتاب الفتوحات على تلك المفاتيح وأبوابها تطلع لك العلوم والأسرار والمعارف والأنوار فتبلغ المشرق والمغرب . ثم رأيت صورة الأزل فأخبرني بأن

الزاي هو أيضا من حروفه ثم أخذت منه تلك العلوم والأسرار فكان أول سطر قرأته وأول سر من ذلك السطر كلمته عن الحروف والحركات وما لها من الأسماء الحسنى . ثم ترادفت علي حتى بلغت خمسمائة وستين بابا .

ثم غاب عني الفتى الناطق الصامت وكنت قد لقيته من قبل بالجدول المعين وينبوع أرين فرأيته فتى روحاني الذات رباني الصفات إلي الإلتفات، فخاطبته حينها قائل: ما وراءك يا عصام قال: وجود ليس له انصرام . فكان النداء بالإسم عين القاف يقطعها الراكب على براق القربى في واحد وثمانين ومائة مرحلة . واعلم أن هذا العصام غير عصام غلام أبي جعفر أشعر بني سعيد الذي مر ذكره مع حفصة الركونية .

التفت إلي عبد الله بدر لما رآني قد غشيني من الأنوار ما غشيني وقد رجعت إلى حسي: يا سيدي لقد رأيتك تحادث ذلك الفتى النوراني فمن يكون ؟

فقلت له: إن ذلك الفتى الفائت هو روح القرآن العظيم . إنه الإمام المبين، فجميع العلوم التي اقتنصتها منه فائضة من القرآن بالإمداد الرباني المحمدي . فالطواف حول الكعبة له مظهران: ظاهر وباطن . فالكعبة حجر غير عاقل ولهذا فحرمة المومن عند الله أعظم من حرمة الكعبة . والطواف حولها كالصلاة على الميت لأن الطائف حي والمطاف به ميت لأنه حجر جماد . أما باطن الكعبة فهو عين ذلك الفتى روح القرآن . وقد دخلت معه الحجر، حجر الكعبة وهو رمز الإسم الظاهر الذي تظهر منه هذه الأسرار والمعارف . أما باطن الكعبة فمما لا

يمكن إدراكه في حضرة الذات وهو باطن الفتى الفائت فلا يمكن اللحوق به.
فالتردد بين الظاهر والباطن هو سير العارفين في كل شوط من الحجر الأسود وإليه . وذلك الفتى متكلم ظاهرا , صامت باطنا ليس بحي لأن الذات وراء صفة الحياة وليس بميت لأن الكل نابع من اسمه الحي . فذلك الفتى هو رمز للقول الإلهي المكون من أشباح وأرواح وهو الإنسان الكامل . ولقائي به هو للتحقق بالنشأة الكمالية على الفطرة . ففتى الكعبة جمع كل هذه الحقائق لأنه سر الذات ظاهرا وباطنا وهو مجلى العلم الإلهي والقول الإلهي . كما أنه الرق المسطور الذي رقم فيه القلم جميع ما كان وما يكون . وهو أيضا المظهر الحي للقرآن والفرقان أي الإنسان المتحقق بالكمال المحمدي ، الروح المتجسد والفرد المتعدد فهو الكعبة المقصودة والطائفون بها الأسرار . هذه هي حقيقة ذلك الفتى يا فتى .
قضينا المناسك على أتم وجه من طريق الإتباع والإنتفاع لا من طريق المماثلة والإرتفاع لسيد الخلائق ومنبع الحقائق . ثم لازمت الطواف مسبحا وحامدا ومهللا ومكبرا ، إضافة إلى إخراج كنوز الحوقلة. ولولا ذلك الكنز لما استطاع حملة العرش حمله . فكانت هذه الأذكار جيشا خماسيا عرمرما من جيوش أنوار الولاية. والحوقلة هي إشارة إلى آية الفاتحة " إياك نستعين " . وكنت كثير الملازمة للركن اليماني مع رفقة مأمونة من رجال ونساء نتدارس العلوم والمعارف . ثم تعرفت إلى الشيخ العالم الإمام الملازم لمقام إبراهيم عليه السلام مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجا الإصفهاني، وسمعت منه ومن أخته فخر

النساء بنت رستم . وقد سمعت منه كتاب الإمام الترمذي في الحديث مع جماعة من الفضلاء ، ونحن في بستان المعارف نتفيأ في الظلال . وكان هذا الشيخ ظريف المحاورة لطيف المؤانسة .

فتاة القاف

وكانت له بنت عذراء طفلة هيفاء حازت أسنى المراتب وأعلى الغايات اسمها النظام بديعة حُسن ، جميلة سَمْت لقبت بعين الشمس والبها ، عابدة عالمة سائحة زاهدة . تحدث عن الحسن والزمر العي في الوصف فما وراء . وصفها وصف وما لطالبها لمثلها إلا الحتف ، مهرها غال ليس له سوم ولا ثمن ، حلت في الفؤاد فأضحى يسيل بألف واد . أحببتها منذ رأيتها ، علقت روحي فنمازجا اتحادا ولا جرم تخلله جرم . نطقها بلاغة وصمتها فصاحة ، إن أوجزت أعجزت وإن أسهبت أتعبت . إنها من الحور العين والغيد ذوات الحسن والزين ليس لمثل مثلها نظير ، فكيف بالشبيه والمثيل . جنة يانعة قطوفها دانية ، شامة على الخدود وردة في بستان ، حبب على صفحة نرجسة . قد ختمت بالعرف فانتشى شذاها في الرياض فأفشى عبيرها بين مسام أصحاب الروائح والغياض . وقد رأيتها مرة وأنا في الطواف وكان الوقت ليلا ، وقد هدأت البادية ممن فيها ولم يكن يطوف بالبيت إلا

بعض الطائفين من الزهاد والصالحين . وقد امتلأت السماء بالنجوم حتى لكأنها عيون الضواري في الليل البهيم . وكان النسيم تحمل أنفاس الرحمة فهيج الزمان والمكان روحي فأنشدت شعرا حضرني :

ليت شعري هل دروا	أي قلـب ملكـوا
وفؤادي لـو درى	أي شعب سلكـوا
أتراهم سلمـوا	أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهـوى	في الهوى وارتبكوا

فما شعرت إلا بكف لينة تضربني بين كتفي ، فالتفت فإذا أنا بصبية من الحور العين طُفَيلة تقطر حسنا وبهاء فطار قلبي كالطائر ينتفض من غدير جاءه للورد . وكان الحال الذي هزني قد زاد برؤية هذا الظبي الذي حل بكناسي فأغلقت برؤيته كناشي وطرقت أنظر وأسمع لرقة الحواشي . فقالت : يا سيدي كيف قلت ؟ فرددت البيت الأول ، فقالت : عجبا منك ! وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا ، أليس كل مملوك معروفا ، وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة ، وتمني الشعور يؤذن بعدمها . والطريق لسان صدق فكيف تجوز لمَلك أن يقول مثل هذا ؟ قل يا سيدي فماذا قلت بعده ؟ فأنشدتها البيت الثاني ، فقالت : يا سيدي الشعب الذي بين الشغاف والفؤاد هو المانع له من المعرفة فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة ؟

وهكذا سارت تفند دعواي في كل بيت أنشدته وأنا مطرق مصغ أصيغ إليها وحسنها ألجمني عن القول . ألم تسمع قول القائل :

إذا بدا الحسن فاسجد له　　　فسجود الشكر فرض يا أخي

ولما سمعت منها هذا العلم وهذه الرقة وتلك الحلاوة وذلك الظرف استجمعت قواي وسألتها :

ما اسمك يا بنت الخالة ؟ كما لو أنني بهذا اللقب أخفي الحالة بنقطة الخالة عن جمال هذه الهالة . فقالت : قرة العين . فقلت : لي . فما أعذب هذا الكلام . ألا ترى أن العين لا يمكن أن تكون إلا قريرة فدلت على الفرح والبهجة والسرور . أما إذا ارتفعت حرارتها سخنت فكانت كناية عن الترح والنهجة والشرور .

تلك هي قرة العين وجارة البلد الأمين ملكت زمام روحي ، ثم سلمت وانصرفت من حيث أتت وأنا خارج بلاط الطواف لا أدري كم شوطا قطعت عند بروز هذا الظبي النافر ذي الحسن الباهر والعيون النواعس الذوابل كما لو أنها لا تنفك عن البكاء تنكيلا باسمها قرة العين . فقرير العين بارد العينين وسخينهما باكي أبدا .

فقلت لنفسي لو أن السماء تمطر كما تمطر دموع ذلك الشاذن لكانت الأرض جنة خضراء . ثم تعرفت إليها بعد ذلك ولم يكن حديثنا إلا في الرقائق والحقائق فهمت لها وهامت بي وكنا كقيس وليلى في جوار البلد الأمين . وكان ذلك الحب رقيقا عفيفا . فكما أن الفتى الفائت كان روح القرآن وترجمان الإمام المبين ، كانت هذه الغادة الهيفاء روح الكعبة النهداء الشماء المكسوة بسواد السيادة . كانت

النظام عين الكمال في المرآة وكلمة الحضرة في الصورة الوجودية. فيالها من بسملة كونية راقية أحسن نظمها خالق الوجود ومده . وكان والدها لا يمانع في لقائي لها لما علم من حسن طويتي وصدق نيتي فوجدت فيها حواء آدميتي . إنها رملة صخري وأرض وطني . وكنت لا أفتأ أبسمل وأحذو باسمها لأنها عين الكمال وأي كمال أعظم من عين الشمس . إنها بسملة روحي وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسملة الوجود فهو أبتر وأقطع وأجذم ، أي أنه والعدم سيان لأن الوجود كان بكلمة الحضرة ، وصورة الحضرة نظام . ألا ترى أن الجهر هو عين البسملة لأن حروفه تسعة عشر . فكانت الغلبة للجهر على الهمس لأن حروف هذا الأخير عشرة .
وما حازت تلك الغلبة إلا لأن كمالها مبطون فيها فإذا برز صار جوهرا .
لم نكن نجلس إلا والشعر حاضر بيننا يسفر عن بواطننا التي أضحت كالبلور شفافة لأن روحينا تمازجا فلم تعد بينهما ظلمة حاجبة . ولم أكن أخاطبها إلا قائلا : يا قرة العين . ولم يكن حرف النداء نداء على رأس البعد في حالتي تلك بل كان عين القرب حتى أني كنت أمد الألف وأتمنى أن لا ينتطع النفس حتى لا تنقطع الوصلة في ذلك القرب . فاعجب لهذا وتعجب ، كيف أن ما وضع للبعيد صار في عرف المتحابين عين القرب . ولم يكن يشفع لذلك الإنقطاع إلا استضافة قاف (قرة) لذلك النفس . فكان برد القاف تخفف من وهج ذلك النداء . أما هي فلم تكن تناديني إلا بسيدي . وكنت أستحيي من هذا النداء حيث كانت هي سيدتي . فالسيد فينا هو من ملك الآخر ، وهذا لم يكن لي به علم حيث إن تمكن حبها مني كان كتمكن

حبي منها . وما لهذا النوع من ميزان يعرف ولا مقياس يمسح أو يذرع . تمازج الحب حتى صارت الروح واحدة فلم يعد هناك طالب ولا مطلوب، ولا مريد ولا مراد . فالمراد طالب للمريد وهذا مريد لطالبه . فأين البدء وأين المنتهى . ثم بدأت أنظم فيها من رائق الشعر وجميل النظم ما أعربت عنه من ثناياها وسالت به من حسن نواياها، فكنت أناديها وأذكرها بكل اسم لأنها سرت في كل اسم. فلم نسمع بسواها ولم نبغ غيرها . وكل دار أندبها أو أطلال نقدمها فعنها ولها ونها وإليها كانت نوايانا . وفوق كل هذا لم تكن تعريفاتنا إلا إيماء للواردات الإلهية والتنزلات الروحانية، فلا يسبق ظنك إلى ما حذرناك منه ولا تسلم أمرك لشيطان فيبعدك عن الطريق اليمم. فها قد وقفت على اصطلاحنا فإياك وسوء الظن . فعن نظام تكلمنا وما وراءها طلبنا وهل في غير حرم الله تكون اللقيا والطلب .

لقد قلت لك إنها بسملتي لتلك المناظر العلا وزجاجتي لتلك الخمرة الرائقة الرقراقة التي عصرت قبل الزمان .

لقد تجلت علي صورتها في سورة طسم الشعراء فجادت الروح الأبية العلية تترجم عن تلك الأشواق والأذواق بلسان فصيح يعرب عن مكنون تلك العين التي شربنا منها شرابا معتقا فاح شذاه فاستنشقه قوم وعب منه آخرون .

ولم يكن الشعر من شأني ولا نطق به لساني قبل أن أرى مشهدا برزخيا حيث جاءني ملك بقطعة نور بيضاء كأنها نور الشمس فقلت : ما هذه ؟ فقيل لي : سورة الشعراء فابتلعتها فأحسست شعرة انبعثت من صدري إلى حلقي إلى فمي حيوانا له

رأس ولسان وعينان وشفتان . فامتدت من فمي إلى أن ضربت برأسها الأفقين أفق المشرق والمغرب ثم انقبضت ورجعت إلى صدري فعلمت أن كلامي يبلغ المشرق والمغرب ورجعت إلى حسي وأنا أتلفظ بالشعر من غير روية ولا فكرة وما زال الإمداد إلي هلم جرا . فكل ما أقوله إنما عن إلقاء إلهي ونفث قدسي روحي ووزن علوي وإحساني جناني . فالمشكور خالقه لا كاسيه والعبد الضعيف مقيده وكاتبه .

فتح بلاد ذات القاف

بدأت كتابة الفتوحات المكية مما رقمته من مسطور الكتاب المبين . وكنت أتركه أحيانا لكتابة غيره من الكتب كما وقع لكتاب حلية الأبدال الذي كتبته في الطائف بدرب أبي أمية لصاحبي بدر وتلميذي محمد بن خالد الصدفي التلمساني . وكنا قد زرنا هناك قبر حبر هذه الأمة عبد الله بن العباس ابن عم الرسول . وقد كتبته في ساعة لينتفعا به في طريق الآخرة لما سألاني ذلك . وقد جعلت مداره على أربعة أركان هي العمدة في الطريق والسلوك وهي الجوع والصمت والسهر والخلوة . وهذا لا يعني أن يمتنع العبد عن الكلام أو مصاحبة الأقران أو الصوم أبدا أو النوم مطلقا لكي يصل مراتب الأبدال . بل معنى ذلك أن يصير السالك عبدا محضا وذلك بصمت العقل ونسيان النفس وصوم القلب وسهر الروح لكي

تحيى العبد ويصبح من الكمل . وبعد رحيلنا بشهر من الطائف أي في رجب حتى رمضان عام 599 حل الطاعون بأهل الطائف فهربوا إلى مكة وتركوا أموالهم هناك . وكتبنا غير الحلية من الكتب ككتاب مشكاة الأنوار وروح القدس في الذود عن أصحابنا وشيوخنا في المغرب لما رأيت الإنكار من بعض متحذلقة المتصوفة في القاهرة حيث ينكرون وجود التربية وأصحابها في بلاد المغرب وينعتون أصحابها بأنهم مهرة في السفليات والكيمياء والحيل والأوفاق والنصاريف . وهذا حكم جاهل ، فكان كتابنا هذا ردا على هذا الإنكار . ولما رأى منا هؤلاء علو كعب في الرقائق أخبرناهم أننا آخر من يعلم هذا في بلاد المغرب .

وفي مكة لبست خرقة الشيخ عبد القادر الجيلاني من يد شيخنا في الحديث يونس بن تحيى الهاشمي قبالة الكعبة . وكانت ثالث مرة ألبس فيها الخرقة .

وقد كتبت كتاب تاج الرسائل وهي محاورات جرت لنا مع الكعبة المشرفة في إحدى الليالي . وقد سمع مني هذه الرسائل الثمان مجموعة من التلاميذ وفيهم صاحبي بدر الحبشي .

التقيت في مكة أيضا بأحد كبراء الدولة السلجوقية وهو مجد الدين إسحاق بن يوسف الرومي ، وتوطدت العلاقة بيننا ، وكان يحضر المجالس العلمية التي كنت أعقدها في المجلس الحرام فصار من جملة التلاميذ . وقد سمع أيضا كتاب تاج الرسائل وروح القدس . وكان فيمن رأيت في عام 589 حين أردت عبور بحر الزقاق . فرأيت وجها أعرفه . وكان يقيم في الشام بعدما هجر ملطية موطنه الأصلي فرارا

بنفسه وأهله من فتك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان . وكان قلج أرسلان ملك بني سلجوق وعاصمتهم قيسارية في آسيا الصغرى . وكان له من الملك قونية وأعمالها وأقصرا وسيواس وملطية وغيرها . وقد حكم قريبا من ثلاثين عاما . وكانت سياسته حسنة وهيبته عظيمة . ولما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه وحجر عليه ولده قطب الدين وسار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذي سلمها إليه أبوه ، فحاصرها زمانا . فوجد الوالد قلج أرسلان الفرصة للهرب من ولده قطب الدين . فوجد هذا الأخير الأمر سانحا فرجع إلى قونية وأقصرا فملكهما . أما الأب فكان ينتقل من ولد إلى آخر يطلب عونهم فكانوا يردونه حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا ، الذي فرح به وخدمه ولبى دعوته حيث جمع الجيوش ومضى إلى قونية فملكها . ثم مضيا إلى أقصرا إلا أن الوالد مرض ومات فعاد غياث الدين إلى قونية حيث دفن أباه هناك . أما قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس فقد غدر بأخيه نور الدين محمود في إحدى زياراته وقتله وأخذ بلاده . وبعد مدة مات قطب الدين فقام أخوه ركن الدين سليمان صاحب ذو قاط إلى سيواس فملكها ثم سار إلى قيصارية وأقصرا فملكهما ثم بعد ذلك سار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها فخرج غياث الدين إلى الشام وخرج معه صاحبي مجد الدين إسحاق .فبقي مدة في الشام يترقب العودة إلى بلاده مع صاحبه غياث الدين كيخسرو . فجاء في عام ستمائة للهجرة قصد الحج والتقيت به هناك وتمت الصداقة بيننا . أما ركن الدين

فقد سطا على ملك جميع إخوته بما في ذلك أنقرة التي كانت منيعة فحاصرها ثلاث سنين صيفا وشتاء حتى دخلها سنة إحدى وستمائة . وما لبث أن توفي ركن الدين في تلك الأيام بمرض القولنج بعد خمسة أيام من غدره بأخيه صاحب أنقرة . وكان ركن الدين داهية شديدا ويقرب إليه الفلاسفة فكانوا يأوون إليه . وقتها تأهب غياث الدين كيخسرو لاستعادة ملكه وأرسل في طلب صاحبه مجد الدين ليعود إلى منصبه ومسقط رأسه وسابق عزه بعد فترة المحنة والمنفى . وقد كانت الدعوة قطعة شعرية أرسلها كيخسرو لصاحبه مجد الدين فقرأها علي وفيها من عبارات الود والصداقة والمحبة ما يفصح عن علو كعبه في تلك الدولة .

وكان مجد الدين قد خرج مع أميره غياث الدين كيخسرو من قونية لما أخذها أخوه ركن الدين سليمان منه فهرب غياث الدين ومعه وزيره مجد الدين وقصدا الشام حيث الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فلم يسعفه إلى ما طلب وقصر عن نصرته . فتقلب في البلاد حتى وصل القسطنطينية فأكرمه ملك الروم وأحسن إليه وأقطعه أملاكا ثم تزوج من ابنة أحد كبار بطارقتهم . وكان لهذا البطريق قلعة محصنة من أعمال القسطنطينية . فلما ملك الفرنجة القسطنطينية خرج غياث الدين فارا إلى حميه البطريق المذكور فنزل عنده حتى مات أخوه ركن الدين فعاد ليسترد ملكه .

فلما زالت حجب الأغيار من ملك تلك البلاد عزم صاحبي على العودة إلى بلاده وألح علي بمرافقته فاستجبت لطلبه . ثم إن الحال قد ساء بين أمير مكة قتادة الحسني

وأمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني فاقتتلا بالقرب من المدينة في ذي الحليفة فانهزم قتادة أولا وحوصرت مكة . ثم بعد ذلك عاد قتادة قويا بفضل دهائه حتى اتسع ملكه من حدود اليمن إلى المدينة المنورة بعد ذلك بسنوات وقد بلغ التسعين من العمر .

كنت نافرا من أهل الخطط الأرضية قبل هذا الزمان حين كنت في بلاد المغرب ، ولكن لما أعلمني الله بوظيفتي ومهمتي في الخلق بدأت مرحلة ثانية من حياتي ، حياة الظهور والتبليغ بعد حياة البطون والتعليم . وإن شئت قلت كانت حياتي في بلاد المغرب حياة فقه والآن هي حياة فقر . ونهاية الفقيه في بداية الفقير . خرجت من حصر سجن دائرة الهاء إلى رحابة سعة تعريفة الراء حيث الرؤية الحقية . وإن شئت قلت كانت حياة خلوة وهي الآن حياة جلوة . وإن شئت قلت كانت إسراء وهي الآن معراج . وإن شئت قلت كانت حياة أسرار وهي الآن حياة أنوار . وإن شئت قلت كنت في دور القرار وأنا الآن في طور الفرار "ففروا إلى الله" . وهكذا إلى ما شاء الله لا ما شئت أنت وكيف تشاء ومنه كنت تشاء .

لما رآني مجد الدين متعلقا بنظام تعلقا عفيفا بحيث كنت أتذاكر معها في مسائل علمية وأدبية ورقائق إحسانية كثيرة ، علم بفراسة المومن أن الرجل لا يمكن أن يبقى من غير أهل ولو كان أهل الله أهله الذين لا يبرحون صحبته ويخدمونه . إلا أن الطينة تحن إلى الطينة والصخر الشديد يرتعش لملامسة حبات الرمل وذرات النسيم . فالمرأة رمل الرجل الذي هو صخرها الذي منه تكونت . لما رأى تلك

الصحبة الطاهرة العفيفة فاتحني في شأن أهلي فأخبرته بأني تركتهم في بلاد المغرب حرصا مني عليهم من وعثاء السفر وقلة الأمن وتحرشات الأعراب والفرنجة والمكاس . فأردت أولا أن أستوثق لنفسي وديني حتى أضع قدما راسخة في أحد بلدان المشرق ، ولن يكون إلا الشام إن شاء الله تعالى . عند هذا الحد قال لي مجد الدين : يا سيدي ، اعلم أنني في خدمتك أنا وأهل بيتي . وأنا أقترح عليك أن تتزوج من بنت أمير الحرمين يونس بن يوسف فلقد فاتحني في ابنته فاطمة ثم أرسل في طلب أهل بيتك ليلتحقوا بك . فما أحوج المرء منا لأن تجد صدرا يرتاح إليه ويفضي بصدغيه إلى أهاده ليتهد من طوارق الليل والنهار . وليس في الوجود أحن ولا أرحم من صدر أم أو زوجة . فانكح هذه وأرسل في طلب الأولى إذن ، وإنني أضع بعضا من رجالي رهن إشارتك كي يرحلوا إلى فاس ويعودوا بأهل بيتك في رفقة أمينة ساهرة على مصالحهن وخدمتهن . ثم لا تعر بالا ولا تهتم بأمر سكناهن فأنت تعلم أن لدي دارا بالشام فإني أضعها رهن إشارتك لتسكن فيها أنت وأهلك حتى تستقر أوضاعك . فلقد أرسل مولاي السلطان كيخسرو في طلبي حيث استرد ملكه في بلاد الروم . لقد انتهت فترة المنفى وسأعود إلى قونية وسأترك تلك الدار لك ولأهلك ، فأنت أهل لكل خير وعالم محقق مثلك في حاجة أن تخدم وأن يفدى بالغالي والرخيص .

فقلت له : جزاك الله خيرا يا مجد الدين . فنعم الصاحب أنت . فلقد نفست عني كربة من كرب الدنيا سينفس بها الحق عنك كربا من كرب الآخرة . لقد كنت مهموما جدا

لأمر أهلي الذين تركتهم في بلاد المغرب . وها قد اطلعت على مخبوء صدري فوفقت إلى الصواب . وإنني أقبل رأيك ومشورتك وعونك . وسأكتب كتابا ليحمله رجالك إلى أهل بيتي حتى يلحقوا بي . وليكن ذلك قريبا إن شاء الله . وسأطلب أيضا يد فاطمة من أبيها أمير الحرمين الذي كان قد أومأ إلي بالمصاهرة فتغافلت . فقد آن الأوان لذلك . وأنا أرغب في إنجاب الولد لأنه لم يأتني من أهلي في بلاد المغرب ولد . ولعل ذلك يكون في هذه الزيجة إن شاء الله ، فقم بنا إلى الأمير لخطب البنت .

بلاد قطب القاف

لم تلبث بضعة أشهر حتى حملت فاطمة ووضعت ولدا سميته محمدا . وكنت قبل ذلك قد خرجت برفقة مجد الدين من الحجاز صوب العراق حيث وصلنا إلى بغداد في عام **601** . بغداد مسكن القطب حيث قلت فيها :

أحب بلاد الله لي بعد طيبة ومكة والأقصى مدينة بغدان

وما لي لا أهوى السلام ولي بها إمام هدى ديني وعقدي وإيماني

وقد سكنها من بنيات فارس لطيفة إيماء مريضة أجفان

أتيت بغداد بعد تمام النشأة وكمال النسوية . فقد وصلت الأربعين من العمر . ثم إن الغادة الحسناء والناهدة الكعباء من نظمت قلبي لخزام خصرها قد فارقت

وأباها مكة لما اضطربت الأحوال هناك بسبب مناوشات أمراء الحجاز فيما بينهم وتحرشات البدو والأعراب وأصناف المكاس الذين يعترضون ركب الحجاج من كل ميقات، لا يراعون للبيت حرمة ولوافد ذمة .

لقد مضى على وفاة الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني أكثر بقليل من أربعين عاما . وكنت قد لبست خرقته بمكة . وها أنذا أقدم على قطب المشرق متحققا بهذا المقام وهذه الحضرة القطبية الإمامية، حضرة التعريف والتدبير التي بها مظهر عالم التدوين والتسطير والتمليك والتسخير . فاكتمل الدور شرقا وغربا وجمعت الحقائق بقبة أرين مركز الإعتدال وبرزخ الإستواء ومجمع البحرين. كانت نظام قد التحقت في بغداد بدار الفلك وهي موقوفة على النساء المتعبدات على شاطىء دجلة . فقد عزفت عن دار الغرور وأنابت إلى دار البرور فدار فلكها حول قطب الحضرات ببغداد . وكيف لا تعلق بدورة الفلك وهي من فارس واصبهان وهم قوم قيل فيهم " لو كان الإيمان بالثريا لناله قوم من فارس " فأعظم بها من شهادة وأحسن بها من منقبة . وهي والله كذلك . نظام صندوق العابدات وقلادة الذاكرات وغفارة السائحات وخمار الواصلات وسوار الأبكار القانتات وخاتم حضرات الكلمات الناطقات الصامتات، حقة العارفات ومسك يضوع من روائح قرب الكاملات، قمر الدين في فواكه اصبهان ومشمش ثمار العين في موائد الشام وبلاد العربان. قلت :

وقالوا الشموس بدار الفلك   وهل منزل الشمس إلا الفلك

بغداد هذه المدينة الدائرية مقر الخلافة التي عاد لها بهاؤها بعد كساد سوقها منذ زمن بعيد إلا أن خلفاء هذا الزمان قد أعادوا لها مجدها وشرفها منذ الخليفة المقتفي لأمر الله فرفعوا الظلم والمكوس عن البلاد والعباد ، وأقروا أهل الذمم على حقوقهم. فبها جمع الملل والنحل والكل ينعم بالأمن . وبلغ نفوذ اليهود مبلغا عظيما لما جمع الربي صموئيل بن علي الملقب بابن الدستور رئيس المثيبة إلى نفوذه منصب رأس الجالوت بعد موت الربي سليمان بن حسداي . ولقد أقره على ذلك الخليفة الناصر .

زرت مع أصحابي قبور عدد من الأئمة مثل الإمام أبي حنيفة وابن حنبل والجنيد وعبد القادر الجيلاني وغيرهم رضي الله عنهم. وكان عالم بغداد في هذا الزمان شريعة وحقيقة هو الشهاب السهروردي الفقيه الشافعي الصوفي ، وهو مستشار الناصر حيث تمكن مع عبد الجبار البغدادي من أن تحولا جماعة الفتاك الذين كانوا يرهبون الناس ويستولون على أموالهم إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة . وقد تبنى الخليفة الناصر هذا النظام وجعل لهذه الجماعة سراويل مخصوصة يتنافس في اقتنائها والحصول على شرف لبسها الأمراء والكبراء . وتحولت تلك الجماعة من الأغمار إلى جماعة من الفرسان . ووجهت فتوتهم وبسالتهم إلى الجهاد مع الأيوبيين في الشام . ويرجع الفضل إليها في انتصارات صلاح الدين الأيوبي حيث أنها كانت منظمة خير تنظيم. وقد رعى الناصر الجماعة رعاية كبيرة ولبس هو أيضا سروال الفتوة وأرسل إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين. وقد لبس تلك

السراويل الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناءه وكذا لبسها شهاب الدين الغوري صاحب غزنة والهند. وكان الشهاب السهروردي ضمانة تلك الحركة بما له من علم وهيبة واحترام في نفوس الناس. فكان مسموع الكلمة لدى الخليفة والأمراء والعامة.

وقد خرجت يوما مع أصحابي إلى ظاهر بغداد للترويح والنزهة والمذاكرة العلمية فرأينا موكب الخليفة قادما نحونا فأمرت أصحابي أن لا يبدأوه بالسلام وتوعدتهم في ذلك. فلما وصل بقربنا انتظر كي نسلم عليه فلم نفعل فبدأنا هو بالسلام فرددنا عليه بصوت واحد. ثم شكرنا على فعلنا ذلك لأن الراكب هو الذي يسلم على الراجل لا العكس كما ثبت في السنة. ثم انصرف مع أصحابه الفتيان وكانوا يخرجون للتباري وأعمال الفتوة. فكان معهم أقفاص كثيرة فيها أسراب من الحمام. وكانوا يحملون أكياسا من البندق بأنواعه. وهي عبارة عن كرات مصنوعة من الطين أو الحجارة أو الرصاص. وقد ظهر اللعب بهذه الكرات في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة المنورة. وكان الناس يتبارون في ذلك داخل مجموعات. نزل ركب الخليفة بشاطئ دجلة خارج المدينة، وجلسنا نتفرج على هذا المنظر البديع. فكانت نزهة بديعة نعمنا فيها برؤية الخليفة مع جماعة الفتوة يتبارون في الرماية. شكلت الفرق من مجموعتين بأفراسها، وقعد أصحاب الطيور والحمام في المطار ثم فتحوا الأقفاص والسلال رويدا رويدا، وبدأت حملات التعقب بأنابيب من معدن ومزاريق. وقد وضعت

حبات أو كرات البندق في تلك الأنابيب . وكل لاعب ينفخ في أنبوبه أو بندقيته فتخرج حبات البندق وتحدث فرقعة عجيبة فتصيب ذلك الحمام . وكان الفرسان كلهم من الفتيان بسراويلهم المميزة . وقبل شروع اللعبة شربوا من كأس الفتوة بعد أن شرب الخليفة أولا لأنه رئيس هذه الطائفة . ولم يكن يحق لأحد أن يلعب هذه اللعبة إلا إذا كان من الفتيان . واستمر اللعب جزءا من النهار، ثم عد كل فريق طرائده ، وأعلن الفائز الذي نال شرف الشرب من كأس الفتوة أولا قبل الجميع . ثم أجازه الخليفة بأعطية ، وانصرفوا من حيث أتوا . وكان هذا دأبهم غالبا حيث شكلت هذه النزهة تدريبا عسكريا لهم حتى إذا جد الجد في الجهاد كانوا أقدر على المطاردة والمبارزة والمسابقة . وقد كانت هذه الفرقة مهابة من الإفرنج الذين سعوا في محاكاة نظامها وترتيباتها وخططها . فعملوا هم أيضا لباسا خاصا بفرقهم . فيهم صاحب العباءة البيضاء التي تخترقها صليب أحمر معقوف ؛ وفيهم أصحاب العباءة السوداء والصليب الأبيض . وفيهم أصحاب العباءة البيضاء ذات الصليب الأسود . وقد أبلوا بلاء شديدا في محاربة المسلمين وبنوا قلاعا وحصونا منيعة . وكانوا لا يلبسون إلا الحديد . وقد حدثني أحدهم بأنهم كانوا من الأمراء والنبلاء في بلدانهم ولكنهم كانوا مستبدين ويقطعون الطرقات وينهبون الناس . فكان الإنسان لا يسلم من تحرشاتهم وظلمهم واضطهادهم . فحول الأساقفة والبطارقة عدوانيتهم لمحاربة المسلمين في بيت المقدس ، واستطاعوا الإستيلاء عليه حتى أخرجهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

وقد شاهدنا من أصحاب الفتوة نجدة وشهامة وإخلاصا وإيثارا نادرا . وكانت بينهم روابط وثيقة في عصر كثرت فيه الملل والنحل والطوائف ، وكثر التكتل والفزع إلى عصبية معينة قصد الإحتماء .

ورد ساهر مع القاف

سعدت مع أصحابي في هذا اليوم الجميل بهذا المنظر الجميل . وكنت أرغب في مقابلة الشيخ شهاب الدين السهروردي فسعى بعض أصحابي بإخباره بذلك دون علمي فسارع الشيخ إلى مقابلتي ، خصوصا لما كان قد أعلمه به صاحبي مجد الدين صاحب الأمير كيخسرو . لما التقينا أطرق كل واحد منا إلى الأرض من غير تحديق، ولم ننبس بكلمة واحدة وبقينا هكذا مدة من الزمن ثم افترقنا من غير كلام . لما رأى أصحابنا ذلك سأل كل واحد شيخه . أما جوابي عن الشيخ السهروردي فقد قلت لهم : إنه مملوء سنة من رأسه لأخمص قدميه . وأما هو رضي الله عنه فقد قال في حقي : إنني بحر الحقائق .

ثم التقيت بعد ذلك به وتذاكرنا في أمور كثيرة ، وأخبرني أنه تتلمذ للشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني وصحبه مدة . وأنه لما حضرته الوفاة أعلمه بأنه سيلتحق بالرفيق الأعلى وهو قرير العين لأن الله عز وجل أطلعه أن رجلا سيولد في العام الذي سيقبض فيه ببلاد المغرب . وأن اسمه أبو عبد الله محمد . وأخبرني أنه منذ

ذلك الوقت وهو ينتظر أن يفد ذلك الرجل من بلاد المغرب . فلما واجهته وأطرقنا تعرفني وانكشف له حالي وفرح بلقائي . وجرنا الحديث عن كتبنا فسألته عن كتابه الموسوم بعوارف المعارف الذي هو منحة من منح الله الكريم، لماذا وضعه على ثلاثة وستين بابا . فأجابني قائلا : يا سيدي سؤالك فيه جوابك ، وإنما حداك تواضعك إلى الإستفسار وأنت تعلم الجواب . لقد وضعت ذلك الكتاب على عدد عمر سيد الوجود طلبا للبركة . ألا تعلم أن حبة قمح أو شعير واحدة تنتج ثلاثا وستين سنبلة ببركة هذا النبي العربي الأمي الأمين . ثم إن ذلك هو التوحيد الخالص الذي ورد في القرآن . فسريان التوحيد في عمر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو مجموع أسماء الحق تعالى الحسنى . وهو عين تلك الأسماء .

ثم سألته مرة أخرى : هل بين الصديقية والنبوة مرتبة ؟

فقال : إيه ! والله ! رغم أن صاحبنا الشيخ الإمام حجة الإسلام الغزالي أنكر وجود مرتبة أعلى من الصديقية ودون النبوة . أما نحن فنقول بذلك ، وهي مرتبة المقربين أصحاب شراب التسنيم . وقد نبهت على ذلك في آخر الباب الأول من كتابي عوارف المعارف حين قلت : "واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال المقرب ... "

ثم تحادثنا في أمور الطريق والرفيق والشريعة والحقيقة والفتوة . فسألته عن هذه الأخيرة وعن مبناها ومعناها ، فقال : الفتوة من الإيثار وذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا ، وقوة اليقين شرعا . يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود . وقد قال أبو

يزيد : ما غلبني أحد ما غلبني شاب من بلخ ، قدم علينا حاجا فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا . فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ . فقلت : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا . فالفتوة هي ما نزل به التعريف الإلهي في حق الأنصار : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " . فهم يؤثرون إخوانهم بحقوقهم على حظوظ أنفسهم . وقد يؤثر الكامل بحظ آخرته على إخوانه لأن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر . ومن ذلك أن بعضهم رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه ، فأنكر أخوه منه ذلك ، فقال : يا أخي ، سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة ، تسعون لأكثرهما بشرا ، وعشرة لأقلهما بشرا " فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر . فقلت للشيخ : صدقت ، فذلك هو التعريف . وحكم الفتوة موجود في الحق وإطلاقا لم يرد لا في كتاب ولا سنة مع أنها نعت إلهي من طريق المعنى فقط لا من طريق اللفظ لأنه ليس له من لفظها اسم إلهي يسمى به . والله هو الغني ، وقد أوجد العالم للعالم إيثارا له على انفراده بالوجود . وهذا هو عين الفتوة . فقد خلق الخلق وقال " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " . فالفتوة هنا أنه خلقهم لينعموا بالوجود والمعرفة ، وهذا كله إيثار لهم . ولكن لما علم سبحانه أن الإمتنان قادح في النعمة عند من أنعم عليه ستر ذلك فأظهر أنه خلقهم من أجله لا من أجلهم . والعبد أولى بهذا الوصف لقوله " لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " .

عند هذا الحد قال لي الشيخ : هذا كلام حديث عهد بربه ، وأنت لم تذكر في كلامك إلا كلامه عن الفتوة . أما نحن فقد خللنا كلامنا بكلامه وحكايات عن الأولياء . فشتان بين من لا يرى لنفسه وجودا مع الوجود الحق ، ولا يرى وصفا ولا نعتا مع أوصافه ونعوته ؛ وبين من يرى ذلك لنفسه مع ربه . فتعريفك أولى وتحديدك أعلى وإخبارك أسمى وأفنى . فما تفنيت إلا بالحق ، وما آثرت إلا به . ونحن خلطنا قولنا بقوله . بارك الله فيك وذلك من ثباتك ورسوخك . وقد ثبت لنا ما قاله لنا عنك شيخنا محيي الدين الجيلاني ، فأنت ذلك الفتى الوارث الأعظم الذي بشرنا بطلعته عند أفول نجمه من المشرق . فقد صار الحكم للمغرب أهل الأسرار . أما نحن أهل الأنوار فلا نعرف ذوقا للكتمان لأن النور حاكم علينا وهو موطن الكشف . شكرت الشيخ على حسن ظنه بي وودعته .

نهر دجلة العظيم يخترق مدينة بغداد ، مدينة السلام ، مسكن القطب . لا تراني إلا متنقلا في هذه الأرض من قاف إلى قاف ، فتعددت القافات والقائف واحد يتفيأ في ظلل تعريفتها من خزانة جبل ق ببلاد المغرب إلى القاهرة في بلاد مصر ، وصولا إلى قاف بيت المقدس ومرورا إلى قاف قطب بغداد وتعرجا إلى قاف قونية في بلاد الروم وانتهاء بقاف دمشق إن شاء الله .

لم يكن سفري في المكان فحسب بل كان في الزمان ، وقبل هذا وبعده ، إنه سفر في الأسماء ، بدءا من اسمه القديم وانتهاء باسمه القائل . فأذواق الرسل المتفرقة في الإسم الأول جمعت في الإسم الأخير . فما سافرنا إلا من وإلى قلبه الذي تشعبت

منه كل العقائد . جعلنا الله ممن سمع فوعى . فأساس كل خير حسن الإستماع " ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم " . فإن كنت أهلا للسماع فافتح آذانك للإستماع .

لبغداد جسران منصبان على نهرها تجمعان ضفتيها الشرقية والغربية . الضفة الشرقية أكثر عمرانا من الغربية ، ونها عدة مساجد تقام فيها الجمعة . كما أن ببغداد حمامات كثيرة مطلية بالقار الذي ينبع من عين بين الكوفة والبصرة .

وفي بغداد زرت إحدى المدارس اليهودية رغبة في الوقوف على ما حكاه لي صاحبي إسحاق اليهودي وقت كنت شابا في إشبيلية، عن رحلة الربي بنيامين بن يونة الطيلي. دخلت المدرسة الكبرى المعروفة عندهم بمثيبة غاؤون يعقوب. وزعيم المدرسة يسمى رأس المثيبة، ووظيفته الزعامة الدينية الروحية لليهود في ربوع بلاد الخلافة الإسلامية. أما رأس الجالوت فهو الزعيم السياسي ويمثل صاحبها اليهود عند خليفة المسلمين. ويعرف أساتذة المدارس اليهودية العشر الموجودة ببغداد بالمعتكفين أو المنقطعين. ويقضون وقتهم في الدراسة والنظر في مصالح أبناء طائفتهم. ويجتمعون في مجلس كبيرهم رأس مثيبة غاؤون يعقوب كل يوم إثنين للنظر في شؤون اليهود. وقد توحد السلطان الروحي والسياسي حين ضم ابن الدستور رأس المثيبة السابق إلى منصبه رآسة الجالوت. وقد خلفه الآن العازار بن هبة الله الطيب الفيلسوف في خلافة الناصر . وحين دخلت المثيبة استقبلني أحد الأحبار ورحب بي ثم سألني عن اسمي وغرضي من الزيارة ، فأخبرته وأعلمته

أنني أتيت هنا فضولا في الوقوف على ما أخبرني به أحد أصحابي اليهود الأندلسيين.
وذكرت له قصتي مع إسحاق ورحلة الربي صموئيل بن يونة .
تغير وجه الرجل وقال لي : إذن فأنت تعرف إسحاق شقيقي الأصغر. فقلت له : نعم إنني أعرف إسحاق ولكني لا أعلم أنك أخوه، وإن كان ما تقول صحيحا فهذا من أعجب الصدف. فما هي قصتك؟ وماذا عن أخيك، أين هو الآن؟
تنهد الحبر وقال : اعلم يا سيدي أن شقيقي ذاك قد اعتنق دينكم، وأن والدي وطائفتنا قد تبرأوا بسبب ردته. ولقد أخبرني إسحاق عنك حين كنا صغارا، وأنك كنت تعلم ببقا. يهود الأندلس على ملتهم رغم ظهورهم أمام الناس بخلاف ذلك، تحاشيا لبطش الموحدين الذين أرغمونا على دخول دينكم أو القتل. ولما اشتد النكير علينا خرج الوالد في رحلة طويلة وخرجنا معه. ووالدي هو إبراهيم بن عزرا أنبغ أهل زمانه، وهو سيبويه العبرية عند اليهود. كما أن له مشاركة كبيرة في مختلف العلوم من تفسير وطب وفلك وغير ذلك. وقد كان والدي قد تزوج من أمي ابنة أكبر شعراء اليهود جدي الحبر يهوذا بن صموئيل اللاوي. فأنجبت الوالدة خمسة أولاد، أصغرهم صاحبك إسحاق الذي أسلم على يد أحد صوفيتكم العارف الشاعر أبو حفص عمر بن الفارض. وقد تأثر إسحاق بهذا الشيخ لأنه كان مولعا بالشعر الصوفي. واعلم يا سيدي أن أخي كان يبحث عنك منذ مدة وقد قرأ بعضا من مؤلفاتك. ومنذ ذلك الحين وهو يتحرق للقائك. وكان قد تعقبك إلى مصر واستوطنها مدة من الزمان. وهناك تعرف بابن الفارض.

فقاطعته : وأين هو الآن؟

فأجابني : قد علمت أنه استقر في الشام.

شكرت الحبر على ترحيبه وعلى ما أخبرني به ثم ودعته وانصرفت, وأنا أتعجب من حسن الموافقة.

عقدت العزم على الرحيل من بغداد مع مجد الدين إسحاق والصحبة المعهودة إلى بلاده كما اتفقنا منذ بداية رحلتنا من مكة . خرجنا من بغداد بعدما مكثنا فيها اثنا عشر يوما وسرنا نطوي المراحل وأنا راكب على فرسي قربى . كانت المرحلة الأخيرة بين القيارة والموصل مجهدة ونضب لدينا فيها الماء حيث سلكنا طريقا صحراويا تجنبا للمناوشات التي كانت هناك . فكنا نستعمل حصاة القسم حيث نلقيها في إناء مخصوص ثم نصب فيه الماء قدر ما يغمر الحصاة . وهكذا كنا نقتسم الماء حتى وصلنا للموصل . وفيها كتبت كتاب التنزلات الموصلية في أسرار الطهارات والصلوات والأيام الأصلية . وقد عقدنا عدة مجالس علمية في هذه المدينة حضرها تسعة من التلاميذ بمن فيهم بدر الحبشي ومجد الدين إسحاق فسمعوا مني كتاب روح القدس . ومن الموصل قصدنا قونية أو قنيه . نزلنا فيها بدار مجد الدين حيث تمت ضيافتنا وخلدت للراحة من جراء السفر وتغير الهواء الذي لم آلف مثله في بلدي المغرب .

وصلنا إلى هذه المدينة حيث تلقانا قافها مذكرا لنا أنها عين فتوحاتنا المكية . إن قونيه بتضعيف يائها عين قافنا ، وهي أيضا من مدائن التوحيد حيث تصير قنيه أي كنية عن ذلك التوحيد . اختلفت أحوالها وهي واحدة ، فهي قونيه وقنية وقنيه . ولكل واحدة تعريف خاص . واختلاف تعريفاتها هو بحسب أصحاب التعاريف من أهل الأدب الواقفين من الملامية ، أو العارفين من أهل الأنس ، أو الأدباء من أهل المعرفة الواقفين ، أو عند الملامية من أهل الأنس والوصال . فكل أصحاب مرتبة يرونها على حسب مرتبتهم . إن قنيه هي موطن حواء وآدم . فحواء التجأت إلى ركن شديد ، ولهذا كان التجلي فيها أعظم لأنه ذاتي . وآدم كان التجلي فيه تفصيليا غير مجمل . وباتحادهما كانت كلمة الجلالة . فحظ الإيجاب عند حواء أعلى منه عند آدم . وحظ النفي عند آدم أبلغ منه عند حواء . ولولا أصلهما الطيني لما ذاقا رائحة التوحيد بين نفي وإثبات . فالطين جرهما إلى أكل التين فبدت لهما سوآتهما وطفقا تخصفان عليهما من ورق الجنة . على صورة الطين كانت قنيه . وعلى صورة القاف كانت قونيه . وعلى صورة الفتوحات المكية كانت قنية . فمن القاف سرت النية في القلب (ق-نية) . فإذا أردت تصحيح نية القلب فابدأ من القاف .

قدم مجد الدين على أميره الذي فرح به فرحا كبيرا ، وقدمني إليه بما يليق من عبارات الود والمحبة فأثنى علي ثناء بالغا مما جعل السلطان تخصني برعاية بالغة

وعطف كبير . وأجرى علي جرايات كنت أصرفها في حوائج أصحابي من الطلبة ، وأتصدق بالباقي .

لم يكن ينقصني في هذه البلاد سوى الصاحبة بعدما تركتها في بلاد المغرب برفقة أهلها ، ولم تكن قد أنجبت لي ، ولم يكن من الممكن اصطحابها في السفر لأنه قطعة من العذاب ، ومبني على المشقة وشظف العيش وركوب الأخطار والأهوال . والمياه مختلفة الطعم ، والأهوية مختلفة التصريف ، وأهل كل منهلة تخالف طبع أهل المنهلة الأخرى . والنساء كالقوارير ونحن مأمورون بالرفق بهن وعدم تحميلهن ما ليس في وسعهن . فآثرت تركها هناك بعدما تركت ما يكفيها من النفقة حتى يأذن الله في أن تلحق بي قريبا .

أما نظام شمس تبريز واصفهان ، وقمر مكة وبغداد ، فقد زهدت في الدنيا ولم يكن لها رغبة في الزواج فاعتكفت بدار الفلك ببغداد حتى أيسنا من اتخاذها زوجة .

كنت أسلي نفسي وأعزيها مع أصحابي ورفقائي الذين كانوا يخدمونني ويعينونني . كما أن الكتابة لم تدع لي وقتا لأفكر في الصاحبة . ففي قونية كتبت رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار . وهي في كيفية السلوك إلى رب العزة والوصول إلى حضرته والرجوع من عنده إلى خلقه من غير مفارقة . كما كتبت الأمر المحكم وكتاب العظمة . وهذا الأخير هو كتاب الحضرات والإشارات . والحقيقة أنه كتاب منزل العظمة . ونقصد بالمنزل السورة لأنها تنزلت من رب العزة

. وليس للأنبياء في هذا المنزل نصيب لأنه مختص بسيدنا محمد عليه السلام لأنه مفتاح النبيين حيث نبي، وآدم بين الماء والطين . فقد افتتح كتاب الوجود بها . فهي مفتاح ذلك الكتاب ، وهي أم له لأن الأم محل الإيجاد والموجود فيها هو ذلك الكتاب . ولهذا المنزل أي السورة أربع عشرة مملكة . فعلى المملكة الأولى وهي الكبرى والجامعة لغيرها من الإيالات جلس القطب على عرشه ، وللثانية والثالثة الإمامان . وعلى الرابعة إلى السابعة توطد حكم الأوتاد الأربعة . والممالك السبع الباقية للأبدال . وقد سرى نواب هؤلاء الملوك في أربعة عشر إقليما نورانيا في ذلك الكتاب الجامع . كان كتاب منزل العظمة من بركات تلك المدينة قونية أو قنية .

وفيها التقيت بالشيخ أوحد الدين الكرماني وأصله من كرمان . وكان شيخه السجاسي من أتباع الشيخ أحمد الغزالي شقيق أبي حامد الغزالي . وكان الكرماني مولعا بالسماع وبما يسمونه بالفارسية (شاهد بازي) ، أي مشاهدة الفتيان كمجلى للصورة الحقية في الإرتقاء . وكنت أخالفه في هذا الأمر وفي قضية السماع ، ولا شك أن ذلك كان من عادة قومه ويصلح ذلك الأمر لإقليمهم .

لم أستغرق كثيرا في قونية حيث قفلت راجعا إلى الشام لما وافتني رسالة تخبرني بقدوم الأهل فذهبت لاستقبال زوجتي حبيبتي مريم، حبي الأول . فرحت فرحا بالغا بمريم حتى لقد عرفت حالة غريبة في المحبة وأنا بالشام . فكانت قوة الخيال تجسد لي حبي من خارج لعيني كما كان يتجسد جبريل لرسول الله صلى الله عليه

وسلم، فلا أقدر أنظر إليه وأصغي إليه وأفهم عنه . بل لم أكن أطعم وقتها أي شيء . فكلما قدمت لي المائدة أرى حبي واقفا بطرفها تخاطبني قائلا : أتقدر أن تأكل وأنت تشاهدني، فأمتنع عن الأكل . ودام ذلك الحال أياما كانت صوما متواصلا . ولم أكن أشعر بالجوع بتاتا ، كما أن وزني زاد حتى تعجب مني أهل بيتي وأصحابي . كما كانت تنبعث من فمي رائحة طيبة . وفي حقيقة الأمر لم يكن محبوبي سوى حبيبي أكني عنه وإليه أشير ، وأومىء إليه وله أسير . تعددت الصور والكل واحد ، فقد عشقته في مريم ونظام وفي كعبة الرحمن . أحببته في مرسية وفاس وتونس والقاهرة . وأحببته في بيت المقدس وطيبة ومكة وقونية ودمشق . أسماء لمسمى واحد ، كالزهر بألوانه يسقى بماء واحد . فمن اللون كان البون . ألا تراه اشتمل على أداة بلا صوت (لن) .

وعلى الجملة ، فحبي ذاك لم يكن طبيعيا فحسب وإنما كان حبا روحانيا أيضا لأن الإنسان خلق من القبضتين ، أو لنقل باليدين ، فهو على الصورة فصح له الجمع بين الأضداد .

بعد لقاء الأهل والإطمئنان عليهم عاودت سياحاتي وكتاباتي ، فيممت صوب فلسطين والخليل وبيت المقدس حيث كتبت كتاب اليقين بمسجد اليقين هناك . ولم يكن لدي الوقت والورق فكتبته في عجالة يوم الأربعاء **14** شوال في الصباح قبل صلاة الظهر من عام **601** . وكان برفقتي الشيخ العارف الصوفي أحمد بن مطرف

المري وعفيف الدين عبد الملك بن حفاظ القيسي . وقد أسمعنهما ذلك الجزء ثم انصرفنا لزيارة لوط عليه السلام .

ثم تنقلت بعد ذلك بين القاهرة حيث كان صاحبي ابن سودكين ، ومكة والحجاز والشام وبغداد وأعداد أصحابي تكثر ، إلا أني لم أكن أقرأ لهم من مكتوباتي إلا ما كانت تحتمله أفئدتهم وعقولهم . وأما الكتب العويصة فلم أكن أخص بها سوى تلميذ أو تلميذين كبدر الحبشي وابن سودكين ، غيرة على الحقائق وصونا للضعفاء من إنكار الرقائق ، والبوء بإثم ذلك من أشنع البوائق . فما كل طعام يصلح لكل آكل ، وإنما الطعام بحسب الزمان والمكان والأنام .

كنت دائب الحركة ، دائم السياحة ، فالأوضاع في المشرق لم تكن هادئة والأطماع كثيرة والمخاطر متنوعة . فلقد ظهر المغول واكتسحوا رقعة كبيرة من العالم ونهبوا وأحرقوا وقتلوا ولم يتركوا لا الأخضر ولا اليابس . فقد بنوا دولتهم على البطش والتقتيل والهدم والتخريب . إنهم أفظع ما ظهر على وجه الأرض منذ خلقها الله. إن خروج التتر إلى بلاد الإسلام كان أكبر كارثة عرفها التاريخ . إنها مصيبة عظمى عجز الزمان عن مثلها ، عمت البلاد والعباد . فليس في الفظاعة أكبر مما فعله هؤلاء الوحوش البرابرة . ولعل ياجوج وماجوج الذين سيظهرون في آخر الزمان على شاكلة هؤلاء ، بل لربما هم أسلافهم يبشرون الناس بما سيكون عليه الأمر غدا . وحتى خروج الدجال كما نطقت بذلك الأخبار المتواترة لا يصير إلى مثل هذه الفظاعة والوحشية . بل إنه يبقي على من اتبعه ولا يفني إلا من خالفه .

وهؤلاء التتر لم يبقوا على أحد من المشايعين أو المخالفين . اسمهم هو الغاية في العد ، فهم كالألف الظلماني ، لا يبقي ولا يذر . لقد استطار شرهم في البلاد وعم ضررهم العباد ، وأوقدوا نارا للحرب استدبرها رياح القتل والذبح والغصب والوأد . خرجوا من أطراف الصين ثم قصدوا بلاد تركستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر وغيرها ، فلم يتركوا شجرا ولا مدرا ولا بشرا .

وأما ديانتهم فهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا تحريم عندهم ، فإنهم يأكلون كل شيء حتى الكلاب والخنازير وسائر الدواب . وأما النكاح فلا يعرفونه وإنما النساء مشاع بينهم . وهكذا فلا أنساب لهم ، والولد يلحق بأمه .

كان الأهل مستقرون بالشام ، وكانت مريم بنت محمد زوجتي الأولى قد انصرفت إلى العبادة كلية وصارت من الصالحات الزاهدات . ولم تشعر بالغيرة لما تزوجت فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرم ، بل أحبتها كأختها خصوصا وأنها بعيدة عن أهلها . فوجدت فيها الأم والأخت والصاحبة ، وتوطدت العلاقة بينهما فأصبحتا متواطئتين على الخير والبر والإحسان . ولم يكن منهما إلا أن ترضياني . وبدأ ولدي محمد الكبير يكبر وعهدت بتربيته إلى عدد من الشيوخ الأجلاء . كما توطدت العلاقة بيني وبين الأمراء والملوك والعلماء والقضاة وعامة الناس . وكانوا يتصدقون علي أو يهدونني الهدايا فكنت أصرف تلك الأموال على أهل بيتي وأتصدق بما تبقى على الفقراء والمساكين . ولم يكن لي من شغل إلا العلم والدراسة والتأليف . فظهرت كتب كثيرة ، وتقدمت في كتابة الفتوحات المكية .

وقد شارفت على إنهاء الفصل الأول الخاص بالمعارف . والإسم الذي يستمد منه هو العليم. كما أن له علاقة بينبوع الكمالات وأول الأسماء الحي ، لأنني بينت في بدايته الروح الذي أخذت عنه هذا الكتاب .

مهدية القاف

كانت بلاد المشرق تعج بالملل والنحل والفرق والمعتقدات والأجناس . ولقد جرت لي لقاءات ومناظرات مع بعض أهل هذه الملل والنحل علمت من خلالها آراءهم وأهواءهم ومعتقداتهم وبينت لأهلها غلطهم وزيغهم .

لم يكن المغرب يعرف مثل هذا الغليان وهذه الفرقة وهذا التناطح بين أهل الملل والنحل والأجناس . لقد كفانا الله شر ذلك ، وإن ظهرت هنا وهناك بعض الفرق إلا أنها لم تنبت في بلادنا ولم تترعرع . أما هنا في المشرق أرض الأنوار فقد بزغت ونمت وعمت لأنه أرض النور لا تعرف طعما للأسرار والكتمان . ومن بين تلك الفرق فرقة الإسماعيلية أو الباطنية . وكان أهلها يتسترون على مذهبهم ، ولكن الله رزقني فراسة قوية في معرفتهم والكشف عنهم رغم أنهم كانوا في كثير من الأحيان لا يعرفون ويعيشون مع غيرهم ويُظهرون أنهم على شاكلة سواد الناس .

وكان العراق أرض هذه الملل والنحل كلها ، فقد اجتمعت في هذا البلد أصناف هؤلاء من عرب وعجم وروم وهنود وفرس وغيرهم . وكانت الإسماعيلية أخطر هذه الفرق لأنها أرادت تأسيس دولة باطنية ونجحت في بناء حصون وقلاع

منيعة في بلاد الإسلام يصعب الوصول إليها . ومنها كانت تقوم بالتخريب والقتل والإغتيال ثم تعود إلى جحورها كالثعالب وقد اجترحت من الأعمال أخزاها .

لقد ازدهرت عمارة الحصون والقلاع بشكل كبير في هذه الأزمنة . وهي دلالة على أن البناء والعمارة والتشييد قد يظهر في عصور الهلع والخوف كما هو الشأن في حصون الباطنية أو حصون الفرنجة التي أقاموها في بلاد الشام كحصن الأكراد مثلا .

حينما كاشفت بعض هؤلاء رغم تسترهم رغبوا إلي في أن أكتم عنهم وأن يتوبوا مما هم فيه . وكان المشايع منهم يظهر لي في صورة خنزير ، وكانت هذه علامة عندي من الله في الكشف عنهم . فكنت أنبههم إلى أن الله هو الذي أخبرني بأمرهم ، وكنت أنصحهم بالعزوف عن ذلك المذهب الفاسد والرأي السقيم فيعودون في أغلبهم إلى الحق لما رأوا من قوة النور التي تخترق ظلمات الأجساد والكثائف لتصل إلى ما انعقد في القلوب والضمائر .

والإسماعيلية كسائر الشيعة يقولون بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر ، ويقولون بالولاء والبراء قولا وفعلا وعقدا مع استثناء حال التقية حيث يصير الحكم لها . وقد أثبت الإسماعيليون الإمامة لإسماعيل بن جعفر مخالفين الموسوية والإثني عشرية . وعندهم أن إسماعيل هو الإمام السابع التام ، وقد تم دور السبعة به ثم ابتدىء منه بالأئمة المستورين . وقد تأولوا الآية الكريمة التي في الأنعام " وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع " ، وأسسوا مذهب الإستقرار والإستيداع وجعلوا بعض الأئمة مستقرين

والآخرين مستودعين . وقد أخبرني بهذا بعض من كوشفت بشأنه . فأفدته على أن المقصود هو الإستقرار في الأرحام بدليل قوله تعالى "ونقر في الأرحام ما نشاء" ، والإستيداع في الأصلاب . واستقر لا يتعدى أما استودع فيتعدى إلى مفعولين فتقول : استودع خالد عليا دينارين . والإستقرار مشعر بالثبات لأنه من القر وهو البرد . ومعلوم أن الإنسان الذي به برد قليل الحركة ثابت في مكانه . وهو حال النطفة في الرحم حيث تستقر ما شاء الله من الأشهر . أما الحر فيقتضي الحركة لا السكون . وقد أخذ الإقرار من هذا لأنه إثبات الشيء إما بالقلب أو باللسان أو بهما معا . ويقابله الإنكار لا الجحود لأن هذا يقال فيما ينكر باللسان دون القلب ، ودليله "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم" . أما المستودع فمأخوذ من الدعة وهي الخفض ، والعيش الهني السهل مرتبط به . ولهذا أخذ التوديع من الدعة كأنك تدعو للمسافر بأن يبلغه الله الدعة . وعموما فكل حال فيه استقرار وانتقال يصلح لهذا . ولكن الأولى أن عجز الآية محمول على صدرها ، فصار الأمر متعلقا بآدم وحواء .

والإمام المستودع عندهم هو ابن الإمام وأكبر أبنائه والعارف بأسرار الإمامة كلها وأعظم أهل زمانه إلا أنه لا حق له في تفويض الإمامة إلى ذريته . والإمام المستقر هو الذي يتمتع بامتيازات الإمامة كلها . وقد ذكروا أن رسائل إخوان الصفا ما هي إلا نتيجة لهذا المذهب الذي يقسم الأئمة إلى مستقرين ومستودعين .

فكاتب هذه الرسائل هو الإمام المستتر أحمد بن محمد بن إسماعيل. وقد تستر بهذه العقيدة حتى ينجو من الأخطار التي كانت تهدده.

وقد عاث الإسماعيليون فسادا في الأرض مع زعيمهم الحسن بن محمد الصباح صاحب الدعوة النزارية، وكان عالما بالهندسة والحساب والنجوم. وقد تحصن في قلعة ألموت أواخر القرن الخامس الهجري في جبال البرز القريبة من قزوين في بلاد الفرس. وقد بنى أصله على مقدمتين صحيحتين. أولاهما أن المفتي في معرفة الله تحتاج إلى تعليم معلم؛ والثانية أن هذا المعلم يجب أن يكون صادقا معينا. ثم ذكر بعد ذلك فصولا منها أن الحق مع الوحدة والباطل مع الكثرة، والوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي. والتعليم مع الجماعة، والجماعة مع الإمام. والرأي مع الفرق المختلفة الضالة. وهكذا يقرر مذهب الإمامة. وجملة القول عندهم منع أصحابه من المناظرة والخوض في العلوم ومطالعة الكتب حتى يسهل عليه إفساد عقولهم. ولم يتعد بأصحابه في الإلهيات عن قوله: "إن إلهنا إله محمد". وظاهر هذا لا شبهة فيه ولكن أفعالهم مبنية على إلزامات وتحكمات. والإعتقاد مناط بالبصيرة وسلوك الطريق البينة لا التسليم والإنقياد كالقطيع.

قال لي ذلك الإسماعيلي: لا شك أن الذي يتكلم في الإلهيات أن يقول أحد قولين: فإما أنه يعرف الباري تعالى بمجرد العقل والنظر من غير تعليم ولا معلم؛ وإما أنه يعرفه عن طريق التعليم والمعلم. فمن قال بالرأي الأول فليس له أن ينكر على غيره إذ نتاج العقول والنظر متكافىء في ذلك. ومتى أنكر فقد علم والإنكار

11

إطلاقا حصول العلم من غير معلم، بل الإمكان مسلم، ولكن الواقع في مجاري العادات أنه لا بد من المعلم. وأنتم تشترطون العصمة على عكس السواد الأعظم من هذه الأمة لأن ذلك مختص بالأنبياء عليهم السلام. أما علامات العالم الصادق عندنا فثلاث، إحداها أن يعمل بما علم لكي يصح الأخذ عنه لا أن يقتدى به في علمه. والثانية: أن يكون ممن أخذ عن شيوخ ذلك العلم كما كان الصحابة مع رسول الله عليه السلام. فإن للملازمة عدة فوائد والإنقياد للعلماء والصبر عليهم في مواطن الإشكال حتى يلوح البرهان للعيان. والثالثة: وهي الإقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بأدبه. وإذا ثبت أنه لا بد من أخذ العلم عن أهله، فلذلك طريقان: أحدهما المشافهة وهي أنفع وأسلم؛ والثانية بمطالعة الكتب. وهذه الطريق مقيدة بالأولى لأن العلماء مفاتيح تلك الكتب. فظهر أن الأمر عائد إلى المشافهة التي هي الأصل. وبهذا بان لك أن الأمر على خلاف ما ذكرت من العصمة التي تنسبونها للأئمة رضي الله عنهم. وهم ما قالوا بذلك، بل قلتم أنتم بدلهم بذلك، وتلك خصلة مذمومة وافتيات من غير إذن، فارجع إلى الحق وتب إلى الله.

طأطأ الرجل رأسه لما عرف من الحق وأقر بزيغه رغم أني ما حدثته إلا حديث العقلاء وأهل النظر، ولم أسبر معه طريقة أهل الله. وكانت مثل هذه المناظرات تقع لي مرارا في المجالس العلمية التي كنت أعقدها. فلم يكن الحاضرون هم دائما نفس الأشخاص، بل كان تحضر في بعض الأحيان أشخاص لا أعرفهم. يأتون إما بقصد التشويش أو الفضول أو طلب الحق أو غير ذلك من الأسباب.

فكان مجلسي يضم بين المرة والأخرى بعضا ممن يعتقد عقائد أو مللا أخرى كالصابئة وأصحاب الروحانيات وأصحاب الهياكل والقائلين بالتناسخ والفلاسفة ومتبعوا حكماء يونان وكذا أتباع البراهمة وأصحاب البددة وعبدة الكواكب وعبدة الأصنام. كما كان تحضر أصحاب المذاهب الإسلامية من معتزلة وجبرية وصفاتية وخوارج ومرجئة وشيعة وأهل الفروع وبعض علماء اليهود والنصارى والمجوس والثنوية.

وكان حضور هؤلاء لا يكون إلا في المجالس العامة حيث تحكم بيننا وبينهم سلطان المناظرة . أما المجالس الخاصة فلم يكن تحضر فيها إلا أصحابي . وكان أخطر تلك الفرق جميعا هم الإسماعيلية النزارية لأنهم قرنوا الإعتقاد بالفعل وتحصنوا في قلاعهم، وكانوا ينشرون الرعب في قلوب أعدائهم . ولقد حاربهم الأيوبيون والسلاجقة، وقد دخلوا الشام في هذه الأزمنة . بل لقد كانوا يمارسون سياسة تبديل الأحلاف لبلوغ أهدافهم . فمرة مع الأيوبيين ضد السلاجقة، وأخرى مع الإفرنج ضد الأيوبيين وهكذا . وكان أتباع الحسن بن الصباح يعرفون بالأساسيين لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أصحاب التوحيد الأساس الذي هو الأساس في كل معتقد صحيح . وقد وهم البعض فنسبهم إلى الحشيش وسموهم بالحشاشين . وهذه التسمية لا أصل لها . وحتى على افتراض أنهم كانوا يتناولون تلك الحشيشة، فهل يعقل أن يبقى مفعولها ساريا الأيام والشهور والأعوام، لأن هؤلاء كانوا يتبثون في خدمة أعدائهم وداخل قصورهم موقوفين على الخدمة مددا طويلة حتى يثق فيهم أولياء

نعمتهم فتكون لهم الكائنة بعد خوض جحافل الشك والريبة والإحتياط التي يواجهها كل غريب حين دخوله في الخدمة أول مرة .

من سياسة القاف

كان صاحبي المستشار لدى البلاط السلجوقي مجد الدين إسحاق يخبرني بما كان عليه أمر الرعية وسياسة البلاد والأخطار التي تتهدد المسلمين عموما والسلاجقة خصوصا . وكنت أعلم منه ومن الأمير كيكاوس نفسه ابن الملك غياث الدين كيخسرو تقدم التتار واحتلالهم للصين والهند وأذربيجان وبلاد الكرج والروس وقفجاق وغيرها . وكنت مسموع الكلمة عند هؤلاء الملوك . كما كانت تربطني علاقات جد طيبة مع الأيوبيين في الشام . بل كنت أشفع للكثيرين عندهم ، وكانت شفاعتي لا ترد . وكان صاحبي مجد الدين رجلا تقيا ورعا ، بل هو شرف الأوتاد وأنموذج العباد وعمدة العارفين كما كان يحب الخليفة العباسي الناصر أن يسميه لأنه كان هو السفير بين الخلافة والبلاط السلجوقي ، خصوصا لما طلب الملك كيخسرو ومن بعده ولده كيكاوس الإنضمام لنظام الفتوة . فذهب مجد الدين لتقديم ذلك الملتمس والحصول على سروال الفتوة وعلى ظهير التعيين في عام 61 . وأوصاني خيرا بأهله وولده الملقب بصدر الدين . بل لقد أسر إلي أنه إذا وافته المنية أن آخذ تحت جناحي أهله وولده وأن أتزوج من زوجته . طيبت خاطر صاحبي وطمأنته ودعوت له بأن يبارك الله في أهله وولده . ولم تمض إلا سنة على رجوعه

من بغداد حتى توفي فتأكدت الأمانة عندي . انتظرت حتى تنتهي العدة ثم استأذنت الأمير كيكاوس في الزواج من زوجة شرف الأوتاد الذي انتقل إلى عفو الله . فرح الملك بالأمر ورآها مناسبة لكي تحجزني في ملطية بالقرب منه كمستشار وصاحب وقدوة وساهر على نظام الفتوة الذي كان مجد الدين قد بدأ يعد الناس له .

كانت زوجة مجد الدين جميلة من أصل ملوكي رومي تدعى خاتون أي السيدة . أخذتها تحت جناحي وعهدت بولدها بعد ذلك إلى الشيخ أوحد الدين الكرماني ليتولى تربيته . نشأ الولد محمد إلى جانب ولدي محمد الكبير . وقد كان صدر الدين يصاحبني في أسفاري وخاصة لما ذهبت إلى بلاد مصر . ثم إنه لزم الشيخ أوحد الدين الكرماني لمدة سنتين في شيراز فأتقن اللسان الفارسي والحكمة والفلسفة وعلوم القدماء . وهكذا رضع من ثديين، حليب الولاية مني وحليب الفلسفة من الكرماني . كما ارتبط أيضا بجلال الدين الرومي الذي رأيته معه في قونية فوجدت سوانح وفوائح الكمال عليه. وكانت بينهما محبة كبيرة . وكان صدر الدين تخبرني كثيرا عن جلال الدين ومواجيده فأخبرته بمرتبته في الديوان، وبأنه سيصبح ذا شأن كبير . كما أخبرني عن حبه للسماع، فقلت له : إنه صاحب السماع الروحاني الإلهي، إنه صاحب الناي، ميزاب الرحمة .

فسألني صدر الدين : وماذا تعني بصاحب الناي يا سيدي ؟

فقلت : الناي هو العبد الفاني عن نفسه القائم بربه . والنفس الساري في الناي هو النفس الرحماني . فالعبد الذي فنى عن نفسه كالناي الأجوف لا يعمره إلا الحق

وثقوبه هي بمثابة حواسه الظاهرة وقواه الباطنة . والحان الناي أي العبد القائم بربه هي شجوه المسبح آناء الليل وأطراف النهار بالمحامد التي تحن إلى موطنها الأصلي وتئن إلى مسكنها العلوي ، أي إلى أينها المطلق . فما نأى به إلا وقوفه مع إينه . وحيث خلص منها وجد الأين وانتفى عنه البين فخلص من الأين ولم تلدغه الأين . وما الناي إلا عين الإنسان الكامل ، فافهم ما أشرت به وقف عند هذا فقد رمينا بك على الطريق فاجهد في تحصيل الرفيق والظفر بالدر والعقيق .

كان صدر الدين نعم الولد ، تبحر في علوم القدماء ونبه في فنون الحكماء ، وفقه أقرانه في معارج الأولياء ، فحاز من كل صنف زبدته . وكيف لا يكون كذلك وهو من قونيه وقنيه . وقد أوقفناك على مالها من الحقائق في العالم السعيد .

كانت نسائي الثلاث من خيرة النساء جاها وعلما وتقوى ونسبا . فقد حزن ما يصبو إليه كل واحد زيادة على حسن الخلقة والخلق . فكنت بينهن كالطائر فوق شجرته يأخذ بهذا الغصن ويرتمي على ذاك وينزل على آخر وهكذا . جمعت هذه النسوة جميعهن عز العرب ودهاء الروم ونخوة الفرس . وكنت أحبهن في الواحدة كما أحب الواحدة فيهن . فما تفرق في الكثير اجتمع في الواحد ، وما اختزل في هذا انتشر في المتعدد . وكن سعيدات معي ، وكل واحدة تحرص على خدمتي بدل الخدم حرصا على الثواب والأجر لأنهن كن يعلمن أنني وهبت حياتي خدمة للعلم الإلهي الشريف . فبخدمتي له خدمنني .

قتل السلطان كيخسرو في معركة آلاشهر ضد تيودور لاسكاريس إمبراطور نيقية التي عرفت أول مجمع نصراني في تاريخ النصارى منذ قرون عديدة . فتنازع ولداه عز الدين كيكاوس وعلاء الدين كيقباد فيمن تخلفه . فاستنجد كيكاوس بالعادل ضد أخيه وعمه طغرل شاه الذي هاجم أملاك كيكاوس في سيواس . فساعده العادل ، وهكذا فك طغرل شاه الحصار عن سيواس . واستقر الأمر للسلطان عز الدين كيكاوس الذي قربني منه وخصني بكل إكرام . وما لبث مجد الدين أن التحق بكيخسرو فصرت المستشار عند السلطان الجديد . فكان لا يرد لي طلبا . ومرة أعطاني دارا فمر مسكين يسأل صدقة لله ، فقلت له : ليس معي غير هذه الدار فخذها فكانت له . ولم أكن معدما ولكني كنت أصرف ما يأتيني في الأهل والفقراء ولا أبقي عندي شيئا .

كان عز الدين كيكاوس يرغب في التوسع نحو الجنوب أي في بلاد أرمينية الصغرى . والحق أن كل مسلم ينظر دائما نحو مركز صدور الإسلام . فكانت أرمينية الصغرى ومنطقة كيليكية تقف بين بلاد سلاجقة الروم وبلاد الشام . وقد طلب مني كيكاوس رأيي في مهاجمة تلك المنطقة فرغبت له في الأمر ونصحته بعقد اتفاق وتحالف مع الأيوبيين لأنه برأيي المسلمون يد على من سواهم . وكان صاحب تلك البلاد هو ليون الثاني . وهكذا كتب كتابا للظاهر غازي صاحب حلب يطلب منه عقد ذلك التحالف للقيام بعمل ضد ليون الثاني والإستيلاء على أنطاكية في شمالي بلاد الشام التي كان قد احتلها ذلك الأرميني عام **613** ونصب ريموند روبين حفيد

بوهيموند الثالث أميرا عليها. كما انضم إلى هذا الحلف بوهيموند الرابع صاحب طرابلس على أن يأخذ أنطاكية.

وبينما نحن جلوس في قصر عز الدين كيكاوس لسماع المظالم دخل علينا رسول الظاهر غازي، عبد الرحمن المنجي فأخبرنا بأن أميره موافق على ذلك الحلف وأن الإستعدادات على قدم وساق. وبعد مرور أيام تبين لنا أن الظاهر غازي يتباطأ في التزاماته خصوصا وأن كيكاوس قد أرسل قواته إلى بلاد الأرمن. وقد علمنا من العيون التي أرسلها كيكاوس أن الظاهر غازي قد أبطأ لأن عمه العادل نصحه بعدم عقد ذلك الحلف لأن عز الدين سيهاجم حلب إذا ما استولى على بلاد الأرمن الحاجزة بينه وبين حلب. ومع ذلك أرسل كيكاوس الرسل إلى الظاهر غازي يستحثه على سرعة التحرك. ولما لم يبد أي استعداد لذلك قرر كيكاوس على خلاف ما نصحته به أن يتوسع باتجاه حلب، بعدما أخضع مملكة أرمينية الصغرى. ثم ما لبث أن توفي الظاهر غازي في ذلك العام، ولم يخلف سوى ولد صغير عمره سنتين وبضعة أشهر فاعتلى عرش الإمارة بوصاية والدته ضيفة خاتون ابنة العادل، ووصاية أتابكه شهاب الدين طغرل.

كل هذا شجع كيكاوس على ضم إمارة حلب إلى مملكته خصوصا لما قصده رجلان ممن كانا يسيئان إلى الرعية ويوغران صدر الظاهر غازي عليها. فلما توفي هذا الأخير طردهما الأتابك شهاب الدين طغرل، فلم يجدا بدا من التوجه إلى عز الدين كيكاوس ليحرضاه على غزو حلب. وكشفا له عوراتها وأقنعاه بذلك،

خصوصا وأنها كانت يوما تحت حكم أعمام كيكاوس . ولم يكن هو محتاجا لمثل ذلك التحريض لأن أمور الملك لها منطق التوسع والغلبة . كما أن الوضع كان سيئا في شمالي الشام بعد وفاة عز الدين مسعود صاحب الموصل . وكان قد أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه الذي لم يكن يتجاوز آنذاك العاشرة من عمره . ولكن أطماع عمه عماد الدين حالت دون ذلك . وكان الوصي على نور الدين أرسلان هو بدر الدين لؤلؤ فاستنجد هذا الأخير بالأشرف موسى بن العادل . واستنجد عماد الدين بصاحب إربل الذي استنجد هو أيضا بعز الدين كيكاوس وناصر الدين محمود صاحب آمد وماردين . واتفق الجميع على الخطبة باسم عز الدين والإنضواء تحت رايته .

ولما كان الأشرف موسى منشغلا بالحرب مع الصليبيين في إمارة طرابلس حيث أغار على حصن صافيتا وحصن الأكراد . وانضم إلى كيكاوس الأفضل علي الأيوبي صاحب سميساط . واتفقا على أن تكون حلب وأعمالها للأفضل علي مع الخطبة لكيكاوس والسكة باسمه . كما يكون لهذا الأخير ما يستولي عليه من إقليم الجزيرة مما هو في حيازة الأشرف موسى مثل حران والرها وغيرها . وهكذا سار الجيش السلجوقي ودخل بعض القلاع إلا أنه ارتكب خطأ فادحا حيث ضم إلى أملاكه تل باشر وهو من أعمال حلب ولم يمكنه للأفضل ، فتبين في خلد هذا أن هذا أول الغدر ، فعزم على تشتيت همه وقوته في مناوشات جانبية دون الإغارة

على حلب . وسار الأفضل على منبج ودخلها ثم شرع في تحصينها لمواجهة عز الدين كيكاوس .

ولما رأت الملكة ضيفة خاتون والأتابك طغرل تحرك السلاجقة، كتبا إلى الأشرف موسى ولد العادل يطلبان منه نجدة ابن أخته العزيز . وكان الأشرف يعسكر في نخيرة قدس التي تزود نهر العاصي في مواجهة الصليبيين . فقرر الأشرف التوجه إلى حلب مع جيوشه وترك مكانه المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص . وقد نزل بالميدان الأخضر واجتمع مع الأمراء والأعيان ، كما انضم إليه الأمير العربي مانع بن حديثه الطائي مع قواته . واشتبك الجيشان السلجوقي والأيوبي في معركة حاسمة كان الدهاء والخبرة هما سيدا الميدان فهزم عز الدين كيكاوس حين بزغت الفرقة بين أمرائه فولى هاربا وخسر عددا من الأماكن التي كانت قد دخلت تحت يده مثل تل باشر . ولم ينج من الأشرف إلا لأن هذا قد بلغه وفاة والده العادل فعاد إلى حلب .

لم تحدث نزاع بين أبناء العادل كما هو الشأن في هذه الأمور ، بل بقي كل واحد منهم في مملكته كما أن غزو الصليبيين لدمياط دفع بالأخوة الكامل والمعظم والأشرف إلى تعزيز الوحدة بدل الفرقة ولو لفترة .

أما في بلاد المغرب فقد نجح الصليبيون قبل هذا في عام 609 حيث هزم الموحدون في وقعة العقاب . وكنا قد ذكرنا سابقا أن يوسف بن تاشفين قد شبه الأندلس بالعقاب . فها هو العُقاب صار عِقابا وقلمت مخالبه وكسرت أجنحته ومنقاره .

في نفس الوقت الذي رزقت فيه بولدي محمد سعد الدين رزئت أيضا بولدي وصاحبي بدر الحبشي الذي كان معي في كل أسفاري منذ بلاد المغرب . فلقد تعرفت إليه قريبا من ثمانية وثلاثين عاما كلها خدمة وأدب ومحبة وأخوة في الله . لم يكن فراقا إلا بالأشباح لأن عالم الأرواح هو الملكوت . وهي مطلقة تسرح في فيئه وظلاله لا تحجبها حاجب ولا تحجز بشأنها ناطور أو عازب . لقد كان رحمه الله من رجال الأنفاس ، ومن خصائصهم أنك تشك في موتهم لأن الناظر إليهم تجدهم على حالة بين الحياة والموت . وهو نفس ما وقع للوالد رحمه الله ، إذ كان من رجال الأنفاس أيضا . وقد توفي الصاحب ليلا ودفناه في الصباح ثم عدت لزيارته في قبره بعد الظهر أشكو له من أمر وقع بعد وفاته فسمعته بصوته تحدثني ويطيب خاطري وتجيبني عن تلك المسألة . وهذا من خصوصيته رضي الله عنه وأسبغ عليه رحماته تترى .

لما زال الخطر الصليبي عن مصر واستعيدت دمياط ، وانحسر وجودهم في بلاد الشام عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما اعتادوا عليه من منازعات لتحقيق أطماع سياسية . ولم تدم هدنة الإخوة الثلاثة طويلا رغم أن خطرا آخر قد ظهر وهو التهديد الخوارزمي الذي كان نتيجة توسع المغول . وكان أكبر المتضررين من الخوارزميين هو الأشرف موسى لمتاخمة بلاده في الجزيرة لبلاد الخوارزميين في أذربيجان وبعض بلاد الكرج وعراق العجم . وحاول أن يقنع أخويه بذلك الخطر ولكنهما لم يأبها به وخاصة صاحب دمشق المعظم عيسى .

هذه هي الوضعية السياسية والعسكرية لتلك الأقاليم في هذا الزمان . وقد كنت أشاهد هذه الأحداث المتسارعة وأحاول رأب الصدع في جسم الأمة وإصلاح ذات البين بين السلاجقة والأيوبيين لما كنت أعلمه من تهديدات المغول والإفرنج. ولم تمنعني صداقاتي مع الكبراء من الإنصراف إلى الكتابة والتعليم. فقد كتبت قريبا من خمسين كتابا في الفترة ما بين 600 و 617 . وفي هذه السنة هاجم المغول بلاد فارس

حليب القاف

لقد آن الأوان أن ترسو سفينتي أخيرا في قاف النهاية ، أمشي إلى الشام وأشم منها نفس الرحمن . لقد دخلت خزانة ق في بلاد المغرب وخرجت منها إلى بلاد المشرق . وها هي السفينة تحن إلى أن ترسو وتعود إلى قاف البداية قاف النهاية . بين قاف الأسماء في مرسية وتحقق اللطف في قاف دمشق توحد المسمى . لقد دخلت تلك الخزانة وخرجت منها فرقانا بين الحق والباطل . وها أنا أرجع إليها كما يعود الضوء إلى المشكاة . تلك كانت خزانة الآفاق وهي الآن خزانة الأنفس التي هي من نفس واحدة. ولم تكن أنفسا إلا لأنها أنفاس نفساء بأنفس الروائح . البداية منك والسير إليه والوصول إليك. فأنت من قصدت وأنت من عرفت . معرفتك الأولى هربٌ أفضت بك إلى محبة غيرك فعرفك ذلك الغير بك . فتلك معرفة ثانية هي عين الطلب . لقد تعبت من السياحة وآن لي أن أتوقف لأن كل صدور له غاية . فمهما طار الحجر لا بد أن يكر إلى أصله . ومهما سمقت أشجار نكست أخرى. عشرون

عاما مضت منذ خرجت من بلاد الأسرار إلى بلاد الأنوار . بل هي ثلاث وعشرون على التحديد كانت هجرتي على صورة رسالة أكمل الكمل . فالحياة كلها هجرة ، فانظر من أين تهاجر وإلى أين تهاجر ولمن تهاجر . كلت قدماي وأصابها السأم حتى حللت بالشام .

أمام الأخطار المحدقة قررت أن أيمم صوب الشام لما ورد في ذلك من الترغيب . كما أن مهمتي قد انتهت وخاصة لما توفي صاحبي بدر الحبشي . كما أن دائرة تلامذتي كانت قد اتسعت وتركت هنا وهناك من يبلغ عني . كانت وجهتي هذه المرة شمالي الشام وبالتحديد حلب مدينة كمال النشأة وتمام التسوية ، إنها مرضعة الكمل .

كانت سياحاتي ومقامي بين رداء الكبرياء وإزار العظمة . ولنقل إنها سفر بين النسيج الردائي الكبريائي الإنساني والنسيج الإزاري الآفاقي العظيم .

كانت بلاد المشرق مسرحا ترعى فيه مختلف الدواب والأنعام من الإنس والجن والحيوان . خرجت من قونية بأهلي قاصدا بلاد الشام . والبلاد كلها تحصينات وقلاع بسبب ما كانت عليه من انتقال السلطة بسرعة مشاهية بين مختلف الأمراء والسلاطين . نزلت في إحدى المراحل في الطريق إلى حلب بقرية أغلب سكانها من الأرفاض . فطلبت ماء للوضوء وقد حان وقت الصلاة . فجاء رجل من أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه من غير مضمضة ولا استنشاق وختم بمسح طرف من رأسه . فلما رأيته فعل ذلك عاتبته على ذلك التنكيس الغريب ،

وسعيت في بيان كيفية الوضوء . فلما أنهيت وضوئي قال لي : يا سيدي ، هل رأيت بناء يبدأ من الأعلى . نحن أهل هذه القرية وكل إخواننا في سائر البلاد يكون وضوءنا هكذا لأن البناء يكون من الأساس . والإنسان بناء وأساس بنائه قدماه . حين سمعت هذا المنطق الغريب أدركت معنى قوله تعالى "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه فأضله الله على علم" ، ثم قلت له : ألا ترى أن الله قدم ذكر الرأس على الأقدام لشرف الأول ، وأن الأقدام لا تسعى إلا حيث أمرها الرأس بذلك ، فلا استقلال لها في الفعل ، فوجب أن تكون تابعة ، ولهذا قال " فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم" . ثم ركبت فرسي قربي وانصرفت وقد أفدت من هذا الفعل أن هؤلاء الأرفاض تحكمون عدم الترتيب في الوضوء ، وهو حكم تخص الباطن لأنه تحكم الوقت . أما الظاهر فالترتيب لازم بين الفرائض والسنن والمستحبات . ثم وصلنا إلى قرية أخرى فجاءنا أهلها بحلواء مصنوعة من الخروب ، وهو كثير في هذه البلاد . فطعمنا منها وكانت لذيذة فسألت عن كيفية صنعها فأخبرني أحد القرويين أنهم يأخذون الخروب ويطبخونه ثم يعصرونه فما خرج منه من الرب صنعوا منه تلك الحلواء . وزاد إن أصل تلك الحلواء من نابلس ، وقد حلت بعض الأسر منذ زمان بهذه القرية فنشروا أمر تلك الحلواء بها . ثم تابعنا مسيرنا حتى وصلنا إلى حلب مدينة الكمال والتمام والإعتدال والتسوية . إنها ثمرة الشام الرطيبة ولبنها الصافي . تستقبلك قلعتها السامقة من بعيد . وحلب تسمى الشهباء والماء بها كثير إذ ينبع من جبلين هناك . كما أن الأسوار تحيط بها . وهي

صعبة المأخذ منيعة الجناب قهرت الأعداء رغم أنوثها ودلها . وقد نسبت إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام لأنه كان يرعى بها غنمه ويسقي الناس من ألبانها . تخط حلب نهر العاصي ويبدو وكأنه يجري من أسفل إلى أعلى . وخارج المدينة البساتين والضياع قد ازدهت بكل لون وطعم . وبها ربض تحيطها وبه العديد من الخانات وبها ينزل الغرباء . فنزلت مع الأهل بدار لي هناك كنت أنزلها كلما حللت بحلب فيما سلف . فأقمنا هناك ما شاء الله . وكان صاحبي ابن سودكين يسكن هذه المدينة . ومن خلاله تعرفت على سادتها وعلمائها , وقد جمع ابن سودكين مجموعة من الأصحاب والتلامذة حولي لحضور إحدى الجلسات العلمية الخاصة فور وصولي إلى حلب . وكان موضوع الجلسة قراءة كتاب الميم والنون والواو وكتاب مقام القربة . وقد قرأ الكتاب الثاني إسماعيل بن سودكين . أما الكتاب الأول ومن أسمائه أيضا كتاب الأحرف الدورية وكتاب سنة وسنين . كان قارئه علي بن المظفر بن أبي القاسم النشبي . وكان عدد المستمعين الأحبار أربعة عشر فيهم ولدي محمد الكبير . وهذا الكتاب هو في أسرار الحروف . وقد ذكرت فيه ما ذكرت في كتاب المبادئ والغايات أو الفتح الفاسي والفتوحات المكية. وخاصية هذه الحروف أن أولها هو آخرها . وكان عدد الحاضرين على عدد الحروف النورانية التي في أوائل بعض سور القرآن وتجمع في "كلام حق نوره يسطع" . وفي ذلك من الموافقة مما لا تخفى على كل لبيب . وقد جرى الحديث عن مراتب الحروف من خيالية ولفظية ورقمية . ومن حيث الوضع أيضا بحسب المفرد والمزدوج . وتكلمنا

عن الحروف من حيث المخرج من حروف تصدر من الصدر وأخرى من الوسط وثالثة من الشفتين . وأقواها ما خرج من هذه الأخيرة لأنه مر على كل المواطن فجمع خصائصها بعكس الحرف الصدري الذي لا تحمل إلا نفسه . ولهذا كان للواو خواص وقوى جميع الحروف لأنه مشى على جميع مخارجها فحصلت فيه قوة كل تلك الحروف . ثم تكلمت عن الواو وكيف أنه مولد من الباء والجيم . وهنا سأل أحد الطلبة عن هذا السر . فأجبته بأن الباء والجيم حرفان شريفان . فإذا سرى الواحد منهما في الآخر أعطى السنة ، فهو مولد من أبويه . ولهذا يفعل الواو فعلهما لأن له من قوتهما . فيمكنك أن تنتبه عن الباء والجيم . والواو تحفظ الغيب فلا يظهر أبدا . ولهذا كان أقوى الحروف سوى الهاء لأنها تحفظ نفسها وغيرها ، والواو لا تحفظ سوى نفسه . والهاء والواو عين الهو التي أعطت الهوية السارية في كل شيء والعارية عن كل شيء . والغير الذي تحفظه الهاء هو كاف الكون من كلمة الحضرة (كن) . وقد ناب عنها النون لأن له المرتبة الخمسون ، فهي عشرها . كما كانت الصلوات خمسا في الأداء وخمسين في الجزاء . فلما زالت الهاء عن الكاف اعتمد على النون فحفظ وجود الكاف بها فاحفظ الكون عن العدم . ولك أن تزيل هاء الحفظ من النهار فيصير نارا ، فافهم .

عند هذا الحد قام أحد الطلبة وسأل عن ترجمة هذه الحقائق في إزار العظمة أي في آفاق الكون العام حيث قال : هل لاتخاذ المسلمين الخمسة كرمز في حياتهم ، واليهود للسبت علاقة بهذا الذي ذكرت عن الحفظ يا أستاذ ؟

فقلت: كل العلاقة، إن المسلمين يصدرون في أفعالهم عن حقيقة الحفظ هذه التي تحفظهم وتحفظ غيرهم لأنهم شهداء على الأمم وقائمون بأمرها ومسؤولون عنها وعن أمنها وحمايتها وإرشادها ورعاية مصالحها . فالخمسة عندهم أمر سار في الوجود، به ينحفظ الكون بمن فيه . أركانهم خمسة وصلواتهم خمس لأن الوجود الكوني العام والوجود الكوني الخاص ينحفظان بهذين الأصلين الخماسيين. أما اليهود فهم لا تحفظون إلا أنفسهم ويدعون الأفضلية على الأميين "ليس علينا في الأميين سبيل" . انظر إلى نجمة داود أو خاتم سليمان تجده مسدسا قائما على التسديس . وانظر إلى نجمة المسلمين تجدها قائمة على التخميس . أما النصارى فهم أصحاب التربيع . وأصل ذلك عبادتهم للصليب وهو رمز الأركان الأربعة والجهات الأربع . فإذا ضممت الأربعة إلى الخمسة إلى الستة حصلت على خمسة عشر . وهي خمسة الحفظ المحمدية التي عمت الشرائع الثلاث .

ثم انتقلت إلى الكلام عن النون، وكيف أنها دائرة لا يظهر منها سوى النصف كالفلك تماما . وقد ظهر النصف الأعلى في اللسان السرياني الروحاني بالهند حيث نزل سيدنا آدم إلى الأرض كما قيل . ثم ظهر نصفه الآخر عند الأمة العربية الخاتمة . ولا معنى للأعلى والأسفل سوى الحس والمعنى أو الغيب والشهادة . فعن ظاهر النون ظهرت المحسوسات وعن باطنها ظهرت الروحانيات .

كما تكلمت عن الميم الذي لآدم ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وسرت ميم آدم في ميم بسم لأنه صاحب الأسماء، كما سرت ميم محمد في ميم الرحيم لأنه صاحب

الرحمة . وهكذا سارت هذه الجلسة الخاصة محملة بالطرائف والأنفاس، فكانت يوما مشهودا شهده رجال من خلاصة صفاء خاصة الخاصة . فسرى مثل تلك الجلسة في كل العوالم كنسخة تنقل البشرى لأهل تلك العوالم .

القاف في الحصن

خرجت من حلب قاصدا دمشق، وقد سلكنا الطريق الداخلية لأن الإفرنج كانوا يحتلون بعض المواقع على الساحل . وكان احتلالهم لبعض القلاع والحصون يمكنهم من التحكم في جزء من البلاد . مررنا عبر حماة وحمص، وبين المدينتين استقر في تلك السهول مجموعة من الفلاحين النصارى في خدمة فرسان الصليب الإسبطاريين الذين كانوا يعسكرون في حصن الأكراد الشهير الذي بناه أمير حمص شبل الدولة ابن مرداس وأسكن فيه حامية عسكرية من الأكراد في زمن سابق. وكنا قد نزلنا عند عين ماء هناك، فما أحسسنا إلا والفرسان من أصحاب الصليب يحيطون بنا . فاقتادونا إلى حصنهم غنيمة سهلة . وكان الحصن يتوسط تلا يشرف على السهول المحيطة به والتي يشتغل بها بعض النصارى لإمداد سكان الحصن من الفرسان . وهو من أعجب الحصون التي رأيتها، وأمنعها وأشرسها . والوادي يحيط به من كل جهاته . أخذنا مسربا جبليا ضيقا باتجاه الحصن . وهذا المسرب لا يسلكه إلا شخص واحد وفيه الكثير من المنعرجات والإلتواءات . وقد صنع بهذا الشكل

الرحمة . وهكذا سارت هذه الجلسة الخاصة محملة بالطرائف والأنفاس ، فكانت يوما مشهودا شهده رجال من خلاصة صفاء خاصة الخاصة . فسرى مثل تلك الجلسة في كل العوالم كنسخة تنقل البشرى لأهل تلك العوالم .

القاف في الحصن

خرجت من حلب قاصدا دمشق ، وقد سلكنا الطريق الداخلية لأن الإفرنج كانوا يحتلون بعض المواقع على الساحل . وكان احتلالهم لبعض القلاع والحصون يمكنهم من التحكم في جزء من البلاد . مررنا عبر حماة وحمص ، وبين المدينتين استقر في تلك السهول مجموعة من الفلاحين النصارى في خدمة فرسان الصليب الإسبطاريين الذين كانوا يعسكرون في حصن الأكراد الشهير الذي بناه أمير حمص شبل الدولة ابن مرداس وأسكن فيه حامية عسكرية من الأكراد في زمن سابق. وكنا قد نزلنا عند عين ماء هناك ، فما أحسسنا إلا والفرسان من أصحاب الصليب يحيطون بنا . فاقتادونا إلى حصنهم غنيمة سهلة . وكان الحصن يتوسط تلا يشرف على السهول المحيطة به والتي يشتغل بها بعض النصارى لإمداد سكان الحصن من الفرسان . وهو من أعجب الحصون التي رأيتها ، وأمنعها وأشرسها . والوادي يحيط به من كل جهاته . أخذنا مسربا جبليا ضيقا باتجاه الحصن . وهذا المسرب لا يسلكه إلا شخص واحد وفيه الكثير من المنعرجات والالتواءات . وقد صنع بهذا الشكل

حتى يعيق تقدم الجيوش المحاصرة . وقد بنى هذا الحصن أمير حمص في زمن مضى . ولما دخل الفرنجة بزعامة الكونت ريموند الساجيلي أول مرة إلى هذه البلاد استولوا عليه قبل أن يستولوا على بيت المقدس . ثم أقطع بعد ذلك للإسبطاريين أي أصحاب الإسبطار أو المارستان بلسانهم . وقد كانت مهمتهم تقديم العون لإخوانهم النصارى ثم تحولوا إلى طائفة عسكرية ومالية بعد ذلك .

كان الجوع يلهب أحشاءنا لما وصلنا أخيرا إلى الحصن . فدخلنا من أحد أبوابه التي تحيطها أبراج ناتئة ، ثم سلكنا في سلالم وأدراج بعدة التواءات قبل أن نفضي إلى قاعة الحرس . ومنها إلى ساحة قبالتها حصن بسور ثان علاوة على السور الخارجي. أخذ بعض الموقوفين على الخدمة أفراسنا وأنعامنا ودوابنا حيث اقتيدت إلى الإسطبل الذي كان يسار قاعة الحرس . وأدخلونا من باب في ذلك الحصن يعلوه برجان . وقد جزنا على جسر صغير معقود بسلسلتين إلى برجين . وتحت الجسر خندق عريض على طول السور . وعن يمين الداخل كنيسة صغيرة حيث يتعبد الفرسان . دخلنا بعد ذلك إلى قاعة كبيرة حيث صفت عدة موائد بكراسيها . ويظهر أنها أعدت للأكل . ومن حجم القاعة وعدد الطاولات يظهر أن عدد سكان الحصن كان كبيرا مما يقارب الألفين . والبناء كله من حجر . والفرسان بصدرياتهم السوداء ذات الصليب الأبيض يجيئون ويذهبون . ويحدثون أصواتا مزعجة بأحذيتهم الثقيلة وألبستهم الحديدية . وفي الحصن أبراج عديدة بعضها أعلى من بعض وهي معدة للسكنى . وفي أعلى الأسوار حيث الأبراج هناك ثقوب يطل

منها المكلفون بالحراسة إلى أسفل الحصن. ومن خلالها يمكنهم إراقة النفط الملتهب على كل من تحاول دخول الحصن من غير إذن. ولقد حاول نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين السيطرة على هذه القلعة المنيعة فلم يفلحا. ولقد فهمت لماذا عجزا عن ذلك. فهي فعلا منيعة وشرسة وصعبة المأخذ. جدرانها سميكة جدا. كما أن لها عدة آبار ومخازن كثيرة للطعام تكفي الدهور بله الشهور والأعوام. وكل حصار لا ينفع في ذلك. أكملنا تقدمنا داخل الحصن. وبعد السور الثاني الذي جزناه عبر الجسر رأيت البرقيل عن يمين الداخل وهو حوض كبير مملوء بالماء الخاص بالماشية. وبجانبه قاعة ببابين خاصة بالدواب والماشية. وتلك القاعة محاذية للسور الثاني. وعن يسار الإسطبل برج دائري. وخلف السور الخارجي من جهة الداخل وضع جدار من الأحجار السميكة لتقوية السور وحمايته من الهجمات. وعلى السور ممشى له سقف ولا يدخل الضوء إليه إلا من الثقب التي جعلت في السور. ومنها توجه السهام للمحاصرين. اقتادنا الفرسان إلى غرف في إحدى تلك الأبراج ليس فيها من أسباب الراحة إلا لحاف وجرة ماء ومصباح وضع في مشكاة. ما إن دخلت الغرفة حتى أخذت الجرة وشربت ثم توضأت وصليت صلاة الخوف. وأغلق الحرس باب الغرفة. كما دخل أهلي لبعض تلك الغرف. ولم يكن بوسعنا الإجتماع. فالقساوسة لا يقربون النكاح، وقد ترهبنوا لهذه الحالة. والحقيقة أن الله لم يفرض عليهم تلك الرهبانية، فقد وضعوا السدود أمام الغرائز البشرية حتى ظهر فيهم الشذوذ. فكان الرجل يفتك بصاحبه

والمرأة تسافد المرأة كالبهائم. بل لقد قال العرب في المثل " ألوط من قرد" ويمكن للمرء أن يقول الآن "ألوط من قسيس" تنبيها على شيوع الفاحشة بينهم. أعاذنا الله وإياكم من ورع زائف يؤدي إلى فسق محقق . رفعت أكف الضراعة إلى المولى أن يخلصنا من هذه الورطة التي حلت بنا . وبعد مرور ساعة سمعت صوت مفتاح يلج ثقب الباب ثم يدخل فارس بيده مصباح ويكلمني بلسان عربي قائلا : السلام عليكم، فرددت عليه : وعليكم. وسألني عن اسمي ومن أكون فأخبرته . تهللت أسارير الرجل عندما أخبرته باسمي . فقال : ألست ابن العربي الذي كان بمرسية في بلاد الأندلس . فأجبته : بلى !

فأخبرني أنه أيضا من مرسية وأنه يذكرني أيام كان والدي ببلاط ابن مردنيش حيث كان والده من جلسائه . وقد كان يسكن غير بعيد عن دارنا لما بدأ ابن مردنيش يقطع النصارى أملاك المرسيين . فقال لي : ألا تذكر يوم كنا نتعارك ونتبارز بالسيوف ، فكنت دائما تهزمني وتهزم أقراني من مسلمين ونصارى . فقد كان مقبضك مهابا وضربتك لها جولة وصولة .

فأجبته وقد علت الإبتسامة لأول مرة محياي : بلى ! قد كنت كذلك . ومع ذلك فلم ينفعني ذلك من الخلاص من أصحابك لما أسرونا بخارج حمص .

وأردف حزقيال قائلا : هل ترغب في أن نتذكر أيام الصبا ونتبارز من جديد . لا أظنك ستهزمني هذه المرة . فقد ترهلت وأصبحت شيخا . فهل هو الجماع إذ أنك تجر خلفك ثلاث نسوة ، أم هو أمر آخر يا محمد ؟

فقلت : بل هو العلم والسياحة والزهد يا حزقيال . لقد خرجت عن الدنيا قلبا وقالبا ووجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض . وسحت في أرض الله الواسعة في الآفاق والأنفس . ومن هذه حاله فسلاحه العلم لا السيف . وإني أرى أنك أصبحت كهلا قويا ، فكيف وصلت إلى هنا ؟

فقال : تلك قصة طويلة ، ولكن عندما دخلت عساكر الموحدين إلى مرسية أخذني والدي إلى دير ببلاد الثغر الأعلى في جنوب فرنسة ببلدة تدعى (رضى Rhedae) فتعلمت هناك ما تيسر من العلم وفقهت فنون الحرب عند جماعة تدعى أمناء الهيكل أو ما تسمونه أنتم فرقة الداوية . ثم خرجت في إحدى تلك الحملات فوصلت بيت المقدس . ولما استرده صلاح الدين خرجت لا ألوي على شيء فلحقت ببعض من نجا من هؤلاء الفرسان ، ثم انخرطت في سلكهم دفاعا عن راية السيد المسيح .

فقاطعته : عليه الصلاة والسلام . ثم أردفت : يا حزقيال ، ألا تظن أن السيد المسيح بريء مما قمتم به حين دخلتم أرضا غير أرضكم وقتلتم سكان بيت المقدس عن آخرهم وغنمتم حراما وأفسدتم الحرث والنسل . ثم إننا لم نمنعكم من زيارة مقدساتكم . بل إن الخليفة عمر بن الخطاب حين دخل بيت المقدس أول مرة طلب منه كبير الأساقفة صفرونيوس أن يصلي في كنيسة القيامة فأبى خشية أن يأتي بعد ذلك المسلمون ويطالبون بها . فهل لديكم مثل هذه السماحة ؟

فقال حزقيال : لا أريد أن أجادلك في هذا . فمنطق الحرب غير منطق السلم . ولدينا رسالة وعلينا أن نبلغها ، هذا كل ما في الأمر . وأنت الآن أسيرنا ومن قلة

المروءة أن أساجلك وأنت في قبضتنا . ولكن لا عليك . فتعال معي نزور أمير الحصن ولا تهتم بشأن حبسكم ، فسأسعى في إطلاق سراحك . فمثلك لا يشكل خطرا علينا .

خرجت مع حزقيال والأهل والأصحاب في أثري فدخلنا إلى قاعة الطعام وجلسنا إلى إحدى الموائد وكانت أرجلها من حجر . فقدم إلينا حزقيال الخبز والجبن والزيتون والخل البكر فأكلت حتى شبعت من شدة ما فرط مني من الجوع الذي كاد يلهب أحشائي . ثم قدم لنا حليبا وحلواء الخروب . شكرت حزقيال على ضيافته ثم اقتادني إلى رئيسهم فدخلنا إلى قاعة جميلة حديثة البناء يستقبلون فيها الضيوف الكبار . وبناؤها يشبه بناء النصارى في الأندلس . ويظهر أن هذه القاعة مجلس الشورى عندهم يجلسون فيها لتدارس أمورهم . وفيها بعض الكراسي مخصصة لمن تخص للإستماع فقط من سكان الحصن غير الفرسان . وفي أعلى القاعة كتابة بأحرف لاتينية هكذا :

Sit tibi Copia / Sit Sapientia /Formaque detur / Inquinat Omnia Sola / Superba si Comitetur

فسألت حزقيال عنها فقال لي : إن ذلك يعني : حباك الله الغنى والحكمة والجمال . ولكن احذر من الكبرياء الذي يمكن أن يلطخ الباقي .

فقلت له : حكمة جيدة ، هل هذا شعاركم ؟ فأجاب : بالإيجاب . ثم رأيت كتابة أخرى بحرف مغاير فسألت عن معناها فعجز حزقيال عن ترجمتها لأن جل حروفها

قد اندثر وهي مكتوبة بلسان لاتيني قديم . وتقدمنا صوب رئيس هذا المحفل ، وقد تحلق حوله بعض الفرسان فأخبره حزقيال بشأني وكوني من العلماء لا من الأمراء . وحكى له عن قصتنا في مرسية ثم قدم شفاعة بشأني فأجابه رئيس المحفل إليها . بل لقد أكرمني وأهلي وأصحابي ثم طلب مني أن أرافقه مع حزقيال فقط إلى مقر سكناه في أحد الأبراج . فصعدنا عبر بعض السلالم الحلزونية حتى وصلنا إلى غرفته البسيطة والأنيقة . ثم تابعنا الصعود حتى السطح . ولشد ما كانت المفاجأة عظيمة حيث رأيت كل البلاد التي تحيط بهذا التل . وصار حزقيال يشير إلى كثير من المواقع فيقول : هناك حصن صافينة ووراءه بعيدا حصن المرقب على الساحل . كان المنظر جميلا رائعا والهواء العليل والنسيم يدغدغ الحواس . وكانت بعض الغربان والطيور تحلق في الجو . منظر هائل ومهيب . خضرة عجيبة ووراءها زرقة الساحل الذي يبدو من بعيد . وفي جانب من السطح ركمت قطع كثيرة من الحطب . فسألت حزقيال عنه فأخبرني بأنهم يستعملونه للإخبار والإتصال مع القلاع والحصون الأخرى التي في حوزة الإفرنج ، حيث يضرمون النار عاليا في ذلك الحطب للإعلام بخطر داهم فتتحرك العساكر والفرسان للنجدة .

فقلت له : هذه الطريقة اقتبستموها من الإغريق والتي اكتشفها المؤرخ والسياسي العسكري اليوناني بوليب، وتعرف بمربع الخمسة وعشرين أو مربع بوليب . وعدد الوحدات المستعملة خمسة فقط . وكل حرف من الحروف يقابله عدد عمودي وآخر أفقي، فإذا وصلت الإشارة إلى صاحبها ترجم تلك الأعداد إلى الحروف فيحصل على

الرسالة السرية. فقال لي حزقيال: لله درك يا أبا عبد الله! فلا شيء تخفى عليك، ولو كنت تتكلم لغتنا لاستطعت أن تكشف عن جميع أسرارنا التي نرسلها بهذه الطريقة.

نزلنا من السطح لأن النسيم قد اعتل والشمس مالت إلى المغيب ويمكن أن يصاب الإنسان برشحة البرد بسهولة. استأذن الرئيس في الإنصراف لأن موعد قداسهم قد حان. ولم نمر سوى برهة حتى دق الناقوس تخطر بالصلاة. خيرني حزقيال في حضور القداس أو الإنصراف إلى أهلي وأصحابي ففضلت أن أنصرف لأطمئن على أحوال الأهل. نمنا تلك الليلة في أحسن حال حامدين الله على تخليصنا من الأسر ووقوعنا في أيدي فرسان الصليب بهذا الشكل والخلوص منهم بفضل الله. ومن الغد جاءني حزقيال وأخذ معنا الفطور وكان الوجبة الرئيسة عندهم فأكلنا وتزودنا، وبعدها أخبرته برغبتنا في الرحيل. فخيرنا في الضيافة عندهم إلا أنني امتنعت بأدب فأخبر رئيسه الذي أبى إلا أن يرافقنا بعض رجاله حتى مشارف دمشق وزودنا بالماء والطعام وأهداني بعض الهدايا من حلي وأثواب وبعض الدواب. شكرته على ذلك ثم حملني كتابا إلى سلطان دمشق يعرب فيه عن نيته في الهدنة. أخذت الكتاب ووعدته خيرا ثم انصرفنا حتى دخلنا دمشق وعاد الفرسان من حيث أتوا.

أمهات القاف السبع

أقمنا في المدينة بعض الوقت ثم وفدت على السلطان وبلغته رسالة الإسبطاريين وأخبرته بما وقع لي فس بذلك .

نزلت بدار قرب باب الفراديس في شمالي دمشق قرب المدرسة الرواحية . وكانت هذه الدار لصاحبي القاضي محيي الدين بن الزكي . كانت فسيحة وكنت أعقد فيها دروسا تجتمع إلي فيها العلماء والأمراء .

دمشق قاف النهاية في جبل ق . إنها مدينة العَشرة الكاملة ، ولهذا تطيب فيها العُشرة . وهي أيضا مدينة الشهور الإلهية . ولها من الأسماء الإسم المفرد الذي يسري في كل شيء . فإذا سرى أعطاك نصفه وهو عمر شباب الجنة .

دمشق كما قال عنها الفقيه الأديب أبو الحسين ابن جبير : "جنة المَشرق ومطلع حسنه المونق المُشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين , وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بمكان مكين ، وتزينت منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن أوى الله المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض تحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرس للحُسن ومقيل . . . قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفها اكتناف الكِمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل مربع لحظته بجهاتها الأربع

نضرته اليانعة قيد النظر . ولله صدق القائلين عنها : "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها" . ولم يقل فيها إلا قول منصف حصيف ، فهي والله كذلك . وكيف لا تكون كذلك والنبي عليه السلام قد قال : "عليكم بالشام فإن الله تعالى قد تكفل لي بالشام وأهله" .

هذه الغوطة رشحة من ماء الجنة إذ كل ما تحيط بدمشق صحراء قاحلة . وتلك الرشحة أعطت ذاك النهر المسمى بردى الذي تخط المدينة ويفيح في جنباتها الورود والفواكه والثمار من زيتون ورمان ومشمش وسفرجل وتين وعنب وغير ذلك .

والمدينة عجيبة غريبة ولها سبعة أبواب عملت كذلك لأنها مفتاح الأسماء الإلهية الأمهات . وقد ظن البعض أنها جعلت كذلك لأنها وضعت على الكواكب السبعة . وهو صحيح بلا شك إلا أن صحته في دائرة ضيقة من دوائر الوجود المتعددة . وبمراعاة الترتيب في الأشياء وإعمال الحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها ، فإن الكواكب كانت سبعة لأنها أيضا على صورة الأسماء ، شأنها في ذلك شأن السماوات السبع والأرضين وأيام الأسبوع ، وغير ذلك من المسبعات . فكل مسبع في الوجود هو صورة لهذه الأسماء السبعة ، مفتاح كل أمر وجودي . وقد صورت في سابق الأزمان صورة كل كوكب على أبواب المدينة السبعة . ولم يبق من تلك الرسوم إلا رسم زحل على باب كيسان ، فقد خربت جميعها . وهكذا فباب توما للزهرة ، وباب الصغير للمشتري ، وباب الجابية للمريخ ، وباب الفراديس لعطارد ، وباب الفراديس الآخر المسدد للقمر ، وباب شرقي للشمس .

وقد أقسم الله بها مع غيرها في قوله : "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" . فالتين دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، وطور سينين حيث كلم الله موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مكة . ودمشق بلد الألطاف الوسطى ، والإسم اللطيف ناشر ألويته عليها . ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، فمن أراد الإستجابة فعليه بهذا الإسم المطابق لهذه المدينة .

ودمشق من مدائن الجنة كما ورد في أحد الأخبار الغريبة: " أربع مدائن من مدائن الجنة وأربع مدائن من مدائن النار . فأما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق . وأما مدائن النار فالقسطنطينية وطبرية وأنطاكية المحترقة وصنعاء " . ويذكر أن صنعاء المذكورة ليست صنعاء اليمن وإنما هي صنعاء بأرض الروم ، والله أعلم .

وسينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان بالمنارة البيضاء شرقي دمشق . ولباس أهل دمشق في الجنة الثياب الخضر . وكيف لا ومصلى الخضر في آخر جبل قاسيون إزاء الربوة المباركة ذات القرار المعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . إنها مدينة الزمردة الخضراء ، وهي مسكن الأبدال وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا . فيسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب . والأخبار فيها كثيرة .

أما مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي فهو آية في الجمال ، بناه الوليد بن عبد الملك . ويذكر أنه لما فتحت دخلها خالد بن الوليد من إحدى جهاتها بالسيف فانتهى إلى

نصف كنيسة كانت هناك . ودخلها أبو عبيدة بن الجراح من الجهة الغربية صلحا فانتهى إلى نصف الكنيسة . فبنى المسلمون مسجدا في مكان الكنيسة الذي دخلوه عنوة . وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة حتى كان عهد الوليد فطلب من الروم أن يبيعوا له كنيستهم بما شاءوا من عوض . فأبوا عليه فأخذها منهم . وقد ذكروا أن الذي يهدم تلك الكنيسة يجن ، فلما بلغت هذه المقالة الوليد أقسم ليكونن أول من يجن في سبيل الله . ثم أخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه . فبني ذلك المسجد الزاهر هناك وكذب زعم الروم . وفي المسجد مجموعة من القباب . وفي القبلة المقصورة العظمى التي في الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف العثماني الإمام أحد المصاحف التي بعث بها أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى الأمصار . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم المصلون على لثم المصحف الطاهر الكريم . وقد قرأت فيه ووجدته صنو المصحف الإمام الذي كان بإشبيلية في خزانة قاف . كما كان الخط نفسه الذي كتب به مصحف مكة . وقد أكملت به ختمة تامة . كما قرأت الكوثرية بعد العصر في هذا المصحف الإمام بترخيص من صاحبي القاضي محيي الدين بن الزكي الذي كانت له اليد الطولى والبيضاء في هذه البلاد . والقراءة الكوثرية هي قراءة جماعية يبدأونها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . والقراء كثيرون في هذه القراءة ينيف على الستمائة ويتقاضون الرواتب عليها . فمن غاب عن القراءة قطع راتبه . وقد كنت أقرأ معهم هذه القراءة وأنا أتذكر أيام الصبا والغفلة حيث كنت أقرأ بسورة الكوثر في الصبح

والنوم يغالبني من فرط السهر في الليالي الملاح. وفي دمشق مجموعة من المغاربة قد استقروا هنا وخصوصا لما هزم الموحدون في واقعة العقاب المشؤومة . فخرج عدد من العلماء والفقهاء والصالحين بقصد الحج . وبعد ذلك استقروا في البلاد . وكانت الشام أرحم أرض الله بهم . فقد نالوا فيها الحظوة والجاه عند الخاصة والعامة . والقاضي بن الزكي نفسه من أصل مغربي . في هذه المدينة على ما تحكى مثوى سبعين ألف من الأنبياء عليهم السلام . وفيها قبور مجموعة من الصحابة والتابعين . كنت أتردد عليها بين الفينة والأخرى .

مطعون القاف

وبالمدينة بعض الكنائس والأديرة ، وأهلها مسالمون . وقد دخلت إلى إحدى تلك الأديرة قصد الإطلاع على أحوالها والوقوف على أمورها لما جاءني غلام يقول إنه موفد من طرف حزقيال الذي خلصنا من الأسر . فلمحت فجأة صاحبي حزقيال بثياب غير التي كانت عليه في حصن الأكراد . فقد وضع عليه الآن جبة بيضاء اللون تخترقها صليب أحمر معقوف الأطراف . وفي يده سبحة دقيقة الصنع حباتها من العنبر الرفيع. وقد علمت أن الفرسان التوتونيين قد اختصوا بهذه السبح لأنهم يلتقطون العنبر من شواطئ بحر البلطيق حيث كان مقرهم الرئيس. فلما رآني خرج من وقاره وهدوءه وجاءني مسرعا مرحبا .

أهلا بك يا سيدي ، فها أنت ترى ، كيف أنني لا أحسن فنون الحرب فقط ، وإنما فنون العبادة أيضا . تبادلنا التحية ، وكانت ترافقه صبية من بنات الروم من أجمل خلق الله قد أشرب لونها الأقمر خمرة الخجل لما رأتني ، فتقصد جبينها عرقا مع أن الجو كان معتدلا . لما رأى حزقيال دهشتي من وجود هذه الصبية داهمني بالقول : إنها أختي الصغيرة مارية ، وقد أتيت خصيصا من الحصن لأطمئن على سلامتها . ثم أردف : يا محمد ، لا تغتر بهذا الخفر وهذا الحياء الذي علا نضرة هذا المحيا ، فإن أختي مارية فارسة تتقن فنون الرماية والمبارزة وركوب الخيل . ثم إنها تتقن اللسان العربي أيضا . سلمت عليها وهي من خفر تكاد تذوب فردت بلسان عربي عليه نبرة أهل الأندلس . سألت حزقيال عن سر وجودها في دمشق فقال لي : ذلك أمر في غاية السرية وسأبوح لك ببعضه حتى تساعدني في إنجاز ما أنا بصدده . والأمر دين عليك كما تعلم فقد خلصتك من الأسر . فهذه بتلك .

استغربت مقالة حزقيال لكن فضول المعرفة ألجمني عن الإفصاح له عن استغرابي مخافة أن يمتنع بالمرة عن إخباري بسرهما . ثم أردف قائلا : قبل أن أخبرك بهذا السر آخذ عليك عهد الله أن لا تخونني .

فقلت له : لا عليك ، إذا لم يكن في الأمر معصية لله ولرسوله والمومنين ، فلا تخف .

ثم قال : ليس في الأمر معصية ولا خيانة . ولكن تقدم معنا إلى مكان أكثر أمنا .

دخلنا إلى قاعة وأقفل وراءنا الباب السميك الذي يفتحها . فاستقبلنا مجموعة من الكراسي إزاء مذبح في صدره تمثالان ، واحد لرجل عار إلا من عورته والثاني

لسيدة تحمل صبيا . وتمثال ثالث في أصل أقدام تمثال الرجل لامرأة تحمل دنا وتمسح بيديها على قدميه . ثم لمحت تمثالا رابعا كريه الشكل بعينين جاحظتين ولون ناري وشعر أغبر أشعث . فاستعذت بالله من هذا وسألت صاحبنا حزقيال عن هذه التماثيل . فقال لي : اعلم يا محمد أن لهذه التماثيل علاقة بذلك السر الذي سأخبرك عنه .

فقلت : وكيف ذلك ؟

فقال : سأبدأ من البداية . اعلم ياسيدي أنني أنتمي إلى جماعة الفرسان المسمون بأمناء الهيكل أو المعبديون . وقد أسس هذا النظام في بادىء الأمر تحت اسم نظام الهيكل بعد دخول المسيحيين في عام 1099 بعد ميلاد السيد المسيح إلى بيت المقدس . فكثرت أعداد الحجاج المسافرين مما اضطر جماعة الفرسان إلى تكريس حياتهم في الحفاظ على سلامة الحجاج وحمايتهم من المكاس وقطاع الطرق .

فقاطعته : يا حزقيال ، إنك تبرر استيلاءكم على أراضي المسلمين بكون هؤلاء كانوا يمنعون حجاجكم من الحج . وهذا غير صحيح ، وحتى على افتراض صحته ، فاعلم أن أجلاف البدو من الأعراب كانوا ولا زالوا يتعرضون للقوافل كيفما كانت للمسلمين وغيرهم . ونحن المغاربة خصوصا نعاني أشد المعاناة من غزواتهم ونهبهم . وقد شكونا للأمراء والسلاطين في ذلك . وقد نص على هذا الأمر صاحبي الأديب ابن جبير في رحلته وشكا إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي لكي يؤمن

الطريق أمام الحجاج . ولهذا لا تحاول أن تقس استيلاءكم على أراضينا بهذه العلة الواهية .

وهذا المعبد أو الهيكل الذي بناه سليمان لم يعد له وجود منذ أزمان سحيقة. وقد قالوا إنه كان على شكل الوفق الادمي المثلث كرمز للعالم. وقد وجد نظيره عند الصينيين منذ أقدم الأزمنة حيث قسموا مملكتهم إلى تسعة أقاليم، وإمبراطورهم كان يسكن في مركز الحفظ الأوسط المناسب للعدد خمسة في الوفق المعلوم، والأمر يشبه مسكن القطب المقيم بالكعبة وسط الحرم. وقصر الإمبراطور كان مقسما لتسع غرف كبيرة كما هو الشأن بأقاليم بلاده. وكان ينتقل من غرفة لأخرى حسب حلول الشمس في البروج الإثني عشر. وحتى زياراته لأقاليم مملكته كانت خاضعة للدورة الشمسية ويعود في الأخير إلى المركز القطبي في الوسط. وهذه صورة الوفق والقصر :

4	9	2
3	5	7
8	1	6

فقال : يا محمد ، لا تقاطعني في حديثي ، فإنه طويل إذا أردت أن أفصح لك عن السر الذي أحمله . إني أعلم أني أخالفك في هذه القضية ، وذلك أمر معلوم بداهة . فلسنا نفسر الأشياء إلا من منطلق عقيدتنا ومصالحنا كما تعلم .

فقلت له : استمر في حديثك إذن .

فقال : لقد اجتمعت تلك الجماعة إذن وكانوا تسعة فرسان بقيادة هوك البايني Hugues de Paynes الشمباني وصاحبه جوفروا السان عميري Geoffroy de Saint-Omer . وكان ذلك في عام 1119 . وقد اجتمع إليهما مجموعة من البارونات والكونتات . ولقد كرس هؤلاء حياتهم من أجل حماية الحجاج والطرق وأقسموا على ذلك أمام بطريق القدس الأعظم . ثم استقبلهم ملك بيت المقدس بودوان الثاني في إحدى قاعات قصره في ساحة الهيكل . ثم أقطعت لهم بعض الأراضي المجاورة من الهيكل . ثم إن الملك بودوان نقل قصره من هيكل سليمان المعروف عندكم بالأقصى ، إلى برج داود . فاستقرت الجماعة بالهيكل وعرفوا به رغم أنهم كانوا يسمون أنفسهم بفرسان المسيح الفقراء .

وفي نفس الفترة نشأت جماعة الفرسان الإسبطاريين الذين رأيتهم في حصن الأكراد . واعلم أنني لا أنتمي إلى هذه الجماعة وإنما إلى جماعة الهيكليين . ولما رأيتني هناك ، كنت في سفارة قصد الإتفاق على عقد هدنة مع سلطان دمشق . ولما كنت الوحيد هناك الذي يتقن اللسان العربي طلب مني رئيس ذلك المحفل أن أكلمك فكانت المفاجأة .

إن نشوء هذه الجماعة شيء غريب في عقيدتنا ونظمنا لأن الحياة العسكرية والحياة الدينية عندنا مفترقتان . فرجل الدين غير صاحب السلاح أو الفارس . ولهذا احتاجت الجماعة إلى قاعدة جديدة تؤسس هذا النظام الجديد حتى تنظم أمورها وتعترف لها الكنيسة الأم في روما . وهكذا اجتمع محفل عظيم في عهد البابا هونوريوس الثاني ليبث في الأمر . وكان الراعي لجماعتنا القسيس برنار الكليرفاوي Bernard de Clairvaux الذي عرف بعد ذلك بالقديس برنار . وهو الذي حرر قاعدة جماعتنا . واعلم أن النبلاء هم لوحدهم المكلفون بالحماية العسكرية للحجاج لا غير . ولباسهم الأبيض كما ترى الساعة علي والذي تخترقه هذا الصليب الأحمر المعقوف . أما العامة فمهامهم الخدمة وسياسة الدواب ولباسهم ذاكن إما أسود أو بني . تطورت الجماعة واستقلت شيئا فشيئا عن الكنيسة الأم، وصارت تعين بنفسها رهبانها وقسيسيها . وجمعت أموالا طائلة من خلال الأوقاف والأحباس والهبات والصدقات من مختلف أنحاء العالم المسيحي . كما أن الهيكليين لم يكونوا يؤدون الضرائب المستحقة بل أعفوا منها . وهكذا صارت لجماعتنا حرية كبيرة واستقلال عظيم مما أثار حفيظة وحسد الحاسدين . ثم انتقل نظام الهيكل إلى العديد من المناطق وخصوصا بلاد الأندلس . فأسست هناك عدة نظم منها نظام قلعة الأطراف وهو ما تسمونه عندكم بالربط والثغور .

فقلت له : لقد بدأت جماعتكم كشرطة في يد كنيستكم . وإني أستغرب وجود شبه كبير بين نظام فتوتنا وهذه الجماعة . فلقد كان هؤلاء الفرسان عندكم من

الإقطاعيين الجائرين الظالمين فحولت الكنيسة هذه الشراسة وأعطتها هدفا ساميا عندكم، وهو محاربة المسلمين والإستيلاء على خيراتهم. أما الفتوة عندنا فقد بدأت قديما في الثغور والأربطة. وها هو الخليفة الناصر تحاول أن يعطيها نفسا جديدا اليوم بعدما اتسعت رقعة بلاد المسلمين وخبت روح الجهاد.

فقال حزقيال: لا شك ياسيدي أننا تأثرنا كثيرا بنظام الفتوة عندكم، فالضعيف دائما تحاكي القوي. وأنتم الآن أعرق حضارة في الدنيا. ورغم اختلاف العقيدة فإننا نأخذ عنكم كثيرا من الأشياء. اتسع هذا النظام وأصبحت له عماديات في طرابلس وأنطاكية إلى جانب بيت المقدس. وتحت هذه العماديات فروع في غيرها من الأقاليم والمدن. وهذا الدير الذي نحن فيه أحد هذه الفروع الصغيرة. ثم لهم عماديات أخرى في فرنسة وانجلترا والبرتغال وهنغاريا والأراغون وغيرها. ولقد تربيت ونشأت في حضن إحدى هذه العماديات في جنوب فرنسة بمنطقة جبال البرانس.

فسألته: ومن هو رئيسكم اليوم؟

فأجابني: إن نظامنا يمر اليوم بفترة عصيبة. لقد مات الرئيس الأعظم الثامن في الترتيب فرنسوا جيرار في سنة 1190 بعد الميلاد وخلفه الرئيس الأعظم التاسع يوحنا الجيزوري Jean de Gisors. وهنا بدأت المشكلة. ولهذا السبب أتيت إلى دمشق لأطمئن على حياة أختي الصغيرة. فالرئيس عندنا يعين بالإنتخاب وقد انقسم الإخوان الفرسان في المسألة تحت ضغوط كل من له مصلحة في تقسيم جماعتنا

أو استعمالها في أغراضه . وقد استغلوا بعض معتقداتنا السرية والتي تخالف فيها عامة أتباع السيد المسيح ليقسمونا .

فقلت له : كيف ذلك ؟

فقال : قبل أن أجيبك ، أطلب منك أن لا تغضب لدينك مما سأقوله ، فأنت تعلم أننا لا نعتقد نفس العقيدة وإن كنا نؤمن بنفس الإله .

فقلت له : استمر في كلامك ، فقد سمعت شناعات كثيرة في مجالسي العلمية التي كان تحضرها أهل كل الملل والنحل .

فقال : حسنا ، اعلم أن جماعتنا أي أمناء معبد صهيون أو نظام الوردة قديم جدا . وقد ألقحته الحملات الصليبية إلى بيت المقدس بنفس جديد . والأمر يعود إلى زمن بعيد . فبعد صلب السيد المسيح ، وأرجوك لا تقاطعني ، ظن كثير من أتباعه أن القديسة مريم المجدلية التي كانت مومسة وتابت . . .

لما سمعته تحكي هذا الكلام عن السيد المسيح عليه السلام استغفرت الله لي وله . ومع ذلك تركته يكمل قصته حتى لا يمتنع عن البوح إطلاقا إن أبديت له سخطي على عقيدته الفاسدة .

وأضاف : قد تلقت دمه الطاهر في كأس مقدسة وحملتها إلى بلاد فرنسة . وأصل الفتوة عندنا والوصول هو الشرب من تلك الكأس . وكل النظم والجماعات من نبلاء وفرسان وغيرهم من الخاصة سعت جاهدة في الحصول على تلك الكأس التي لا يعلم أحد أين مستقرها . ونحن نخالفهم في ذلك ولكنها عقيدة جد سرية . إننا

نعتقد أن مريم المجدلية هي زوجة السيد المسيح، ودم الصلب الذي حملته في الكأس المقدسة، كما يعتقد عامة المسيحيين، ما هو في واقع الأمر سوى النطفة التي أودعها في رحمها .

أحس حزقيال بامتعاضي ولكنه أكمل قصته: فلما رحلت جاءت إلى فرنسة وبالذات قرب العمادية التي نشأت فيها . وهناك خلفت ذريته التي أسست دولة الميروفانجيين Les Mérovingiens . واعلم ياسيدي أن هذه الدولة قد انتهت باغتيال الملك داغوبير الثاني Dagobert II في عام 679 بعد الميلاد . واستطاع أمناء هذا الملك وبعض خدامه من جماعتنا أن ينقلوا ولده إلى عائلة أمه جيزيل في هذه المنطقة الجبلية ذات السر الباهر العظيم. وأمه كانت لها نسبة مع إمبراطور القوط .

هنا تأسست الجماعة بشكل سري للحفاظ على ذرية المسيح . وهذه الكأس المسماة بالسانكرال وتكتب هكذا، ثم أخرج قلما وقرطاسا وخط عليه SANGREAL ويعتبرونها الكأس المقدسة التي تحمل الشراب الروحاني العظيم، ما هي إلا تصحيف سري ومتعمد لهذه الكلمة الأخرى، وتكتب هكذا SANG REAL أي الدم الملكي . فالميروفانجيين من ذرية السيد المسيح عليه السلام . وهو بذاته من ذرية سيدنا داود عليه السلام . وكما ترى على هذا التمثال، وأشار إلى الرجل العاري، فهذه الحروف المكتوبة فوق التمثال وهي I.N.R.I. تعني يسوع النصراني ملك اليهود، لأن الرومان اتهموه بذلك، وأنه

أراد استرداد ملك أسلافه داود وسليمان عليهما السلام . وعقوبة تلك الجريمة في روما هي الصلب فتم صلبه . ومريم المجدلية التي تراها تغسل قدميه هنا في هذا التمثال، لم تأخذ قطرات دمه في تلك الكأس حينما صلب . وإنما هي زوجته التي حملت دمه ونطفته في رحمها .

هنا قاطعته قائلا : ولكن لا أحد يقول بأن السيد المسيح قد تزوج . بل ذلك غير معلوم .

فقال : إن اليقين في هذه الأمور يا سيدي تختلط كثيرا بالخرافة . ولكن هذه الرواية التي نعتنقها أقرب إلى الواقع من غيرها . وأنت تعلم أنكم معاشر المسلمين تخالفون النصارى في مسألة الصلب وتقولون بأن المصلوب شبهه لا هو . والمسيحيون ركزوا كثيرا على الرهبنة وظنوا أن السيد المسيح لم يكن بشرا كسائر البشر وإنما هو ابن الله . ونحن نقول ونعتقد في سرنا أن السيد المسيح كلمة الله ولكنه تزوج وله ذرية كسائر الأنبياء . فالمسيحيون بنوا عقيدتهم كلها على هذا الصلب لأن دمه الذي ظنوه قد خرج منه عند الصلب هو أساس تلك العقيدة . والأمر عندنا على خلاف ذلك . فدمه ما هو إلا ذريته في حقيقة الأمر . وهذه عقيدة سرية خطيرة يعذب صاحبها عليها ويقتل ويصلب ويحرق . وقد اتهمونا بعدة تهم في هذه الأزمنة وأننا نعبد الشيطان الذي ترى تمثاله هنا ، وأشار إلى ذلك التمثال الفظيع . والحقيقة أنه يشير إلى مبدأ الشر في العالم . ونحن نعتقد أن الله لم يخلق الشر وإنما أصله هذا المخلوق الذي نسميه ملك الأرض الأصمودي ، وهو خازن كنز سليمان عليه السلام

. وقد ظهرت في هذه التماثيل العناصر الأربع . عنصر التراب مع ملك الأرض ، وفوقه عنصر النار مع حيوان السمندل الذي تراه هنا ، وفوقهما عنصر الماء في هذا الحوض المبارك . وفوق الجميع عنصر الهواء الذي تشير إليه تماثيل الملائكة .

فقلت له مقاطعاً : لقد ذكرت عدة أشياء ، ولكن ما حقيقة ذلك الإنشقاق الذي تكلمت عنه . فلحد الساعة كلامك يكتنفه الغموض ، وقد تحدثت عن أسماء مختلفة لنظام يظهر أنه واحد ولكنه اصطبغ بعدة ألوان . ثم إنك تقفز على الدهور والسنين فتتحدث عن دول وأجناس مختلفة . فهل لنظامكم هذا كل هذه السطوة وهذه القوة وهذا التأثير والإنتشار .

حزقيال : لقد وضعت أصبعك يا سيدي على حقيقة الأمر . وسوف أوضح لك بعض الحقائق التي لا يعرفها إلا الآحاد . لقد قلت لك عن أصل نشوء هذا النظام ، والذي يهدف إلى الحفاظ على الملك في ذرية داود ومن بعده السيد المسيح عليه السلام . وقد لعبت المدينة التي تربيت فيها بعد مغادرتي مرسية، دورا هاما . وهذه المدينة فيها قلعة على جبل تشرف على تلك المدينة . وقد بناها القوط في آخر عهدهم لما هزموا في عام 517 بعد الميلاد على يد كلوفيس Clovis ملك الإفرنج الجديد . فاستقروا هناك في تلك المنطقة الجبلية وحصنوا المدينة وبنوا القلعة . واستمر الوضع هكذا حتى دخل المسلمون بلاد الأندلس ووصلوا إلى فرنسة . في ذلك الزمان ازدادت أهمية المدينة حيث سكنها أساقفة ناربونة Narbonne الذين هربوا من زحف جيوشكم . ومع دخول أنصار الصليب إلى القدس عام 1099 ، أسس

ملك مملكة بيت المقدس في ذلك الزمان غودفروا البويوني Godefroy de Bouillon أبرشية جبل صهيون في بيت المقدس . ثم تأسس نظام فرسان الهيكل كغطاء للنظام القديم، وكان عدد أفراده تسعة ثم تطور وصارت له ممتلكات وأموال طائلة بعد ذلك . وكانت مهمته الظاهرة حماية الحجاج والطرقات من هجمات قطاع الطرق والبدو وغيرهم . أما مهمته الخفية فكانت حماية دم السيد المسيح الساري في ذريته من أجل تأسيس دولة لاهوتية . ولم يكن يعلم هذا إلا القليل حتى من الفرسان أنفسهم . وقد تم تصوير الأمر للعامة والخاصة كما لو أن ما يسمى الكرال GRAAL ليس سوى كأس استقبلت دم السيد المسيح عند صلبه. ومن شرب من تلك الكأس حاز كيمياء السعادة العظمى والإكسير الأعظم. وفي الحقيقة، تلك الكأس هي ذريته المودعة في القديسة مريم المجدلية . وحتى الكنيسة كانت تعتبر تولي ملوك الميروفانجيين بمرسوم إلهي وحق رباني . وهذا دليل على سريان النطفة الطاهرة في ملوك تلك الدولة . وهدفنا هو بعث تلك الدولة بالحفاظ على تلك الذرية وخصوصا لما سقطت تلك الدولة مع مقتل داغوبير الثاني .

فقاطعته مرة أخرى : أتذكر الآن ما قاله لي صديقي إسحاق حين كنت بالأندلس عن وجود ذرية سيدنا داود في ناربونة، كما ذكر ذلك ابن يونة النطيلي في رحلته .

ثم أضاف : ومع الحملة الصليبية والإستيلاء على بيت المقدس أراد محفلنا استغلال هذه الفرصة النادرة في تحقيق أهدافه وتأسيس دولة جديدة على الأرض التي نشأ فيها السيد المسيح . وقد لاقينا صعوبات كثيرة في ذلك من المسيحيين أنفسهم لأن الأمر قد اختلط، وهناك قوى كثيرة وأطماع متعددة وأطراف مختلفة وأجناس متباينة واعتقادات متناقضة وأهداف متمايزة .

ثم قاطعته من جديد : وما الذي حال بينكم وبين هذا الهدف وقد ملكتم البلاد لمدة طويلة وكانت لكم أموال كثيرة ورجالكم مهابون عند الصادق والحانق ؟

حزقيال : لقد حال بيننا وبين ما نريد ما ذكرت لك آنفا . وانضاف إليه أمر خطير هو هزيمتنا في معركة حطين على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 1187 . هنا وقعت الكارثة حيث ظهر الخلاف حتى داخل نظامنا ، فانقسم الفرسان إلى فريقين. فريق أول لم تحد عن الأهداف الأصلية وهو ما يمكن أن نسميه الفريق الملكي ، والفريق الثاني الخاز إلى الكنيسة . فتصدع البناء ، وأصبحت الكنيسة ممثلة في نظام الهيكل . أما أنصار السلطان والملكية والشرعية الأساس في كل شرعية ، حتى الكنيسة فقد بنت أحجارها بشرعية ملكية لا العكس . وهذا الفريق الثاني أظهر التسمية القديمة فأعادوا تأسيس النظام من جديد تحت اسم معبد صهيون Sionis Prioratus ، وتزعمه يوحنا الجيزوري Jean de Gisors بعد انتخابه في ليلة 15 أغسطس من عام 1188 . وذلك اليوم مخصوص بعيد سيدتنا وله رمزية خاصة . وصار رؤساء محفل صهيون يسمون منذ ذلك

التاريخ بيوحنا للرجال وحنة للنساء . واسم القلعة التي تعلمت وتربيت فيها في البرانس Castrum Rhedarium وكانت فيها كنيسة باسم يوحنا المعمدان .
والكنيسة الثانية كانت تحمل اسم السيدة العذراء .
وانتقلت أبرشية جبل صهيون إلى مدينة عكا المقر الجديد بعد سقوط بيت المقدس . وقد كان البعض من رجالنا قبل هذا التاريخ قد انتقلوا من بلاد المشرق إلى فرنسة مع الملك لويس السابع المعروف بالشاب ، لما حضر الحملة الصليبية الثانية سنوات 1147 و 1149 . ثم عاد إلى بلده بعد ذلك في سنة 1152 مستصحبا معه مجموعة من رهبان أبرشية جبل صهيون . وأسكنهم في سان صمصون بأورليان . وهؤلاء الرجال كانوا من دواعي الفرقة والإنقسام في نظام الهيكل الأول لأن الملك كانت له خلافات مع الكنيسة . وليصلح وضعه قاد الحملة الصليبية الثانية .
وتطور ذلك الإنقسام بعد ذلك حين أخذ تم بيت المقدس . كما أن الصليب المقدس والذي كان يضم قطعة من الصليب الأصلي ، والذي نسميه صليب الصلبوت ، قد غنمه المسلمون في معركة حطين . وتلك كانت كارثة كبيرة لأهل الصليب عموما .
فأتباع النظام في فرنسة وتحالفهم مع الكنيسة عجل بالفرقة لما صاروا صنيعة في يد الأساقفة وتخلوا عن الهدف الأساسي .
فقلت له : وكيف للمرء الذي يجهل كل هذه الأمور أن يفرق بين أنصار كل من الفريقين ؟

حزقيال : أولا ، ذلك ظاهر في التسمية ، وثانيا هناك علامات أساسية وخفية . وسأعطيك واحدة فقط . ثم طلب مني أن أنظر إلى شريط الحجارة بلون أبيض مخالف لأحجار جدار القاعة الغريبة التي كنا فيها . فقال : إن هذا الحزام يشير إلى أنصار فريق الملكية لأنه دليل لا يوجد إلا في العماديات والفروع التي تؤمن بهذا الأمر . ودلالته أن شخصا من أصل ملوكي مدفون في المكان ، وأحرفه الأولى مكتوبة في ذلك الشريط . وهذا لا يوجد في كل مكان . وقد رأيته لأول مرة في كنيسة يوحنا المعمدان بعمادية مدينتي الجبلية رضى Rhedae في البرانس . أما هنا ، فأنت تعلم أن السيد المسيح وأمه أووا إلى تلك الربوة ذات القرار المعين على جبل قاسيون . وقد اشترى النظام هذا الدير من إحدى الطوائف المسيحية القديمة في هذه المدينة وحوله إلى مقر لفرقة الداوية كما تقولون . وهذا من الأمور الخفية . فأرجوك أن لا تخبر أحدا بهذا السر .

ثم قلت له : لقد أعطيتني الآن تصورا واضحا عن نشأة نظامكم وخلافكم وأهدافكم الظاهرة والخفية. واعلم بأنك قد جاهرت بالكفر ومع ذلك استمعت إليك ، ولا تظن أن مجرد استماعي لقصتك ينجيك من العقاب . فأمر ذلك موكول إلى الله . والأنبياء عندنا معصومون من الخطايا ، ولهذا نخالف عامة اليهود والنصارى في هذا الأمر . ولكنك لم تخبرني بكل هذا من أجل أن نتناظر وإنما أخبرتني به من أجل شيء لم تفصح عنه لحد الآن . فما هو وجه مساعدتي لك ولأختك هذه .

حزقيال : أرى أن نشر هذه الأسرار لم يذهل بك عن الغاية من ذلك ، وهو أمر يثلج الصدر . واعلم أني ما أخبرتك بقصتي إلا لمعرفتي بنسبك وحسبك وقدرك العالي في العلم والولاية . ومثلك لا تخشى منه في إذاعة ما أخبرتك به لأن صدور الأحرار قبور للأسرار .

فارس القاف

اعلم يا سيدي أني فقهت دينكم ولسانكم منذ كنت في مرسية وتعلمت منكم أشياء جديدة . وقد أرسل رئيس الإسبطاريين، حينما كنا في حصن الأكراد رسالة إلى سلطان دمشق قصد الهدنة . وكنت حينها هناك فأخبرتك أني من الإسبطاريين وإن لم أكن منهم، لأن المقام لم يكن يتسع ولا يسمح بأن أخبرك عن كل الأسرار التي ذكرتها لك الساعة . وقد بدأ الشك تخامرني منذ مدة في كل هذا الأمر . ورأيت في بعض كتبنا المقدسة التي تتحدث عن بزوغ سيد جديد مبشر به . والنصارى تحملون تلك البشارات كلها على السيد المسيح . وبعضها يصدق عليه ذلك . ولكن البعض الآخر عصي على ما هنالك . وكان عيسى عليه السلام يعبر عن المبشَّر به بلفظ النبي او Messih . وأصل الكلمة بالعبرية هاماشيح ، وفي الآرامية والسريانية ماشيح . ثم صارت عند اليهود زمن عيسى مسيًا ، وتعني المسيح. كما عبر عن ذلك إنجيل يوحنا مثلا :" وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليمكث معكم إلى الأبد" . وأيضا " وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما

تخص الخطيئة والعدل والحكم" . ومثل هذه البشارات كثيرة . ومن المعلوم أن عيسى كان يتكلم الارامية المشتقة من العبرانية . واللفظ العبراني لهذه الكلمة مفقود أو تخفيه كبار أحبار اليهود . وكاتب الإنجيل الرابع ترجم اسم المبشر به إلى اليونانية Parakletos أو Peraclyte أي الفارقليط . وقال النصارى إن معنى الكلمة المعزي أو الشافع أو الوكيل أو أن معناها عندهم الحمد أو أحد مشتقاته. وبالسريانية ترجمت بكلمة المنحمنا وبالحبشية برنقطيس . وبهذا يظهر أنها تنطبق على شخص يدعى أحمد أو محمد . ولا نعرف أحدا أو نبيا تسمى بهذا الإسم سوى نبيكم . وقد ذكر القرآن بأن المسيح يبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد . وهذا أمر عظيم .

فقلت له : إذا كان عندك مثل هذا العلم ، ووصلت إلى هذه الحقيقة ، فلماذا لا تعانق الملة الخاتمة ؟

حزقيال : أمهلني يا سيدي بعض الوقت حتى أفرغ كل ما في جبتي . ثم تنهد برهة كما لو أنه غاب عني ثم أفاق وأضاف : بعد معركة حطين وأسر ملك بيت المقدس جاي اللوزنياني Guy de Lusignan ، وقاطع الطرق المحسوب على النبلاء رونو الأقصرائي Renaud de Châtillon المعروف عندكم بالبرنس أرناط ، والذي كان السبب في هزيمة المسيحيين كما تعلم لأنه تعرض لقافلة مصرية محملة بأنفس الأشيا، ونهبها ، وبذلك خرق الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والإفرنج . فلم يكن من بد في شن الحرب وملاحقة المعتدين بمقتضى بنود تلك الهدنة . وقد قطع صلاح

الدين رأس ذلك اللعين بسيفه وقتل جميع الفرسان الذين قبض عليهم، ولكنه أبقى على رئيس فرسان الهيكل أو ما تسمونه مقدم الداوية في ذلك الوقت جيرار الردفوري Gérard de Ridefort رغم عداء صلاح الدين للفرسان ومعرفته لخطرهم على المسلمين . ومع ذلك فقد أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، مما أثار التعجب والغرابة والريبة لأنه لم يكن يتسامح مع أي واحد من الفرسان سواء من الداوية أو الإسبطاريين أو التوتونيين .

وقد اتهم أصحابنا والإفرنج بعد ذلك الرئيس بأنه اعتنق ملة الإسلام . وقد طلب جيرار من جميع الحصون والمدن التي كانت تحت يده بأن تستسلم لصلاح الدين رغم المقاومة الشرسة التي أبانت عنها حصون وقلاع أخرى في يد الإفرنج . ولم تستسلم إلا بشروط في صالحها . بل إنه ألح على سكان عسقلان بالإستسلام فرفضوا رغم الحصار المفروض عليهم . وسقطت المدينة بعد أسبوعين من ذلك . وقد كنت وقتها من أعوان رئيس الهيكل المقربين . وكنت شابا في العشرينات، وقد أطلعني سرا على إعجابه بالإسلام وأمرني بالكتمان، بل إني كنت ترجمانه لدى صلاح الدين . وقد شفع لي عنده فأبقى علي . ولما رأى جيرار من سماحة صلاح الدين ورحمته وأخلاقه استيقظ فيه ضمير الحق الضامر في كل كائن . وبدا له أن تركة المسيح هي هذا النبي العربي الذي أتى بهذا الدين السمح والذي يجعل الإيمان بعيسى وأمه ركنا من تركه كفر . وعلم أن ذرية المسيح التي كنا نحميها ما هي إلا خيوط عنكبوت

زائلة . وأن وصاياه هي في اتباع الملة الحنيفية الجديدة الخاتمة التي لا تتعارض مع ما كان ينادي به السيد المسيح . بل إنها تعظمه وتجله هو وأمه .

وقد تأثرت كثيرا بأفكار رئيسي الجديدة التي كنت مهيأ لها منذ كنت في الأندلس ، ولكني أخفيتها عن غيرنا . لكن منصبه منعه من إظهار حقيقة اعتقاده وبقي تحارب إلى جانب الإفرنج بعد ذلك حتى كانت الوقعة الكبرى في عكا سنة 1187 وقد قتل فيها . فبقيت لوحدي وكتمت أمري حيث كنت شابا ثم انقلبت دوائر الزمان . وتأسس معبد صهيون الجديد القديم ، وانخرطت في سلكه . ثم اتبع النظام سياسة الهدنة مع سلطان دمشق مما أثار حنق كثير من الإفرنج ، واتهمنا بأشنع التهم منها الإحتكار للأموال والردة وعبادة باهومي Baphomet صاحب العمامة الذي له وجه لكل جهة . وتوجد له رسوم سرية في بعض عمادياتنا في الأندلس وبلاد البرتغال أي باب الغرال La porte du Graal . وذلك الإسم تحريف لاسم محمد . والكل يطمع في أموالنا وحريتنا . وبقيت متسترا على حالي حتى لا أتسبب لعائلتي التي بقيت في فرنسة في المشاكل . ولما مات والدي ووالدتي لم يبق إلا أختي ، فطلبت مجيئها وحضورها إلى هنا حتى أتبين أمري ، وهي تعلم كل ما قلت لك .

فقلت له فجأة : هل اعتنقتما الإسلام إذن ؟

حزقيال : ليس تماما ، وإنما نؤمن بربكم ونبيكم .

فقلت له : وهل ذلك غير هذا . إن الشهادة عندنا هي الإيمان بالله وبرسوله . فمن قالها بلسانه وأقرها بجنانه دخل الإسلام . أبشرا يا إخوة الإيمان ، هذا يوم سعيد . لقد خلصكم الله من الضلال وهداكم لطريق الرشاد والأمان .

مارية : مهلا يا سيدي ، فنحن في هذا الدير محسوبون على أصحابنا , ولا يمكننا التصريح بما أخبرناك به إلا بعد أن نطمئن على سلامتنا .

فقلت لها ، وقد احمرت ديباجتها ، وانعكس لون غفارتها البيضاء على تلك الحمرة مع انسلال عذارها على خدها كالأراقم فوق الصفا تنشد الحرارة والدفء : لا عليكما ، سأتدبر أمركما وسأخبر السلطان بأمركما وستنزلان بجواري . فلم يعد لكما مكان في هذا الدير وفي هذا المعتقد . هيا بنا نرحل . أم أنكما ترغبان في تهييء أمركما ؟

حزقيال : بل نبقى هنا بعض الوقت وسنلحق بك في دارك بعد يومين ريثما نتدبر أمرنا . ثم انصرفت بعدما ودعتهما وأنا أتعجب من هذه القصة الغريبة . ثم قلت أخاطب نفسي : لقد أخرَجَنا النصارى من مدننا في الأندلس ولكنهم لم تخرجونا من قلوبهم ، فمن المنتصر إذن ؟ بل ، ليس هناك منتصر من الطرفين ، وإنما الحق هو الذي ينتصر في الأخير .

طلبت رؤية السلطان وأخبرته بخبر حزقيال وأخته دون ذكر كل التفاصيل ، ثم سألت أن يأخذه في خدمته . وافق السلطان على طلبي وفرح به ، خصوصا وأنه كان

عازما على أخذ هذه الحصون التي في يد الصليبيين . وحزقيال أفضل من يمكن استعماله في كشف عورات تلك القلاع والحصون لاقتلاعها من حوصلة المسلمين .

جاءني حزقيال كما وعد مع أخته متخفيين في ثياب عامة المسلمين فاستقبلتهما استقبالا حارا ولزماني بعض الوقت إذ نظرت إليهما بعين الخصوصية فسرى سر تلك النظرة فيهما . وكنت أتمنى أن يهدي الله بعضا من فرسان الداوية إلى الإسلام كما شرح صدر حزقيال له ، خصوصا وأن ذلك موجود بالقوة فيهم ، ودليله هذه النهم التي ينهمون بها من أبناء جلدتهم . وكنت أتعجب من باب الوجود كيف أن طالب الحق ينهم في طلبه وهو على حق . ثم أطلعني الله على سر ذلك الأمر الذي لم يكن لنا طعم فيه ولا ذوق . فالنهمة في الله مقام لا يذوقه إلا من كان هذا شأنه . وتلك النهمة تتحل على جبل التوحيد القائم بين الهاء والميم في تهامة .

كان حزقيال تخص الدروس والمجالس العلمية التي كنت أعقدها في داري أو في المسجد ، وصار من أخص الجلساء ، كما كانت أخته تخص بعضا منها . وقد هام عقل الكثيرين بها لعلمها وشجاعتها وجمالها . وقد تمنيتها لواحد من أبنائي الروحيين أو الطينيين . أما هي فقد كانت زاهدة في الرجال ، وتلك حال كل مريم بتول . فلما أوقفتها على أن الكمال هو في الجمعية الآدمية ، وبينت لها أن زوجتي مريم أيضا كان لها ذلك الحال ثم زال . وقد كنت أنا أيضا أزهد في النساء حتى وقفت على الخبر النبوي في حب سيد الوجود للنساء . فرجعت عن مقالتي ورحل بي الحال إلى الحال .

من الألف إلى القاف

كان يحضر الدروس التي أعطيها في المسجد رجل من أتباعي لا أعلم عنه شيئا. وكان يجلس من دون أن يتكلم سوى ما كان يبدو عليه من تحريك للرأس قبولا أو رفضا. وكان وجه هذا الرجل غير غريب عني، إلا أني لم أتذكر أين رأيته من قبل. ومرة ألمحت إلى الإسم الأعظم وحلته. فرأيت الرجل مقبلا علي بكليته، ورغبته في استطلاع الأمر عارمة فسألني قائلا: اسمح لي يا سيدي أن أسألك سؤالا بخصوص الإسم الأعظم، فقد رأينا أن الكثيرين يدعون معرفته. فهل هو مخصوص بالمسلمين أم أن غيرهم من أهل الملل الأخرى لهم ذوق فيه؟ فقلت له: الحديث عن هذه الأمور لا يليق بهذا المجلس، ويمكنك أن تأتي إلى داري لنتحادث في الأمر. فهب الرجل قائما وقال: ذلك ما كنا نبغ، ثم انصرف.

حضر الرجل في اليوم الموالي إلى داري وكنت لا أعطي دروسا في ذلك اليوم. فوجدني أنتظره. قلت له: يا هذا، إنك تحضر دروسي منذ مدة، و لم أسمعك تسأل

أو تتكلم حتى البارحة. وقد كان سؤالك عن الإكسير الأعظم، فما هو سرك، ومن تكون؟

فقال الرجل: ألا تعرفني يا سيدي؟ فقلت له: لا أعرف عنك إلا ما ذكرت لك.

فقال: أما أنا فأعرفك منذ زمان طويل. أتذكر يوما ذكرت فيه الإسم "شمهفوراش" بإشبيلية؟

فقلت: ربما، ولكن ذلك يعود إلى أيام الشباب على ما أظن. فما علاقة هذا بذاك؟

فقال: كل العلاقة. ألا تذكر الشخص الذي قلت له ذلك الإسم مصحفا فنعوذ بكلمات وأنكر معرفته به.

فقلت: إنك إسحاق، أليس كذلك؟

فقال: أنا إسحاق وقد أخبرك أخي في بغداد بخبري، فهل نسيت؟

فقلت: ما نسيت، ولكني لم أكن أعلم أين كنت تقيم. وكنت أنتظر أن تقد علي، فقد علمت بإسلامك. فقل لي كيف دخلت الدين القيم المهيمن؟

فقال: لقد خرجت من الأندلس مع أهلي فرارا من تظلمات الموحدين علينا معشر اليهود. وقد وقع في يدي كتابك الإسرا إلى المقام الأسرى. وهو آية من آيات الله في مبناه ومعناه. وقد تأثرت كثيرا بهذا الكتاب وبدأت أتعقب كل ما كتبت فقد مررت على كل البلاد التي قصدتها، واجتمعت ببعض أصحابك، وطلبت منهم كل ما كتبته. ولم أكن أفهم كل ما ذكرت حتى وصلت إلى القاهرة والتقيت بالعارف بالله أبي

حفص عمر بن الفارض الذي فتح لي مغاليق كتبك بأشعاره في المعارف الإلهية، فلزمت خدمته وأطلعني على كتابك الفتوحات المكية الذي أرسلته له. وقد أخبرني أنك استأذنته في شرح قصيدته الرائعة نظم السلوك، لكنه أجابك بأن كتاب الفتوحات المكية شرح لها. وقد أوقفني على الكثير من أسرار ذلك الكتاب. ثم خرجت من مصر واختلفت طريقنا. وقد علمت أنك في ملطية وقونية وبغداد. وكنت دائما أتعقبك إلا أني لم أظفر بك حتى تعبت. وقد دلني أحد أصحابك أن أقصد الشام وأنتظرك هناك لأنه سمعك تحدث بالحديث النبوي عن فضل الشام، فاستنتج من ذلك منيتك في الإستقرار بها. وقد عملت بنصيحته، وقد مضى زمن طويل قبل أن تيمم شطر الشام. ولكني احتسبت انتظاري وهجرتي الأوطان في سبيل الله. فلما حضرت وبدأت تعطي دروسك أخذت أنهل من علومك وفتوحك حتى أذن لي في الكلام بحضرتك فسألتك السؤال الذي تعلم. وها أنذا الآن في دارك.

فقلت له: مرحبا بك يا إسحاق، فأنت أخي في الله، وقد رأيتك في رؤيا رأيتها وأنا في الجزيرة الخضراء بالأندلس قبل أن أعبر بحر الزقاق. وعلمت أنك ستكون من أصحابي بعد أن كنت من أصدقائي. فالحمد لله الذي هداك إلى دينه. ولكن أخبرني عن أبيك وأهلك وكيف تلقوا نبأ إسلامك. فاليهود أكثر تمسكا بدينهم من غيرهم، وذلك لقلتهم وضعفهم.

فقال: لقد حاول معي أهلي بكل ما أوتوا من قوة أن يصدوني عن الدين الخاتم ولكن الله ثبتني. وقد هجر الوالد الأوطان من أجل هذه القضية واتخذ السياحة وسيلة للتخلص من لوم كبار الحاخامات والربيين. ولكن ماذا بخصوص سؤالي عن الإسم الأعظم، فإني ما زلت متعطشا منذ زمان لمعرفته.

فقلت له: يا أخي، المهم ليس هو الإسم، ولكن أن تكون أنت عين الإسم. وأنت تعلم أن اليهود قد ضيعوا الإسم وقت الشتات.

وبينما نحن جلوس إذ استأذن في الدخول علينا حزقيال، فأذنت له فسلم وقعد. التفتُ إلى صاحبي وقلت لهما: هل تعلمان أن جمعنا هذا جمع الحقائق كلها. فهو نسخة لما في الوجود. ونحن نواب الأمة لحقيقتها الأحدية والمحمدية. فما من واحد منا إلا ويمثل أمته لتدخل في عموم الرحمة، وأنشدت:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

وقد تمنى موسى وعيسى عليهما السلام أن يكونا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وقد استجاب الله لدعوة رسوليه ووفقكما لدينه. فقد كنتما من أمة الدعوة قبل إسلامكما وصرتما من أمة الإستجابة بعد ذلك، وما ثم غير ذلك. فالكل أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وقد اكتمل الحائط بلبنة الذهب والفضة. ولنعد إلى حديثنا يا إسحاق عن الإسم الأعظم. وسوف نرى صورته عند كل من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام.

يذكر أحبار اليهود أنه في آخر كتاب الأمثال من العهد القديم نجد أن عدد كلمة "ميوشار" أي المسرور أو السعيد بالعبرية يبلغ بحساب الجمل العبري عدد البقية "إسرائيل" أي 541 . وهذا العدد له أهمية كبيرة عند المسلمين، ولكنه ينطوي على مخاطر كبيرة . فهو عندنا يشير إلى "اليسر" الذي جاء به ديننا . ومن هنا زل السامري الذي أخذ قبضة من أثر الرسول. فعدد السامر أي السامري هو 541 . ولهذا تحدث بعض أحبار اليهود عن الغوليم أي ذلك العجل الطيني ذي الخوار والذي يقتل صاحبه حين ينزع عنه الألف من بين عينيه. وهم يصنعونه من الطين ثم يذكرون عليه الإسم الذي أصحفه لك هكذا "مه وفر آش". فندب النفس الحيوانية فيه كما يزعمون. فهذا الغوليم صورة لذلك العجل، والحبر صورة للسامري الذي ارتد بقوم موسى. وقد ظهر من قبضة الأثر في العجل خوار لأن الحياة هي في سلوك الآثار.

أما على مستوى الأسماء الإلهية، فعدد اسمه "متعال" ينطبق على ذلك العدد المذكور. والذكر المخصوص بذلك الإسم عند حكماء المسلمين هو :"اللهم أنت الذي فتحت طرق الهداية وعرفت أولياءك أسرار الكشف والفتح والدراية ونورت بصائر أهل العرفان . . .

ولاحظ معي يا إسحاق أن الدعاء تضمن لفظ الهداية لأن هذا الإسم صورة لاسم آخر هو الإسم "مهيمن" وعدد مرآته 541 أي 145 . وهذا الإسم يعني القائم على خلقه في أعمالهم ومحياهم ومماتهم وبعثهم ووجودهم. وهذا الإسم جامع

للإسلام. وحروفه خمسة جمعت حروف الملكوتيات ولطائف الأكوان. وإنه تعالى قد جعل الأمر العلي (منغال) مهيمنا على العقل وهو على الروح وهي على النفس وهي على الحركات وهي على السكنات وهي على الحروف وهي على المعاني وهي على الأسرار. فكل أول مهيمن على ما تحته، كالألف على الباء.. والمتخلق بهذا الإسم يلزمه الأدب في سائر أفعاله لأن صاحبه كثير المشاهدة. وفيه أسرار عجيبة لمن كان له ذوق في الحكمة الإلهية التي لا يصل إليها إلا آحاد المولهين. فكن مولها تذق معنى القطبانية.

قاطعني إسحاق قائلا: وما علاقة اليهود بهذا العدد وهذه الأسماء إذن؟

فقلت: لقد ذكرت لك الحقيقة الظلمانية لذلك العدد بخصوص عجل السامري. وذكرت لك الحقيقة النورانية الأصلية عند المسلمين. وقد انتهينا إلى الإسم المهيمن وقلنا إن عدده 145 . وقد ورد في دعاء الإسم "منغال" الذي ذكرت سابقا "اللهم أنت الذي فتحت طرق الهداية". فالهداية هنا تشير إلى الهدى، فإذا وضعت إزاء حروف تلك الكلمة أعدادها أي (ه = 5 ، د = 4 ، ا = 1) أي 145 . أما علاقة اليهود بالهدى فظاهرة في اللفظ إلا أنهم قلبوا أحرف الهدى وزادوا فيها حرفا إضافيا لأنهم طمعوا في الملك الذي آتاه الله سليمان. فهود يعني الملك بالعبرية كما تعلم. والهدى مداره على ثلاثة أقطاب لا غير، قطب يتضمن خمسة أركان من الهوية، وقطب يتضمن أربعة أركان من الديمومية، وقطب ثالث يتضمن ركن الإنية. فإذا فاضت أركان الهوية والإنية بسماها على صفا. نهر الديمومية ضرب لها شعاع في

زوايا الجنة والنار. أما شعاع النار فهو نور الهوية فيقع الحجاب "كلا إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون". وأما شعاع الإنية فيكون في الجنان حيث تقع الرؤية. ومجموع ذلك العدد عشرة 10 . وأنت تعلم أهمية هذا العدد عند اليهود كما ورد في شجرة الأسفار العشرة: التاج الأعلى، الحكمة، التمييز، القوة، الحلم، المجد، النصر، الملك، تكوين العالم، الملكوت.

والهدى هو مجموع الأحدية (أحمد 53) والمحمدية (محمد 92). ولو أدرك اليهود هذا لدخلوا في الدين المهيمن كافة. ألا ترى أن موسى عليه السلام قد طلب من الحق أن تجعله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ليكون له ولأمته حظ من الإسم الباطن (أحمد) والإسم الظاهر (محمد). وأحيلك على سؤال الإمام الحكيم الترمذي رقم 145 من مجموع أسئلته التي ذكرها في كتابه ختم الأولياء، والتي أجبنا عنها. فقد بينا حقيقة هذا الأمر، فارجع إليه.

ثم سألني إسحاق مرة أخرى: إن علماء اليهود يقولون بأن اسم الله "يهوه" لا يعلم نطقه ولا شكله، بل إنهم يتكتمون غاية التكتم في النطق به. وهو مكون من أربعة أحرف هي اليا، والها، والواو ثم الها.. أما المسلمون فيقولون بأن الله علم آدم الأسماء كلها، فكيف ذلك؟

فقلت له: يا إسحاق، إن ذلك الإسم الذي يذكره الأحبار لا ينطق لأنه خال من الألف، أي ألف التوحيد الخالص. وعدد ذلك الإسم عندكم هو 26 . ونحن نعبر عنه بحرف الحمد لأن القرآن افتتح به. وقد أعطيت الأمم الأخرى ستة أحرف، وأعطيت

الأمة المحمدية سبعة أحرف، وبذلك فضلت عن سائر الأمم. فإذا أردت النطق به أضفت له الألف فتقول : يا هوه، وهو مجموع كل الأسماء. لأن عدده 27 ومرآته 72 ومجموعهما 99 وهو مجموع الأسماء الحسنى. أما قولهم أنه لا ينطق به فمعناه أنه لا يعلم لأنه بالهاءين صار غيبا في غيب، فكيف تحاط به. والذات غيب لا مطمع لأحد فيها. والنطق بالشيء عين إدراكه. جل ربنا عن وصف المحدثات. أما إذا لم تعتبر الهوية الثانية، فإن عدده النهواني هو 132 ، وهو عدد محمد، الوسيلة العظمى إلى رب العباد. فافهم ما أخبرتك به، فإنه الإكسير الأعظم. وقد أكثر الناس من الحديث عن الإسم الأعظم وحروفه وصيغه. واعلم أن اسم الله الظاهر هو الله، واسمه الباطن مكون من أحد عشر حرفا. وهي الصيغة التي لا تزيد على نفس ذاته التي هي هو (11). فأنت ترى أن هي هو أي ذاته كنهه. ونحن نستخرج هذه الصيغ من سور القرآن.

واعلم أن للعدد سلطانا في الإلهيات، ومن جهله فقد جهل خيرا كثيرا. فالأحبار والكهان أي الذين يقدمون القرابين هم السبب في كفر هذه الحقائق، أي سترها بغفارة الكهانة. وذلك الإسم عندهم تجمع ضمير الشأن (هو + هي) أي الهوية التي في كل شيء سارية وعن كل شيء مجردة وعارية. فالكاهن لنسبته مع اسم الذات كفرها لأنه جعل الكون مهيمنا عليها، وأنى له ذلك. فكيف للحادث أن يهيمن على القديم. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. انظر كيف جاءت الألف والهاء، وهما حرفا الذات بين الكاف والنون، وهما حرفا الكون (كاه ـن). ومعلوم أن كن هي

كلمة الحضرة والإيجاد. فالذي يوجد بها وفيها هو الكون ورمزه الواو لا المكوِن. ومن هنا زلت أقدامهم.

ثم تدخل حزقيال لأول مرة ليشارك في هذا النقاش قائلا: لقد استمعت إليك يا سيدي وأنت تتحدث مع إسحاق عن الإسم عند اليهود حتى وصلت إلى ذكر الألوهية عند المسلمين وعددها 66. وكما لا تخفى عليك، فقد ورد في الأصحاح الثالث عشر من كتاب مرائي يوحنا في العهد الجديد، أن عدد الوحش الذي تخرج من البحر 666. فهو يرمز إلى دولة الدجال وولاينه. وقد علمت أن هذا العدد مخصوص بالمرتبة الوسطى عند المسلمين، فكيف يدل نفس العدد على حقيقتين متضادتين؟

فأجبته: سؤالك وجيه يا حزقيال، واعلم أن لكل حقيقة نورانية ظلها الظلماني الأسفل. هذه سنة الله في خلقه "ومن كل شيء خلقنا زوجين". و666 عدد شمسي قطبي، وجدول الشمس الإدريسي له نفس العدد، وهو الوفق المسدس والذي يوافقه يوم الأحد. وهو يرمز عند العيسويين إلى مقام عيسى عليه السلام من حيث علاقته بقطب الأرواح إدريس عليه السلام لعلاقتهما معا بنفس الرحمن. فإدريس مداوي الكلوم هو قطب تلك الأنفاس، وهو أول من خط بالقلم. وعيسى كمداوي الكلوم يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بنَفَسه الذي هو من روح الله. فعدد إدريس بالمغربي 515 إضافة إلى عدد عيسى بالمشرقي مع اعتبار الألف الهوائي 151، ومجموعهما 666. فقطب أنفاس أولياء الشيطان هو الدجال الأعور المسيخ الذي يقتله سيدنا المسيح. ثم إن مجموع 666 هو 18 الذي هو عدد

الإسم "حي" أي نفَس الحياة. وهذا الإسم من أذكار سيدنا جبريل، ولهذا جاء في القرآن بخصوص سيدتنا مريم "فأرسلنا إليها روحنا (جبريل) فتمثل لها بشرا سويا".

ولهذا أدعوكما سويا إلى أن تجيبا داعي الله بقولكما (بلى) إقرارا بالميثاق الأعظم الذي جمع كل الأسماء. إن "بلى" بمرآتها لها العدد 66، ومعناها باسم الإل أو بسم الله. وبلى مع الفارق عين اسمه الحي. أما إذا وضعت فوق كل حرف عدده أعطاك 132. وقد علمتما عنه ما ذكرت لكما. وهي بهذا تكون قد جمعت بين أشرف كلمتين في الوجود (الله – محمد). كما أن "بسم" مع صورتها هي عدد المرتبة الوسطى 666. ثم إن هذا العدد هو مجموع نشر الأعداد من 1 إلى 36. وهذا العدد الأخير هو مجموع صيغ التهليل التي وردت في القرآن.

ثم إن الحروف الإحدى عشر التي ذكرناها قبل قليل لها علاقة بهذا العدد. ومن جهة أخرى إن عدد "جبل قاف" بالكبير والصغير هو 216 زائد 18 بما مجموعه 234 ومرآة هذا العدد هو 432 ومجموعهما 666 العدد الشمسي القطبي. أما عدد كلمة القرآن فهو 382 ومرآته 283 ومجموعهما 665. وعدد قاف بالكبير 181، أما بالصغير فعدده 10 ومجموعهما 191 وهو نصف عدد القرآن 382.

ويكفينا هذا القدر من الإيضاح، فلكل مجلس بساطه. والعدد مفتاح لفهم أسرار الألوهية الكبرى. واعلما أن اسم الله الأعظم هو الله "أليس الله بكاف عبده" فقالا بصوت واحد: بلى!

هذا هو الإسم الأعظم لمن له الإذن فيه، وقليل ما هم. ثم أخذنا في الذكر بصوت واحد واجتمع الأصل والفرع، فأثمر ذلك الذكر من النتائج ما الله يعلمه. وفاضت الأعين بالدموع وخشت قلف القلوب، فخرج منها الصديد والصدأ، وعمرت بأنوار وأسرار المعارف. فقد جب الإسلام والإيمان والإحسان ما قبلهم.

القاف على جبل قاف

مرت أعوام هادئة وانتقل خليفة المسلمين إلى عفو ربه وخلفه الإمام الظاهر بأمر الله إلا أنه لم يكمل العام في الخلافة. ثم بويع ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور الملقب بالمستنصر بالله وسار على نهج أبيه في العدل والإحسان. وكانت أعظم منة هي سماعنا بموت كبير التتار جنكيز خان الذي ملأ الأرض ظلما وجورا وقتلا وحرقا وتشريدا، فاشتغلوا عن المسلمين بترتيب أمورهم فخف خطرهم على البلاد والعباد. ثم توفي سلطان دمشق الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل.

وكان الملك المعظم قد انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، كما كان مولعا بالنحو والعربية والفقه. وكان تحب مجالس العلم. وقد ولي بعده ابنه داود الملقب بالملك الناصر. وفي عهده خرج الإفرنج إلى الشام وكان فيهم ملك الألمان فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية، وقد نقمت الكنيسة عليه لما أخل بنذره في قيادة الحملة الصليبية الخامسة التي استولوا فيها على دمياط. لكنه قاد الحملة السادسة رغم ممانعة

حبرهم الأعظم المسمى جرتجوري التاسع . وقد طمع الفرنجة في الشام بعد موت الملك المعظم . وقد سار الملك الكامل إلى الشام بعد موت أخيه المعظم . فلما رأى الملك الناصر أن عمه يريد الإستيلاء على دمشق كتب إلى عمه الآخر الأشرف ملك الجزيرة يستنجده ، فسار إليه ودخل المدينة . لكن الكامل كاتب أخاه الأشرف وأخبره أنه ما جاء إلا لمنع الإفرنج عن بلاد الشام وأعلمه بنيته في العودة إلى الديار المصرية . لكن الأشرف ذهب إليه بنفسه وطلب منه المكث بالشام ليمنعوا عنها شر الفرنجة . غير أنهما لما التقيا أوغر الكامل لأخيه الأشرف باقتسام ملك أخيهما المعظم الذي توفي والإتفاق مع الإمبراطور على تسليمه بيت المقدس مع بقاء المسلمين بها وبأماكنهم المقدسة .

وهكذا أغرت الأطماع الكامل فاتفق مع زعيم الروم على هذه الفعلة الشنيعة . وحاصر الكامل دمشق وسلمها للملك الأشرف مقابل أطراف من الجزيرة أخذها الكامل . ثم سلم هذا الأخير بيت المقدس للفرنجة فكان ذلك من أكبر الشناعات والهنات التي علقت بهذا الملك الطامع .

أمام هذه المصائب لم يكن أمامي إلا أن أكمل مهمتي في هذه الحياة فأقبلت على الكتابة والتعليم . وأصدرت فتوى بعدم جواز زيارة المسلمين لبيت المقدس إذا كان بأيدي غيرهم ، وهو جهد المقل . وقد غلى الدم في العروق وثارت ثائرة المسلمين مما فعل الكامل . لكن الله سبحانه وتعالى فرج عني في هذه الأيام العصيبة فرأيت سيد الوجود عدة مرات . فكانت تلك المبشرات من أعظم القربات،

ثم إني رأيته في مبشرة في العشر الأخير من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال لي، هذا كتاب فصوص الحكم، خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا .

كنت في داري المشرفة على سفح جبل قاسيون في إحدى تلك المبشرات ، وقد دخلت خزانة جبل ق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو يتقدمني وأنا أتعقب خطاه واحدة بواحدة . بدأنا بالمنزل الأول في هذه الخزانة التي أعلمني سيد الوجود أن حجراتها سبعا وعشرين . وأن الحجرة الأخيرة وهي الثامنة والعشرون ليس لها وجود عيني ، وإنما هي عبارة عن تعيين لكل الحجرات السابقة ومراتبها . ثم خاطبني السيد الكامل : اعلم يا محمد أنك الآن تستنشق نفس الرحمن الذي ظهر من العماء الرباني فظهر منه القلم الأعلى والأرواح المهيمة حتى انتهى ذلك النفس الرحماني إلى الإنسان المخلوق على صورة الرحمن . ثم انتقلت مظاهر الكمال المحمدي في الظهور بالتدريج ابتداء من آدم حتى ظهرت في ولا فخر، كخاتم للمرسلين صلوات الله وسلامه علينا وعلى كل الصالحين . واعلم أن الله كان ولم يكن معه شيء ثاني . والكون حرف وجودي لا كما يتوهم البعض ، ولهذا أضافوا على قولي "وهو الآن على ما عليه كان" . ولا رائحة للزمان فيما قلت . فلما تحدثوا عن الآن ولج إليهم، ولو تبصروا لعلموا أن كان حرف وجودي ، وهو ما وفق إليه إمام النحاة سيبويه رحمه الله. فأبدع الحق أول مبدع وهو القلم الأعلى

الذي هو العقل الأول . وآدم هو مظهر الإنسان الكامل المناسب لتلك المرتبة .
أما المفتاح القرآني لتلك المرتبة الوجودية ففي أول سورة نزلت علي . ثم تقدم عليه
الصلاة والسلام، وأنا خلفه أضع قدمي حيث وضع قدمه فيسترني برداءه من شدة
الأنوار. وتقدمنا إلى الحجرة الثانية حتى وصلنا إلى الحجرة الأخيرة، والأسماء تترادف
علينا من البديع فالباعث والباطن والآخر والظاهر والحكيم والمحيط والشكور
والغني والمقدر والرب والعليم والقاهر والنور والمصور والمحصي والمبين والقابض
والحي والمحيي والمميت والعزيز والرزاق والمذل والقوي واللطيف والجامع. ثم قال لي
أنا ذلك الجامع لأني جمعت القرآن فأول حرف فيه الألف وآخر حرف فيه السين . فأنا
ذلك الأس "هو الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا" .
فأعطيت الجيم لجبريل والألف لإسرافيل والميم لميكائيل والعين لعزرائيل ، فكنت
الجامع وأوتيت الجوامع " ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية " . فلم يبق من منزل
إلا وقد دخلته وراثة مني . فأنت حسنة من حسناتي ثم ناولني شعرة من شعرات
صدره فالتهمتها فرأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .
فما أنا إلا وارث ولآخرتي حارث . وقد رأينا في جبل قاسيون منازل كل الأنبياء ،
ورأينا الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ، وهي مأوى السيد المسيح وأمه صلوات
الله عليهما . وبإزائها رأينا نورا أخضر يشع من هناك . فأخبرني سيد الوجود أنه
مصلى الخضر عليه السلام. ثم رأينا في مكان من الجبل مولد أب الأنبياء. فصلى بي
رسول الله هناك . وكلهم مقتد وأنت الإمام . ثم وقفنا على قبر بلال بن حمامة

مؤذن الرسول . فسألني عن صاحبي بدر الحبشي فأخبرته بانتقاله إلى الدار الأخرى . ثم ترحمنا عليه وأخبرني أنه يشبه بلال وهو هبة من الله لتصح الوراثة بكل المراتب . ثم وقفنا على قبور مجموعة من صحابة الرسول وأهل بيته . ووقف هو صلى الله عليه وسلم على رأس ذلك الجبل، وأنا بجانبه وقال لي : هل تعلم يا محمد أنك الآن على جبل ق . وقد خرقت لك الحجب فاثبت . ثم ردني إلي وقال : أتعرف ما هو جبل قاف ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . فقال : إنه جبل القرآن على جبل قاسيون على جبلة القلب على جبل القلب المحمدي الذي تفرقت منه كل الرحمات . فهو القلب الواسع . ومرتبتك تحكم عليها اسمه الواسع . إن جبل ق ينقص بدرجتين عن هذا الإسم . وذكرك يا محمد هو ذكر الهوية لأنها سارية في كل شيء وعارية عن كل شيء . فإذا سرت في الألوهية نتج عنها القلب المحمدي الذي تنتهي إليه كل القلوب أي الشعب والعقائد فنسلم وجهها لرب العالمين . إنها المبتدأ والمنتهى والبطون والظهور . إنك الخاتمي وقد ورثت النبي الخاتمي فالزم، إنك خاتم طي في جبل قاف من حيث إزار العظمة أو جبل قاف في طي خاتم من حيث رداء الكبرياء . وهذا كتاب الفصوص ، اخرج به إلى الناس ، ثم ناولني ذلك الكتاب وغاب عني .

أفقت من هذه المبشرة والجذل طافح بطاساته علي والأنس حاف بي من كل جانب . جبل ق اسم من أسماء العبد الكامل الذي تعلق بالصمدية وتأهب للإيمان . فلا وصول للجلوة الإيمانية إلا بالخلوة الصمدية على جبل ق ، وبعدها تحصل للعبد

الوسع الإلهي "ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المومن" .
وصفه بالإيمان لأن القلب ينتقل في أطوار المحمدية (قلب/محمد) معرجا على الصمدية (صمد) ومتحققا بالحقائق القرآنية في (جبل ق)، وصولا إلى المرتبة الإيمانية (مؤمن) التي تقضي بالعبد المومن إلى أن يكون مجلى ومظهرا للوسع الإلهي (واسع) ويذكر محبوبه بذكر الهوية .

ومن جهة أخرى إن عدد "جبل" 35 ومرآته 53 أي عدد "أحد"، ومجموعهما 88 أي عدد "حبيب الله"، وفارقهما 18 أي "جبل 8" زائد "قاف 10" أي عدد اسمه "حي 18". كما أن مجموع عدد "قاف" بالصغير مع مرآته 11 الذي هو عدد اسمه "هو". فمن أسماء القطب الكامل "هو ق" الذي عدده عدد كلمات "قطب، ألف، أي 111". أما عدد "جبل قاف" بالصغير فهو 18 ومرآته 81 ومجموعهما 99 أي عدد الأسماء الحسنى، والفارق بينهما هو 63 أي عمر الإنسان الكامل المتحقق بهذه الأسماء على التمام، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. ولكل من هذه الأعداد أسرار تزج بك في بحار لا ساحل لها من عظمة الحق جل جلاله.

ثم شرعت في تسطير ما أخذت منه صلى الله عليه وسلم من غير انقطاع حتى أتممته ثم أشرت إلى مفاتيحه في الباب 198 من كتابي الفتوحات . وقد شرعت في التدوين في آخر محرم ورقمت ذلك الباب في شهر ربيع الآخر من نفس العام . وخرجت به إلى الناس، أي إلى أقطاب هذه الأمة . ولم يكن تحضر السماع لشرح كتاب الفصوص سوى ولدي صدر الدين القونوي أو ابن سودكين . فالناس في مفهومه

عليه الصلاة والسلام هم الأقطاب أو من لهم ذوق في ذلك من الأفراد . فهم أصحاب الأنس بالله . والحكم هي الأسماء التي تعلمها آدم من رب العزة . وليس بوسع كل واحد أن يتحقق أو يتخلق أو يتعلق بمجموعها إلا من كانت له القدم الراسخة في الوراثة والولاية . بل إن بعضها للتعلق فقط ولا تخلق بها .

وفي ليلة تقييدي للفصل 198 من كتاب الفتوحات ، رأيت ظاهر الهوية الإلهية وباطنها شهودا محققا ما رأيتها قبل ذلك في مشهد من مشاهدنا ، فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم واللذة والإبتهاج ما لا يعرفه إلا من ذاقه ، فما كان أحسنها من واقعة . ورأيتها على صورة خاصة ، شكلها نور أبيض في بساط أحمر له نور أيضا في طبقات أربع . ورأيت روحها في ذلك البساط في الطرف الآخر في طبقات أربع . فمجموع الهوية ثمانية في طرفين مختلفين من بساط واحد . فأطراف البساط ما هي البساط ولا غير البساط . فما رأيت ولا علمت ولا تخيلت ولا خطر على قلبي صورة ما رأيت في هذه الهوية .

بعد ذلك كتبت كتابا خاصا بالمرتبة الثامنة والعشرين أسميته الفص المختوم ، وهو خاص بذلك البساط الأحمر هو هو صورة وروحا بين الكلمة الشريفة . وقد خرجت مع الخاصة من أصحابي وأتباعي بظاهر دمشق لنتدارس ذلك الكتاب وقراءته . ولم أكن قد جمعته في سفر واحد بل كان أوراقا متفرقة . فأخذ كل واحد من الأصحاب ورقة يقرأ فيها ، فإذا بريح فجائية لا عهد لنا بها تأتي وتأخذ تلك الأوراق إلى حيث لا ندري . ولم يكن لدي من ذلك الكتاب سوى نسخة واحدة

ضاعت بهذه الكيفية . وما ذلك إلا لأنه ليس لتلك المرتبة وجود عيني بل هي عبارة عن تعيين لسائر المراتب . والإسم المتوجه عليها هو رفيع الدرجات ذو العرش . فالهوية محمولة على العرش يومئذ . لم أتأسف كثيرا على ذلك الكتاب لأن سيد الوجود عين لي سبعة وعشرين مرتبة ، وأمرني بإخراج الكتاب إلى الناس . وقد أضفت تلك المرتبة التي أخبرني بوجودها ، ولم يأمرني بإخراجها ، فضاعت "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله" . وسيأتي في الزمان اللاحق من أصحابي الأقطاب من سيكتب ذلك الكتاب من جديد . فالحكم للزمان ، وقد امتنع ظهور الفص المختوم في زماني هذا بالمرقوم.

كان حزقيال الذي حسن إسلامه ، يتابع الدروس ويلتهم العلوم ، ولكنه كان يحن للمبارزة والمسايفة. واتفق أن بعض غلاة الشيعة كانوا يعيثون في الأرض فسادا ، وقد اتخذوا من الشام ودمشق مقرا لهم. وكانت هذه الفرقة تعرف بالغرابية لأنهم كانوا يقولون إن عليا كرم الله وجهه كان أشبه بالنبي من الغراب بالغراب . ويا له من نعت ذميم ووصف قبيح سقيم. تنزه الوصف بله الموصوف عن مثل هذا العي . ولله در من قال : رد العيب حيث يستحيل العيب عيب . ولكن الله سلط على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنُبوية سنيون يدينون بالفتوة وأمور الرجولة . فقر رأيي أن يلتحق حزقيال بهذه الفرقة لما كان عليه من الفتوة والرجولة . فعرضت عليه الأمر فأبدى فرحا بالغا بذلك . وكانت هذه الفرقة التي أسسها أبو البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الصوفي ، تحترمني أشد الإحترام وتجلني لمعرفتهم بكرامة الله علي ،

إذ كان الله يكشف لي عن كل رافضي ولو تستر على ذلك . أقيم حفل الإلتحاق ولبس حزقيال سروال الفتوة الخاص بهذه الفرقة ، وصار من أكابرهم. أما أخته فقد زوجناها بأحد هؤلاء الفتيان لأنها كانت فارسة لا يشق لها غبار .

في هذه السنوات أكملت تحرير كتاب الفتوحات المكية وأهديته لولدي محمد الكبير . والتقيت بعدد من العلماء كالقزويني صاحب كتاب آثار البلاد وأبي الحسن الحرالي المراكشي ، وكان نابغة . وقد استضفته ثلاثة أيام ثم رحل بعدها إلى حماه . وقد قال لي حين اجتمعنا :

إذا ما سبحت فلا توغلن فإن السلامة في الساحل

فقلت له : إذا كنت ذا نفس فاغطس في بحر القرآن . وهو آية من آيات الله في المعارف . وقد أوقفني على بعض أعماله وخصوصا في التفسير ، ومنها مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل وعروة المفتاح. والباب هو علي كرم الله وجهه كما ورد في الخبر . والباب مقفل من قلة أو عدم التدبر . وقد ذكر لي أبو الحسن أنه وضع تفسيره على أساس الخبر النبوي من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . والأصل أن الإصلاح المشروع يخص الدين والدنيا والآخرة . وفي كل إصلاح إقدام وإحجام. فإذا سرت الثلاثة في الزوج تصير الثلاثة الجوامع ستة مفصلات هي حروف القرآن الستة التي استوهبها الإنسان الكامل من ربه . فلما استوفاها وهبه ربه حرفا جامعا سابعا فردا لا زوج له . فتم إنزاله على سبعة أحرف . فحرفا صلاح الدنيا هما حرف الحرام وحرف الحلال . أما حرفا الآخرة فهما حرف النهي وحرف

الأمر. وأخيرا حرفا صلاح الدين، وأحدهما حرف المحكم والثاني حرف المتشابه.
وهذه الحروف الستة يشترك فيها القرآن مع سائر الكتب مع فضل تمامها وجمعها بالإضافة إلى اختصاصه دونها بالحرف السابع الجامع وهو حرف الحمد الخاص بمحمد صلى الله عليه وسلم. وهو ما افتتح به الحق القرآن والفاتحة أم الكتاب وجمع فيها جوامع الحروف السبعة المبثوثة في القرآن. ولما أكمل حديثه هنأته على هذا الفهم الجديد في كتاب الله. ولا يكون الفهم إلا إذا كان التالي يسمع من الله. فوقت السماع وقت الفهم من غير تقديم ولا تأخير. ومن لم تحصل له هذا فليس له فهم فيه.

ثم أوقفته على تفسيري في القرآن الذي فسرت فيه كل آية من باب الجمال ثم من باب الجلال ثم من باب الكمال. والتفسير غير التفسير. وقد وقفت فيه عند آية "وإذ قال موسى لفتاه" في سورة الكهف. والسبب هو أني كوشفت أن هذا التفسير سيرفع عن الناس حتى قيام الساعة. فلما وصلت إلى ذلك الحد لم أر داعيا إلى إكماله. وهو يقع في نحو سبعين مجلدا. وهذا التفسير موجود وسيبقى مرصودا ومخزونا في خزائن إحدى مدن المغرب الكبرى. ويطلع عليه أهل الكشف خاصة دون غيرهم. بل سأقول لكم إنه بخزانة قاف في المغرب. هكذا جاءنا الكشف، فسلم تسلم حتى تطلع شمس النهار.

ثم أخبرته أن كتاب الفتوحات المكية هو أيضا مبني على ستة فصول ومردها إلى الأسماء الستة الأمهات. والإسم السابع هو الذي يستمد منه الفتى روح القرآن. ثم

أخبرته أن أبواب كل فصل لها رمزيتها . وهذا البناء المودع في الفتوحات خفي جدا ، لا يقف عليه إلا أولوا الفهم الصحيح عن الله . . . . . .

لما قتل جلال الدين الخوارزمي قام جنوده المتفرقين بالعبث وقطع الطرقات والإعتداء على الآمنين . فاستغل ملك الروم علاء الدين كيقباد الأول الأمر لصالحه وضم بلاد جلال الدين إلى مملكته وجزءا من بلاد الأشرف موسى الأيوبي الذي كان منشغلا بأمور الشام . واستعمل كيقباد العساكر الخوارزميين في حراسة الحدود ومواجهة الأيوبيين الذين اتحدوا بقيادة الملك الكامل ضد السلاجقة . لكن الخلافات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين حالت دون فوزهم فخسروا بعضا من أراضيهم شمالي الشام . لكن الكامل عاد بعد مدة واستعاد تلك الأراضي . ولم تنته تلك المناوشات بل كانت كرا وفرا بين طرف وآخر . والمسلمون لاهون عن الخطر الأعظم الذي يتهددهم وهو الخطر المغولي الزاحف . فقد احتل المغول إيران . أما الصليبيون فقد وهنوا في الشرق وتقووا في الغرب حين سقطت المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى . فها هي قرطبة تسقط في يدهم . ولن يلبثوا أن يطردوا المسلمين من الأندلس . وقد فهمت الآن لماذا أراد الله أن يخرجني من هناك حتى لا أدفن في تربة ستؤول إلى الكفار ، وأرادني للشام كما قال الصادق المصدوق " عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه وإليها تجتبي خيرته من عباده " .

دب الوهن في العظام واشتعل الرأس شيبا ، وبدأت إعادة كتابة الفتوحات المكية، كما جمعت أشعاري في ديوان أسميته ديوان المعارف الإلهية تحدثت في مقدمته عن وظيفة الشعر الإلهي بما لم أسبق إليه . كان التلاميذ والأصحاب يحضرون بكثرة للأخذ عني وكنت أحثهم على ذلك بعد أن شعرت بقرب الرحيل . وكنت أخص صدر الدين القونوي وابن سودكين بمزيد عناية . كما أن أحد التلمسانيين واسمه عفيف الدين أخذ عني . وكان من النبهاء. وسيكون له شأن ، إلا أنه سيكون لغيري، ذلك مما أخبرنا به .

أما حزقيال فإنه كتب إلى كبير أساقفة النصارى بروما وأخبره بالخطر المغولي على المسلمين والنصارى. كما كتب إلى الإمبراطور فردريك الذي كان يحسن العربية ويحب الحضارة العربية الإسلامية ، ينذره بنفس الأمر . وكان النصارى مخطئون في المغول الذين كانوا يسمونهم شعب النبي يوحنا وحاولوا تنصيرهم، وكادوا يفلحون. أما الإمبراطور ، لما فصل من الكنيسة بسبب ما ظنوه منه تماطلا في قيادة الحملة الصليبية فلم يعد يهتم بأمور الشرق كما كان . ولم يساعده فرسان الإسبتارية والداوية في مهمته رغم أنه رد بيت المقدس للنصارى باتفاقه مع الكامل . ولم تكن الداوية تحبه لأنه أبقى على المسجد الأقصى بيد المسلمين . وقد كان مركزهم في المدينة ، ولم يبق أمام الإمبراطور سوى الفرسان التوتونيين لمساعدته .

كان ولدي محمد الكبير قد أسن ، وكان سعد الدين قد شب هو أيضا . وكنت أحبهما وأرى فيهما النباهة والصلاح . أما زوجتي الأولى مريم فكانت نعم المرأة الودود غير الولود ، إذ لم تنجب لي أطفالا . ولكنها كانت تخدمني وتحبني محبة فائقة ، وكنت أبادلها ذلك الحب . فلم أجد في زوجاتي الأخريات نفس ما كنت أجده نحوها . فالقلوب بيد الرحمن يقلبها كيف شاء .

كنت كثيرا ما أجلس إلى أهلي في هذه الأيام لأعوضهم عما سلف من طول الغيبة وكثرة السياحة . وكنت أتنعم بهذه اللحظات الغالية التي لم أعرف طعمها من قبل . وكنت أخيط ثيابي بيدي وأصنع أشياء لم أكن أفعلها من قبل اقتداء بسيد الوجود .

أكملت أخيرا التحرير الثاني لكتاب الفتوحات الذي بناه الحق لا أنا لإفادة الخلق . فكل ما في هذا الكتاب فتح من الله . ورغم كثرة أبوابه وتنوع فصوله، فإننا لم نستوف فيه خاطرا واحدا من خواطرنا ، فكيف بالطريق ؟ ولكننا ما أخللنا بواحد من الأصول المعتبرة في الطريق . فهو كتاب كشف ووهب وليس للأفكار فيه سبيل . وقد وقفته على ولدي محمد الكبير الذي أمه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين، وفقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقا وغربا برا وبحرا .

كنت جالسا أذكر حتى وقعت لي شبه غيبوبة وأحسست بإعياء كبير, وتفقدتني زوجتي مريم لتناول طعام العشاء. فوجدتني مغميا علي فراعها منظري وسارعت إلى رش بعض الماء على وجهي، ثم أخطرت ولدي وأهل البيت بما وقع فسارعوا إلي. أفقت بعد ذلك من غيبوبتي ورأيتهم متحلقين حولي فبادرتني مريم قائلة: لقد قلقنا عليك يا أبا محمد، فماذا حصل لك ؟

فقلت: إنه هادم اللذات قد جاءني

فقالت وهي تغص بريقها: أطال الله عمرك، خذ حظك من الراحة وقلل من هذه الأذكار، فالحذر كل الحذر لأن صحتك قد اعتلت منذ مدة إذ لا تكاد تطعم إلا بضع لقيمات. فقلت لها: لا ينفع حذر من قدر يا مريم. لقد قربت قيامتي.

لقد كنت تتكلم وأنت في غيبوبتك، فمع من ؟

فقلت لهم: اعلموا أن لأهل الله أحوالا عند الموت. فالواحد منهم يكشف عنه الغطاء فيصير بصره حديدا فيعاين أمره الذي ينفرد به عندما يأتيه اليقين. ولا يقين أيقن من الموت لأنه متيقن الوقوع في كل ذي كبدة رطبة. فقد وقعت لي شبه غيبوبة عاينت خلالها أحوالي. فقد شاهدت إثني عشرة صورة بأكملها. وهذه الصور قد تحصل كلها أو بعضها للقوم. فقد رأيت صورة عملي وصورة علمي وصورة اعتقادي وصورة مقامي وصورة حالي وصورة رسولي وصورة الملك وصورة اسم من أسماء الأفعال وصورة اسم من أسماء الصفات وصورة اسم من أسماء النعوت وصورة اسم من أسماء

التنزيه وصورة اسم من أسماء الذات. فقد من الله علي بهذا ووقفت عند كل صورة بل سورة لأنه منازل، ولكن لما تجسدت المعاني وظهرت بالأشكال والمقادير تصورت في صور. لما علم أصحابي وتلامذتي بقرب منيتي عادوني في بيتي حيث لزمت الفراش. جاؤوا يغشمون قبل الرحيل:

قد جاءني خطاب   من عند بغيتي
بأن أقول قولا   لأهل ملتي
اغشموا وجودي   من قبل رحلتي

فالعظم قد وهن من كثرة الترحال. صار هذا الجسد المرهق نحيفا هزيلا لا يطعم إلا ما يسد الرمق ولا يشرب إلا ما يطفئ حرقة الصادي. وقد عدت في هذه الأيام إلى ذكر الكلمة المشرفة "لا إله إلا الله" وعليها نلقى الله. وقد كان ذكري سابقا هو الإسم المفرد. إن حياتي على هذه الأرض بمثابة كلمة الشهادة. سألني بعض الأصحاب عن الموت وأنا على فراش أتوسد اللقاء إلى الرفيق الأعلى. فقلت له والعبرة تخنقه ومن حوله: الموت يا ولدي هو لطف الله بالإنسان، فليس للموت لحظة ولا ساعة، وإنما هو حركة ممتدة ابتدأت منذ ظهر الإنسان، فيوم ولد يوم مات. أما هذه اللحظة التي يسموها الموت فهي انقطاع النفس الذي هو أصغر الأيام. وموتنا هو انتقالنا إلى الدار الأخرى إلى البرزخ الذي هو قاعة الإنتظار الكبرى حتى قيام الساعة يوم هم بارزون. لقد صدق الصادق حين قال: أعمار أمتي من الستين إلى السبعين. وها قد زفتني هذه الدنيا إلى ضرها، وقد استكملت من العمر ثمانية

وسبعين، فقد ولدت عام 560 وهو عدد أبواب كتاب الفتوحات المكية. فعمري شهادة لي بالإيمان، إذ شعب الإيمان بضع وسبعون أي ثمان وسبعون على المشهور. فكل عام من أعوامي في هذه الدنيا قد استوفيت فيه شعبة من تلك الشعب الإيمانية. وأدنى تلك الشعب إماطة الأذى عن الطريق، ويعلم الله أننا ما قصرنا في ذلك حيث نافحنا عن الحق حيث كان من غير غلو بل بالرفق بالخلائق والرحمة بأدناهم والنصح لأعلاهم. وأعلى تلك الشعب كلمة لا إله إلا الله، وقد اتخذناها ذكرا في هذا الختام حتى تكون البداية عين النهاية، ويكون مقامنا على هذه الأرض وعمرنا هو عمارة تلك الكلمة، وبها حزنا الوسع الإلهي "ماوسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المومن". ثم خاطبهم قائلا: اشهدوا فقد بلغت، وإني سألقى الله راضيا مطمئنا، فأنتم مصابيح الدجى ونجوم الهداية، بكم يقتدي الكبير والصغير، فبلغوا عني ولو كلمة وسطروا في الرقوم والأسطار هذه المعارف إلى الإنسان، كل إنسان حيث كان. فأنتم رسلي إلى أمم الإنس والجان في كل العصور والأزمان. ومنكم وفيكم يظهر الأقطاب الذين عليهم مدار العالم. ولولا رعاية الأمانة لذكرت لكم أسماءهم إلى قيام الساعة.

كان محيي الدين أبو عبد الله محمد بن العربي الحاتمي الطائي المغربي يتكلم بصوت خافت كأنه منبعث من بئر شطون. وكانت الأصوات يقرع بعضها البعض فيسمع لها صدى ينقلها إلى الفضاء الرحب، إلى كل العوالم والخلائق. وكان هذا الصوت ثقيلا على القلوب فيه رعشة ورهبة أوجعت النفوس والأنفاس، ولم يجرؤ أحد على النطق،

فهذه ساعة يرتفع فيها الكلام وتنزل فيها الهيبة. ثم أوصاهم بتقوى الله في السر والعلن، وأن السعادة في الإتباع لا في الإبتداع، وذكرهم بما ينبغي ثم صرفهم كما لو أنهم لم يدخلوا. بقي مع محيي الدين زوجته مريم فسألها أن تسنده إليها فوضع رأسه بين سحرها ونحرها، وكانت المسكينة تبكي في صمت فسقطت عبرة ساخنة على شفتيه ألهبته للكلام فقال لها: كفي هذه الدموع الحارة يا مريم، فأنا في لحظة الوداع التي هي عين اللقاء. لا تمسكيني في هذه الدنيا فضرتها تغازلني. لقد طوفت وعمرت واحدا وستين قافا هي كتاب وجودي على جبل قاف. إنني البداية والنهاية، وأنا الأس بين الحق والخلق. لقد صليت الصبح في سفح الجبل، وقد أذن المؤذن لصلاة المغرب على القمة. وبين السفح وقمة الجبل مسيرة خمسمائة عام. إنها الصلاة الدائمة، الصلاة الوترية، صلاة الشاهد، دعيني أؤم الناس. ثم رأى كأنه قام يصلي وقد اصطف المصلون خلفه وفيهم من جميع الأمم ومن جميع الخلائق. ولما خر في سجوده غاب عن حسه وغشيته أنوار الملكوت وخاض لجة المعارف، وطفقت تراوده جميع المنازل حتى عرس بها فلما استظهرها وأدرجت بين جنبيه فترت شفتاه بالشهادة ولسانه يردد: الله الله الله، وأشار بالسبابة ونطق بكلمة الرفيق.

فكانت آخر كلمة تلفظها ومعها لفظ أنفاسه فعرجت روحه إلى الملكوت وعم الناس نور عظيم ثم كف ذلك النور كما ينطفئ السراج في بساط الليل البهيم، فأفاق الناس من سكرتهم وعاينوا الشيخ الإمام، المعلم الأكبر مربي العارفين، الأعلم بكل فن من أهل كل فن، الكبريت الأحمر مسجى ساجدا لم يقم من سجوده

وقد انكفأ على نفسه انكفا. القاف بتعريقته. وكيف لا يكون قافا وهو لم يفتأ قرآنا متلوا منذ أرسى في مرسية وحتى آخر رمق من أنفاسه في محروسة دمشق كان آخر حرف يفوه به هو القاف في كلمة الرفيق، ليلة 22 من ربيع الثاني 638.

كان محيي الدين قافا، وقد سخر حياته للقاف. فقد انبعث من دائرة القاف بعدما سالت نقطته على الدائرة ثم صارت الدائرة تحبك دوائر يطوق بعضها الآخر في تعريقة القاف لتخط الكلام الأزلي السرمدي الأبدي. وها قد انعطفت التعريقة على نفسها منكسة حركتها إلى الداخل إلى قلب القاف حيث دائرة البداية، ولا بداية ولا نهاية، حيث النقطة التي سالت من القلم الأعلى من مداد الوجود الحق فخطت أسطر القول. لقد اقتفى القاف أثر القاف، وما ثمة إلا قائف وقاف. لقد سالت النقطة كالعبرة تبكي القائف الذي طلب أعز ما يطلب وخر ساجدا في محراب القاف الذي رأى حقائق الذات والتوحيد ثم فنى بعدها في مداد نون غيب الذات (ق-ر-آ-ن). وتلك هي المنقبة العظمى والقربة المثلى مع الصديق والرفيق.

فسلام عليك من حرف ألبسته خرقة القاف فانتشى بعرف مداد الوجود فهلل بالثنا والحمد. فذكراك في القلوب منتقشة، وإننا على سفينة القاف مبحرون حتى نلتقي الرفيق ونحط الرحال بجزيرة الوقواق أي في بلاد الذات، يا خاتم طي على جبل قاف ويا أكرم ولي ظهر من بردة النبي الأمي. مات محيي الدين وقد أحيى لهذه الأمة وجودها، وسيظهر محيي الدين.

وقد حضر جنازة الإمام الأمراء والعلماء والكبراء وفقهاء كل المذاهب والفرق والعقائد والملل وعامة الناس وخاصتهم. وقد غصت الطرقات بالمارة، وعم المدينة صمت رهيب وأذن المؤذنون على كل المآذن وأصواتهم تتعالى وتتقاذفها الرياح في شبه ترنيمة الوداع، وذرفت المدامع، كل المدامع الدموع الحارة. وبكى الجمع أكبر عالم وولي أنجبته حضارة الإسلام، بل حضارة الإنسان في كل عصر وزمان.

ودفن القاف في سفح جبل قاسيون غير بعيد عن الربوة المباركة حيث مثوى سبعين ألف نبي. وصارت روحه محلقة كالعنقاء على قمة جبل قاف، وانعقدت حية الحياة والولادة المتجددة على رفاتها مبشرة بحياة القاف في كل القلوب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كان المشهد عظيما والخطب جسيما وبكى الجمع في صمت فروت دموعهم الرفات الطاهر، ورددت كل الدوائر كلمة الشهادة على روح النبي الخاتم المحمدي. فرحمة الله عليك يا أبا عبد الله، فقد أرسلك الله على خطى النبي الإمام رحمة للعالمين وسوطا مسلطا على شياطين المعارف والعقائد التي توسوس للجنة والناس.

حساب الجُمَل

الترتيب	المشرقي	الترتيب	المغربي
ا	1	ا	1
ب	2	ب	2
ج	3	ج	3
د	4	د	4
ه	5	ه	5
و	6	و	6
ز	7	ز	7
ح	8	ح	8
ط	9	ط	9
ي	10	ي	10
ك	20	ك	20
ل	30	ل	30
م	40	م	40
ن	50	ن	50
س	60	ص	60
ع	70	ع	70

ف	80	ف	80
ص	90	ض	90
ق	100	ق	100
ر	200	ر	200
ش	300	س	300
ت	400	ت	400
ث	500	ث	500
خ	600	خ	600
ذ	700	ذ	700
ض	800	ظ	800
ظ	900	غ	900
غ	100	ش	1000

ملحوظة: للحصول على الجزم الصغير تخصم الأصفار من قيمة كل حرف. مثال: قيمة "ق" بالجزم الكبير 100 فتصير 1 بالجمل أو الجزم الصغير. وهناك حسابات أخرى يعرفها أهلها منها الترتيب النفسي والترتيب الطبائعي للحروف . . .

مشاهد الرواية


الدار البيضاء

كاتب الرواية أديب وباحث في اللغة والتصوف والتاريخ والأدب والسماع. حاز على دكتوراه في اللسانيات (علم الدلالة) من جامعة السربون بباريس. صدر له كتاب بالفرنسية عن نشأة المفاهيم بدار المنشورات الجامعية بفرنسا. درس كأستاذ ضمن شعبة اللغة العربية بكلية الآداب بمكناس.



كان محيي الدين ابن العربي قافا، وقد سخر حياته للقاف. فقد انبعث من دائرة القاف بعدما سالت نقطته على الدائرة ثم صارت الدائرة تحبك دوائر يطوق بعضها الآخر في تعريقة القاف لتخط الكلام الأزلي السرمدي الأبدي.

وها قد انعطفت التعريقة على نفسها منكسة حركتها إلى الداخل، إلى قلب القاف حيث دائرة البداية ولابداية ولا نهاية، حيث النقطة التي سالت من القلم الأعلى من مداد الوجود فخطت أسطر القول.

الثمن: 45 درهم